

مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي

(١٢٧)

دراســــــــــات
في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري

خلال العصر الإسلامي
من القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري
السابع الميلادي إلى السادس عشر الميلادي

تأليف

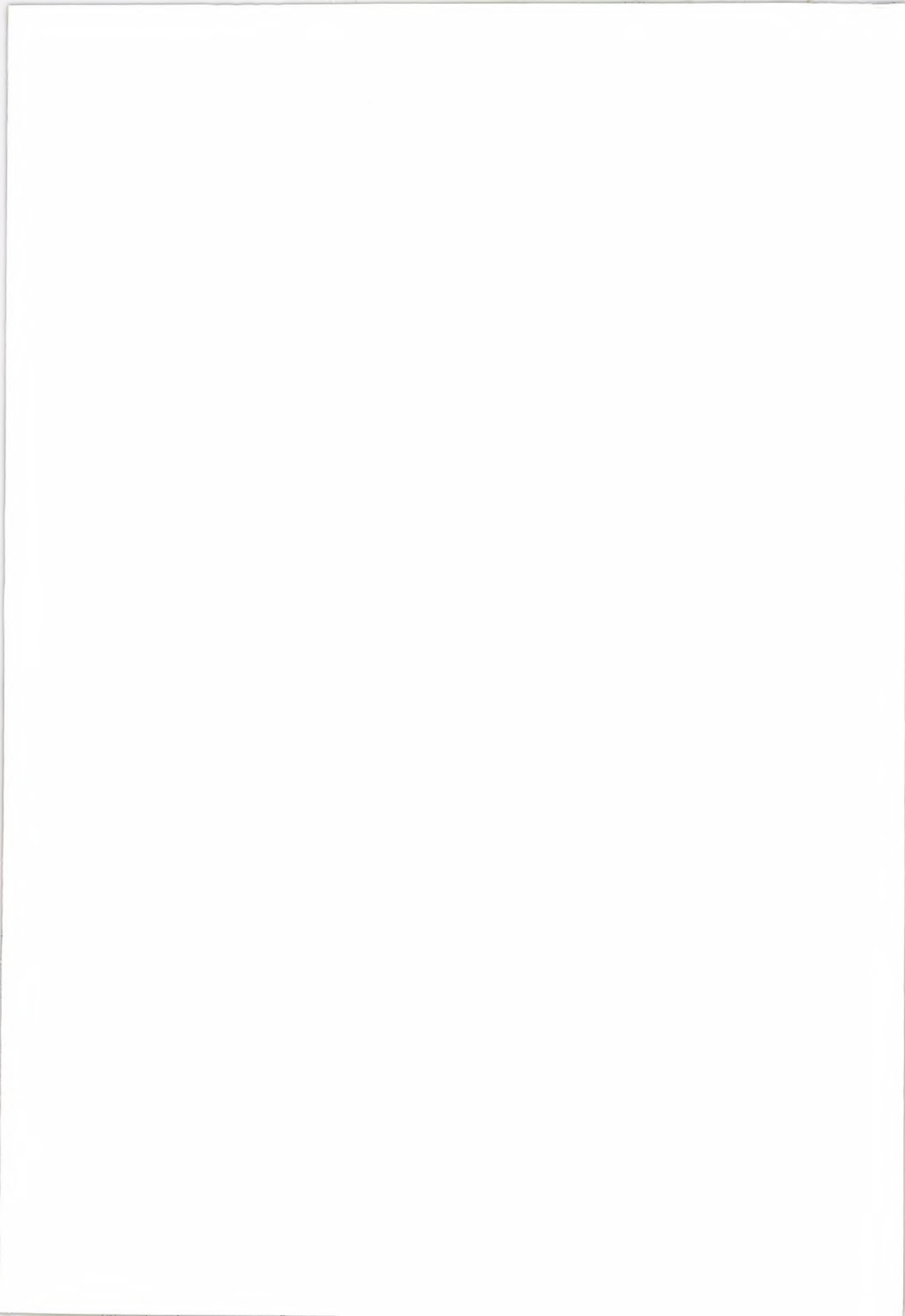
أ.د. غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم العلوم الاجتماعية

كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية

جامعة الملك خالد

الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م



دراســـــات
في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري

خلال العصر الإسلامي
من القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري
السابع الميلادي إلى السادس عشر الميلادي

تأليف
أ.د. غيثان بن علي بن جريس
أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم العلوم الاجتماعية
كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية
جامعة الملك خالد

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

ⓒ نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٢٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
جريس ، غيثان بن علي
دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري خلال العصر الإسلامي .
غيثان بن علي بن جريس – مكة المكرمة ، ١٤٢٤هـ
٣٥١ ص ، ١٧،٥X ٢٥ سم
ردمك : X – ٣٨-٦١٧-٠-٩٩٦٠
١-الحجاز - تاريخ إسلامي أ. العنوان
ديوي ٩٥٣،١٢ ١٤٢٤/٥٧١٧

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٥٧١٧
ردمك : X – ٣٨-٦١٧-٠-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ
آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

سورة إبراهيم الآيات (٣٥ – ٣٧)

شكر وتقدير

نتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير إلى نادي مكة الثقافي الأدبي ، وعلى رأسه رئيسه الأخ الفاضل معالي الأستاذ الدكتور / راشد الراجح وأعضاء مجلس إدارة النادي على تفضلهم بتبني نشر وطباعة هذا المصنف ضمن جهودهم المتميزة في خدمة الفكر والثقافة في بلادنا الغالية ، والله الموفق والمستعان .

المؤلف

٢٠/رمضان/ ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)

توطئـــة

الحمد للّه ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ،

أما بعد :

فإن البحث في تاريخ شبه الجزيرة العربية وحضاراتها بشكل عام ، وفي منطقة الحجاز بشكل خاص شيق وممتع ، ولكنه في نفس الوقت عمل صعب وشائك وذلك لعدة أسباب نورد منها ما يلي :

1. أن شبه الجزيرة العربية هي الأرض التي احتضنت العديد من الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة ، وأهم حضارة عرفتها هذه البلاد هي حضارة الإسلام ، فكان منها المجاهدون والفاتحون الأوائل ، بل هم الذين بذلوا الغالي

والرخيص من أجل رفع راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها .

٢. أن الحجاز يعد أهم جزء في شبه الجزيرة العربية بما احتواه من مقدسات ومشاعر دينية ، ونعني بالحجاز هنا ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فهاتان المدينتان رفع الله من شأنهما منذ عصور قديمة فبيت الله الحرام، قد رفعت قواعده في مكة منذ عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وجاء من بعده رسولنا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ فأحيا ملة الحنيفية التي جاء بها الرسول إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام . أما المدينة فهي ذات تاريخ عريق أيضاً وزادت عراقتها وازدهرت حضارتها بهجرة النبي ﷺ إليها واتخاذها حاضرة الدولة الإسلامية ، ثم احتواؤها على

مسجده ومثواه الشريف ، وكل هذا جعلها تتبوُ مكانتها لتكون مدينة دينية إسلامية شهيرة تهوي إليها أفئدة المسلمين من كل مكان .

٣. أن أصالة وعراقة شبه الجزيرة ، وبخاصة الحجاز جعلت المسلمين بجميع فئاتهم ومراتبهم يتشوقون إلي سماع أخبارها ، فكانت في عصر الرسالة وصدر الإسلام تعد المركز الرئيسي للعالم الإسلامي ، ولكن بعد عصر الخلفاء الراشدين صارت ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية ، ومع ذلك فقدسيتها بقيت ولازالت عند جميع المسلمين حتى وإن فقدت مركز الصدارة السياسي والزعامة التي كانت تتمتع بها في صدر الإسلام ، ولعل انتقال مركز الثقل السياسي منها إلى حواضر إسلامية أخرى كدمشق ،

أو بغداد ، أو القاهرة، قد ساهم بشكل أساسي في جعل تاريخ شبه الجزيرة ـ بعامة ، والحجاز منها على وجه الخصوص ـ يعتريه بعض القصور والغموض، وأحياناً الإهمال في بعض الفترات الزمنية من قبل المؤرخين ومدوني التراث عبر العصور الإسلامية . ويمثل هذا القصور عقبة رئيسة أمام الباحث في هذا المجال وخاصة منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر للهجرة (السابع الميلادي إلى السادس عشر للميلاد)، حيث يلاحظ الدارس فراغاً كبيراً وفجوات زمنية عميقة ولا سيما عند تصديه لدراسة النواحي الحضارية عامة ، والحياة الاجتماعية منها خاصة .

وليس معنى هذا النقص أنه لا يوجد رصيد حضاري مدون، بل هناك بعض الشذرات المتناثرة في كتب التراث عن شبه الجزيرة

عامة ، ونلاحظ أن الحجاز يُعد رغم ذلك أوفر حظاً من غيره من أجزاء شبه الجزيرة العربية ، والسبب في ذلك يعود إلى المنزلة الدينية التي يتمتع بها ، ورغم ذلك فما دُوِّن من تاريخه السياسي والحضاري لا يفي تماماً بالغرض المنشود .

ذلك ما عرفته خلال اطلاعي على مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية المختلفة منذ قرابة ثلاثين عاماً ، ومنذ بدأت أعمل لدرجة الدكتوراة والتي كان موضوعها يدور حول: التاريخ الاجتماعي والحرفي والتجاري في الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢ هـ / ٧٤٩ - ٨٤٧م) ، لهذا أقول إن تاريخ الحجاز بشكل خاص وشبه الجزيرة بشكل عام لا زال بحاجة إلى دراسات تاريخية وحضارية وأثرية جادة ومتأنية تتسم بالأصالة والجدةً يستطيع الباحثون في ضوئها حفظ تاريخ

وتراث هذه المنطقة الغالية في شكل تقديم دراسات وموضوعات جادة وجيدة ، ولذا فإنني أهيب بإخواني الباحثين في محيط هذه البلاد أن يضاعفوا الجهود ويوحدوها في سبيل إبراز دور هذه المنطقة عبر العصور التاريخية المختلفة، ويضاعف من مسؤولياتهم تجاه ذلك كون الحجاز بلاد مهمة وعزيزة إلى قلوب وعقول كل المسلمين في أصقاع المعمورة.

أما هذا الكتاب فهو عبارة عن مجموعة من البحوث والدراسات التي سبق نشرها في مجلات ودوريات علمية وفكرية أدبية محكمة، وبعضها قُدِّم في ندوات أو منتديات علمية وفكرية على مدى أكثر من عشر سنوات ماضية ، وجميعها تدور حول تاريخ وحضارة الحجاز ، وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة وما حولهما في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، ولعل من

الأسباب التي جعلتني أفكر في جمع هـذه الدراسات في كتاب متكامل تحت عنوان محدد وهو.

دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري خلال العصر الإسلامي من القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري / السابع الميلادي إلى السادس عشر الميلادي ،

تتمثل في عدة أمور منها :

١. مقابلتنا للأخ الكريم معالي الأستاذ الدكتور / راشد الراجح ، رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي في يوم الثلاثاء (٢٠/١٠/١٤٢٣هـ الموافق ٢٤/١٢/٢٠٠٢م) وتجاذب أطراف الحديث مع معاليه حول تاريخ وتراث شبه الجزيرة العربية ، وعن تاريخ وحضارة الحجاز ، وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأبديت له أن لدي العديد من

الدراسات والاهتمامات بالحجاز ، وخصوصاً أرض الحرمين، فقال مشكوراً " إذا كان لديكم شئُ عن الحجاز فلا مانع لدى نادي مكة من طباعته ونشره " وهذا القول والتشجيع من معاليه جعلني أعمد إلى ترتيب الدراسات العلمية وجمعها في هذا الكتاب وإرسالها لمعاليه كي يطلع عليها مع أعضاء النادي المحترمين والمعنيين بمثل هذه الأمور لعله ينال رضاهم وموافقتهم بطبعه ونشره .

٢. أن جُلّ هذه المادة العلمية المطبوعة في هذا الكتاب كانت في الأصل باللغة الإنجليزية وقد استخدمنا أغلبها في أطروحتنا التي تقدمنا بها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة مانشستر ببريطانيا عام (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ، ثم أضفنا وأجرينا عليها الكثير من التعديلات والإضافات

ونشرنا بعضها في مجلات علمية وفكرية متباعدة في أزمانها وأماكنها ، ولهذا في اعتقادي أنه أصبح من الصعب أو التعذر على الكثير من الباحثين الرجوع إليها والإفادة منها ، وخاصة ما قدمناه في ندوة أو محاضرة أو نشر في مجلة علمية أو فكرية محصورة في المؤسسات أو المراكز أو الجامعات التي تتولى الإشراف عليها .

٣. أن جميع هذه الدراسات والبحوث تنصب على بلاد الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ومنها ما ناقش بعض القضايا السياسية والحضارية في هذه البلاد في صدر الإسلام ، وكثير من العناوين والمعلومات المطروحة عالجت مواضيع عديدة في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ - ٨٤٦ م) ، كما أن هناك مواضيع أخرى تعرضت

لتاريخ الحجاز وعلاقته مع غيره في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها .

٤. أن هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب ، تعد باكورة (بإذن الله تعالى) لأعمال علمية أخرى قادمة أسأل الله العلي القدير أن يمكننا من تقديمها للقارئ الكريم ونشرها في أجزاء تالية وبنفس العنوان والمنهج المتبعين عن منطقة الحجاز .

٥. أيضاً مما شجعنا على إخراج هذه الدراسة هو السعي إلى إيجاد تواصل علمي وفكري بين الباحث وبين القارئ العام والدارسين والمتخصصين أملاً أن أتلقى منهم أي جديد ليضاف إلى ما قدمته أو يصحح خطأ غير مقصود ، أو يفتح المجال أمام موضوعات جديدة وجديرة بتوسيع دائرة النقاش

أو البحث أو الدراسة في تاريخ وحضارة بلاد الحجاز في العصر الإسلامي .

وفي الختام ، لا يسعني إلا أن أقدم جزيل شكري وعظيم امتناني إلى نادي مكة الثقافي الأدبي وإلى جميع الأخوة القائمين على أمره وفي صدارتهم الأخ العزيز معالي الأستاذ الدكتور / راشد الراجح ، رئيس النادي ، على إتاحة الفرصة لي لجمع هذه الدراسة وإخراجها تحت هذا العنوان ، واسأل الله لهم ولنا التوفيق والسداد في خدمة المعرفة ورفع راية الثقافة في بلادنا ، كما أتوجه بالشكر لأخي وزميلي وصديقي الدكتور / أسامة أحمد حماد الذي أفادني ببعض وجهات نظره الجيدة والنيرة منذ رسم العنوان الرئيسي للكتاب إلى ترتيب محتوياته ومقدمته ، فله مني جزيل الشكر والتقدير أيضاً

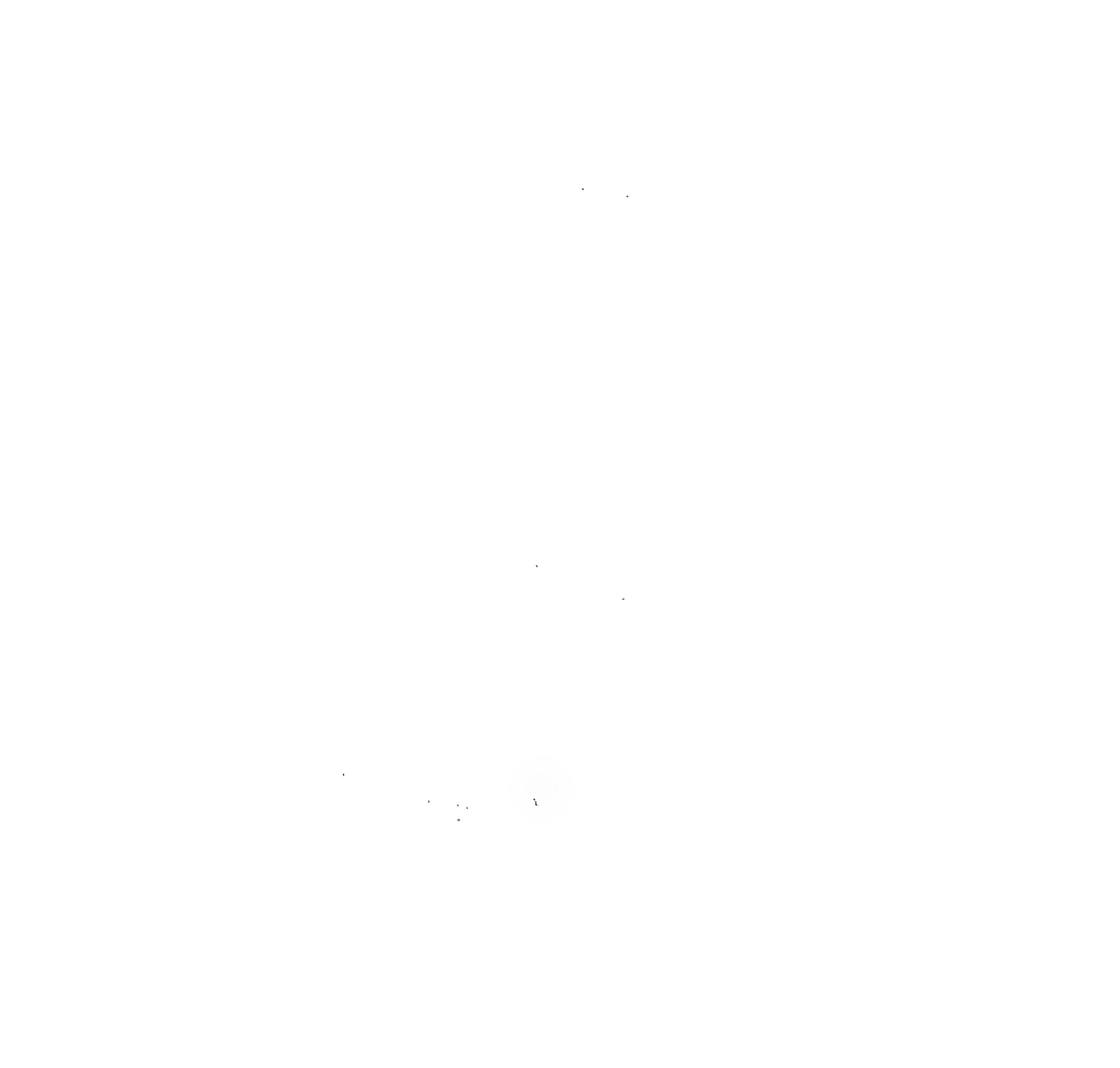
لا يفوتني أن أقدم شكري وتقديري لجميع أفراد أسرتي الذين لا يألون جهداً في توفير الوقت والراحة المناسبة ، حتى استطعنا بتوفيق الله ، إنجاز هذا العمل وغيره من الأعمال العلمية والفكرية ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أعده ثم رتبه وانتهى منه
غيثان بن علي بن عبد الله بن جريس الجبيري الشهري
بمنزله الكائن بحي المنسك في مدينة أبها غرة
شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وألف
من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم

الدراسة الأولى

تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة والنوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام (*)

(*) دراسة نشرت في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد (٨) رجب (١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م) ص ٤١٢ ـ ٤٣٣ .



تطور العلاقة السياسية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام

إن عهد الرسالة ثم عهد الخلفاء الراشدين لهما أهم وأعظم العهود التاريخية في الإسلام ، وذلك لما ظهر فيهما من أحداث سياسية وحضارية عظيمة أدت في نهاية المطاف إلى توحيد أجزاء عديدة من القارتين الآسيوية والأفريقية تحت كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله. إن هذه الفترة الزمنية المبكرة في تاريخ الإسلام تعد القاعدة الأساسية والمدة التي نزلت فيها رسالة القرآن من رب العباد إلى نبيه محمد ﷺ لكي يخرج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة رب السموات والأرض وما بينهما ، كما أنها الفترة التي دخل فيها الناس في دين الله أفواجاً ثم تصدوا لطواغيت الكفر والضلالة داخل وخارج شبه الجزيرة العربية فساروا في سبيل الله يجاهدون ويبذلون كل غال ورخيص من أجل الفوز بالشهادة أو إعلاء كلمة الله وهزيمة أهل الكفر والطغيان .

ولم تمر ثلاثة عقود من تاريخ الإسلام إلا وجحافل المسلمين قد وصلت إلى كل من بلاد الشام ومصر وأجزاء من بلاد المغرب والعراق وبلاد فارس وبهذا تحقق وعد الله لنبيه بأن رسالة الإسلام عامة شاملة لجميع البشرية (١).

وهذا البحث يهتم بالعلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في العقود الأولى من تاريخ الإسلام ، لهذا فإن الكلام عن الأحداث السياسية والحضارية التي حصلت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وليس لها علاقة بموضوع البحث سوف تكون بعيدة عن محيط دراستنا وما سيتم مناقشته هو وضع العلاقات السياسية والتجارية التي تربط بين أرض إثيوبيا ، أو ما يسمى الحبشة (٢) ، في أغلب المصادر العربية وبلاد النوبة مع منطقة الحجاز، لنرى مستوى ونوعية تلك العلاقات ؟ ومدى نشاطها بين تلك الأطراف ؟ وبالإجابة على هذه النقاط نستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن تلك العلاقات بين تلك الأجزاء الأفريقية ومنطقة الحجاز الآسيوية.

أ- العلاقات السياسية بين بلاد الحبشة والحجاز :

لم تكن صلة بلاد الأحباش بمنطقة الحجاز ولا بشبه الجزيرة العربية وليدة ظهور الدين الإسلامي ، وإنما الصلات بين الطرفين تعود إلى ما قبل الإسلام بقرون عديدة فكانت هناك صلات تجارية بين القرشيين والأحباش، بل وكانت هنالك هجرات عربية خرجت من شبه الجزيرة العربية واستقرت في بلاد الحبشة وأجزاء أخرى من بلاد شرق أفريقيا (٣).

وبينما يبدو أن العلاقة بين منطقة الحجاز والحبشة لم تكن مقتصرة على الهجرات الذاهبة من بلاد الجزيرة أو على الصلات التجارية فقط وإنما يحتمل وجود علاقات سياسية بين الحجازيين والأحباش أيضاً،

إذ يروى لنا ابن حبيب رواية تؤكد مثل ذلك ، فيذكر أنه حدث في الجاهلية صراع شديد بين بني هاشم وبني أمية . وبعد احتدام النزاع بين الطرفين قرروا الاحتكام إلى أحد ملوك ذلك الزمان ، فكان اختيارهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة ليحتكموا على يد مليكها فيما تنازعوا فيه (٤) ، ويستنتج من هذه الرواية ، أن العلاقات بين ملوك الحبشة وأعيان أهل الحجاز من القرشيين كانت على مستوى جيد ، وإلا لما كانت الحبشة أرض وساطة وصلح بين الأطراف المتنازعة في الحجاز ويلجأ إليها عند الحاجة وساعات المحن.

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي ﷺ وأصحابه، ورأى الرسول ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأن عمه أبا طالب لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من اضطهاد، أذن لهم في الهجرة إلى بلاد الحبشة قائلاً " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه " فكانت أول هجرة في الإسلام سنة (٦١٥م) السنة الخامسة من البعثة (٥) .

ويذكر النويري في تعليل اختيار الرسول ﷺ للحبشة دون غيرها انها من البلاد الكتابية أو الوثنية وفي تبرير وصفه لملك الحبشة أنه ملك لا يظلم عنده أحد رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن نجاشي الحبشة (أصحمه) كان أبوه ملكاً على الحبشة وهو فتى صغير فنازعه عمه الملك واستولى عليه من أخيه وتشرد أصحمة حتى بيع إلى رجل عربي من بني

ضمرة فمكث ببلاد العرب مدة تعرّف فيها على عاداتهم ولهجاتهم ثم عاد إلى الحبشة واستعاد ملك أبيه ومن هنا كان سر التعاطف بينه وبين العرب بوجه عام (٦) .

ومهما يكن من أمر فقد أثبت اختيار الرسول ﷺ للحبشة أنه كان اختياراً سليماً لأن معظم المدن والقبائل العربية كانت حتى ذلك الوقت تقف موقف المكابر المعاند من الدعوة الإسلامية بالإضافة إلى احتمال مجاملتها لقريش كبرى القبائل في شبه الجزيرة العربية ، كما أن إيفادهم إلى اليمن أو الحيرة أو الشام محفوف بالخطر لأنها كانت أسواقاً يتردد عليها العرب بين حين وآخر ، أما التفكير في إرسالهم إلى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب المعتنقين للديانات اليهودية والمسيحية فقد أُستبعد لشدة عدائهم للإسلام والخوف من منافسته لعقائدهم، كما جاء في قوله تعالى:

" ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " (٧) .

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن الحبشة كانت أقرب البلاد المسيحية التي يحكمها ملك مسيحي إلى الجزيرة العربية ، والسفر إليها أهون أمراً وأسلم عاقبة إذ لا يزيد عن كونه عبوراً للبحر الأحمر وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً عن طريق القبائل العربية المعادية(٨).

وليس من شك في أن أعداء الدعوة لم يخطر ببالهم أبداً أن يضحي السابقون إلى الإسلام بوطنهم ومهد حياتهم وأن يذهبوا إلى هذا البلد البعيد عن مواطنهم الأولى .

ويذكر أبو محمد عبد الملك بن هشام(٩) عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحاق المطلبي أن عدداً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ خرج إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم ، ذهبوا في سفينتين تجاريتين لقاء نصف دينار عن كل واحد منهم ، ورست السفينتان عند مكان على شاطيء اسمه (مصدر) جنوبي ميناء عدوليس ، Adulis ، الميناء الاريتري القديم ، ومن هناك اتجهوا نحو ، أكسوم (الحبشة) وكان مجموع المهاجرين من المسلمين عدا أبنائهم اللذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا بها بعد ذلك ثلاثة وثمانين رجلاً وسيدة ، ويذكر ابن هشام عدداً كبيراً من الأسر العربية المهاجرة في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس وعثمان بن عفان وابن أبي العاصي وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهيلة بنت سهيل بن عمرو ، ومن بني أسد الزبير بن العوام بن خويلد ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي بن المغيرة ومن بني جمح عثمان بن مظّعون ومن بني عدى عامر بن ربيعة ومن بني هذيل عبد الله بن مسعود ومن بني بهراء المقداد بن الأسود ومن بني

جمح شرحبيل بن حسنة ومن بني الحارث أبو عبيدة بن الجراح وغيرهم كثيرون من مختلف القبائل (١٠) .

وعندما وصل أولئك المهاجرون الأوائل إلى بلاد النجاشي في الحبشة وجدوا فعلاً ما كان قد وعدهم به الرسول ﷺ من أن ملكها عادل لا يُظلم عنده أحد ، وأنه كان نعم المجير ويتضح ذلك من قول أم سلمة عندما وصفت معاملة النجاشي للمهاجرين فقالت " لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه " (١١) .

وقد أورد ابن هشام بصدد الهجرة إلى أرض الحبشة بعض الشعر الذي يصف فيه ما كان يقاسيه المهاجرون من اضطهاد وبلاء بين القرشيين ، ثم ما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم عندما أتوا أرض الحبشة ، فأحسن جوارهم النجاشي وعبدوا الله لا يخافون في ذلك أحداً ، ويتناول بعضه عتاب قريش وذمها على كفرها وموقفها من عداء الرسول ﷺ وصحابته ، ومن ذلك الشعر ما قال أحد المهاجرين ، عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي إذ قال (١٢) :

كل امرىء من عباد الله مضطهد	ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة	تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز	ى الممات وعيب غير مأمون

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً ، يذكر نفي قريش إياهم من بلادهم ويعاتبهم في ذلك ، فقال :

أبت كبدي لا أكذبنك قتالهم … علي وتأباه على أناملي

وكيف قتالي معشراً أدبوكم … على الحق أن لا تأشبوه بباطل

نفتهم عباد الجن من حر أرضهم … فأضحوا على أمر شديد البلابل

وقال أيضاً :

وتلك قريش تجحد الله حقه … كما جحدت عاد ومدين والحجر

ومما لا شك فيه أنه كان لذهاب المهاجرين إلى الحبشة أثر كبير في نشر الإسلام وترغيب الناس فيه ، فقد شاع الدين الجديد بين العرب ، وعرفوا أن أولئك المهاجرين الأوائل خرجوا من موطنهم الأصلي ، مكة ، إلى الحبشة فراراً بدين (الله) جاء به النبي محمد ﷺ، وبذلك قُدر للإسلام أن يصل إلى أذان من لم يكن سمع به من قبل ، ثم إنه كان لخروج هذه الجماعة المضطهدة أثر كبير في ترقيق قلوب أهليهم ، إذ رأوا أن فريقاً منهم اضطر لهجرة وطنه لأنه أوذي في دينه .

ولما رأت قريش أن المسلمين استقروا في الحبشة أرسلت في أثرهم وفداً يحمل مجموعة من الهدايا إلى النجاشي ، ويطلبون منه باسم سادة قريش أن يعيد أولئك المهاجرين إلى مكة ، وكان ذلك الوفد الذي أرسلته قريش مكوناً من رجلين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعند وصولهما إلى أرض الحبشة اتصلا ببطارقة النجاشي ووزعا عليهم الهدايا

التي جاءا بها من الحجاز ثم طلبا منهم مساعدتهما عند الملك ليرد لهم أولئك المهاجرين الذين أسلموا وجاءوا إلى بلاده ، فوعدوهما بذلك ، ثم ذهبا لمقابلة الملك ، وعند مقابلته ، أعطياه الهدايا التي كانا قد أحضراها معهما من مكة ثم كلماه فقالا له " أيها الملك انه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه (١٣) وعند سماع النجاشي كل ما قال ابن العاص وابن أبي ربيعة ، قام البعض من بطارقة النجاشي وأوصوا الملك بإرجاع أولئك المهاجرين المسلمين ، فغضب لتصرف بطارقته وكذلك لكل ما سمع من وفد قريش ثم قال " لا ها الله إذن لا أسلمهم اليهما ، ولا يُكَادُ قوم جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فان كانوا كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم إلى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني(١٤).

وبعد إصرار النجاشي على السماع من المسلمين جيء بهم وكان متكلمهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فبعد أن سأله الملك عن الدين الذي اعتنقوا وفارقوا ديانة قومهم فقال له جعفر " أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام،

ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منى لضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا . وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا الا نظلم عندك أيها الملك (١٥)".

وبعد سماع النجاشي تلك المقولة الصادقة من جعفر أدرك أن أولئك المهاجرين أصحاب الحق والكفة الراجحة ، فلم يكن يصغي لعمرو بن العاص وصاحبه ، ولم يلب طلبهما الذي جاءا من أجله ، وسمح لجعفر بن أبي طالب وأصحابه أن يعيشوا في الحبشة تحت حمايته وفي ظل حكمه ، وبهذا ثبت أن توقّع الرسول ﷺ انه ملك لا يظلم عنده أحد كان توقعاً صادقاً ، وبعد نظر ثاقب .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والسير العديد من الوثائق السياسية التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة ، فيذكر عبد الشافي غنيم

عبد القادر رسالة أرسلها الرسول ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري وفيها يدعو النجاشي إلى الإسلام ونصها " من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة إني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم البتول الطيبة الحصينة حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلّغت ونصحت فأقبلوا نصحي وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع " (١٦) .

ويشير عبد الشافي غنيم إلى أن هذه الرسالة قد أرسلت مع عمرو بن أمية في الفترة التي هاجر فيها المسلمون الأوائل من مكة إلى الحبشة ، والسبب في إرسالها مع عمرو دون سواه عائد إلى صلة أصحمة بقبيلة بني ضمرة التي يذكر أنه عاش بين أفرادها فترة من الزمن ، لهذا سوف يكون لها شأن لدى نجاشي الحبشة اذا جاء بها رجل من تلك القبيلة (١٧) . ومثل هذه الرواية قد لا يُعتمد عليها لعدة أسباب هي :

١) أن إرسال عمرو بن أمية الضمري من قبل الرسول ﷺ ورد في مصادر عديدة لكنه ليس في الفترة المكية فهناك روايات تقول إنه أُرسل بعد موقعة بدر الكبرى ، وكان سبب إرساله أن الرسول ﷺ وجهه بخطاب إلى النجاشي بعد أن بعثت قريش بعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لأجل استرداد المهاجرين ، لكن المصادر التي أشارت إلى هذه

الرسالة لم تورد نص الخطاب (١٨) ، في حين أن هناك رواية أخرى تذكر أن التاريخ الذي أرسل فيه عمرو بن أمية الضمري كان بعد صلح الحديبية أي في السنة السادسة من الهجرة ، ومضمون الرسالة التي كان يحملها كانت قريبة في مضمونها وألفاظها من الرسالة التي تم تدوينها أعلى (١٩) .

٢ أن القول إن عمرو بن أمية أُرسل لأجل القصة التي أوردها حول بقاء أصحمة في ديار بني ضمرة ليس سبباً قوياً لأن يختار الرسول ﷺ بلاد الحبشة موطناً لأصحابه ، وإنما قرب بلاد الحبشة من منطقة الحجاز، ثم وجود ملك بها اتصف بالعدالة والإنصاف ، أيضاً توقعات وبعد نظر الرسول الثاقب تكون كل هذه الأسباب مجتمعة في اختيار بلاد النجاشي دون ما سواها .

وقد أورد محمد حميد الله ثلاث رسائل من الرسول ﷺ، وهي متشابه في محتواها وغالباً في ألفاظها ، ومدلول تلك الرسائل دعوة الرسولﷺ للنجاشي ليدخل في الدين الإسلامي ، ومن مضمون تلك الرسائل يبدو أنها أرسلت في فترة الدعوة المدنية وبعد السنة السابعة تقريباً ، لأن صياغة أسلوبها من قبل الرسول ﷺ لا يختلف عن صياغة الرسائل التي كان قد أرسلها إلى ملوك وأباطرة الأرض ، وذلك بعد أن عقد مع قريش ما عرف في التاريخ بصلح الحديبية ، لكن من يقف وقفة المدقق لألفاظ تلك الرسائل يجد محمد حميد الله يقسمها إلى ثلاث رسائل ، علماً أنه ليس

هناك اختلاف في معناها ، وإن توفر بعض الاختلاف اللفظي فهذا حسب اعتقادي لا يعني أن الرسول ﷺ أرسل ثلاث رسائل متتالية ، وإنما هي تقريباً رسالة واحدة، وبالتالي أدخل عليها المؤلفون والنساخ التبديل والتغيير في اللفظ حتى يراها القاريء لأول وهلة ثلاث رسائل مختلفة ، ثم إننا لو حاولنا أن نُسّلم بأنها ثلاث رسائل ، فقد لا نجد إلا رسالة واحدة من النجاشي يرد فيها على رسالة الرسول ﷺ ويرحب فيها بدعوته إياه إلى الإسلام ثم تبع ذلك أن أعلن إسلامه قائلاً إني " أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه ، بل وأسلمت على يديه لله رب العالمين "(٢٠).

ولعل إسلام النجاشي هنا يكون قد نتج عن طريق تأثير المهاجرين الأوائل في بلاده حيث إنه ليس ببعيد أن يكون قد انتشر الإسلام بين الأحباش عن طريقهم ، ثم إنه ليس ببعيد أيضاً أن الرسول ﷺ كان يسعى إلى الاتصال بالمسلمين في الحبشة، فيشجعهم على الثبات على دينهم، والظهور بالمظهر الحسن الموافق للعقيدة الإسلامية، وذلك ليكون لهم التأثير في المجتمع الحبشي وبالتالي يدينون بالإسلام كما فعل النجاشي عند ما جاءته الدعوة من رسول الله ﷺ.

ونلاحظ أن محمد حميد الله يستطرد في ذكر الرسائل التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة بعد إسلامه فيورد كتابين تم إرسالهما من النجاشي وفيهما يظهر سمات توطيد العلاقات السياسية بين

ملك الحبشة والرسول ﷺ حيث ذكر أحدهما ((أما بعد : فإني قد زوجتك امرأة من قومك وعلى دينك وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢١)، وأهديتك هدية جامعة قميصاً وسروالاً وعطافاً وخفين " (٢٢). وفي الرسالة الثانية يقول " أما بعد : فقد أرسلت إليك يا رسول الله من كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي ، وها أنا أرسلت إليك ابني أريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة وإن شئت آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق))(٢٣) .

وهاتان الرسالتان الأخيرتان من النجاشي إلى الرسول ﷺ توضحان لنا توطيد العلاقة بين الطرفين ، حتى أن النجاشي يقوم بتزويج الرسول ﷺ، ودفع الصداق عنه ، بل ويرسل العديد من الأحباش المسلمين ليقدموا ولاءهم وخدمتهم للإسلام وإعلاء كلمة الدين ، كذلك يبادر الرسول ﷺ ويبادله المشاعر الطيبة التي تعكس وجه العلاقة الحسنة ، وقد تأثر الرسول ﷺ إثر سماعه بوفاة النجاشي فيترحم عليه ثم يأمر أصحابه بالترحم عليه أيضاً ، والصلاة عليه صلاة الغائب ، ومثل هذا لا يحدث من رسول الله ﷺ إلا ويكون هناك علاقة طيبة مع ذلك المسلم الحبشي(٢٤).

ومع أن العلاقات بين الرسول ﷺ والنجاشي كانت طيبة وحسنة ، إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض اعتداءات الأحباش وخصوصاً القراصنة(٢٥) الذين كانوا يستوطنون بعض جزر البحر الأحمر ، حيث أشارت بعض المصادر إلى أن العديد من القراصنة الأحباش كانوا قد أغاروا على سواحل

ميناء جدة ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة(٩هـ) وعند سماع الرسول ﷺ بتلك الغارة أرسل سرية يقودها علقمة بن مجزز المدلجي لمواجهة أعمال القرصنة واعتداءات الأحباش ، وعند وصول تلك السرية ، التي تتكون من ثلاثمائة رجل ، إلى سواحل جدة تراجع القراصنة الأحباش منهزمين إلى ديارهم (٢٦).

ومع أن المصادر العربية لم تذكر صراحة موقف الأحباش من المسلمين رغم الصلات الطيبة والعلائق الوشيجة التي تربط الرسول ﷺ بملك الحبشة ، إلا أن ملك الحبشة نفسه أعلن إسلامه (٢٧) ، بل وأرسل من قبله وفداً يذهب إلى المدينة لمقابلة الرسول ﷺ وللاستقرار في أرض الحجاز ، وربما كان لتمادي ملك الحبشة في استمرار علاقاته الطيبة بالمسلمين عاملاً مهماً من عوامل تحرش بعض الأحباش الذين لم يرضهم ما يقوم به ملكهم من تواد وتعاطف تجاه المسلمين ، لذلك بادروا بأعمال القرصنة ومهاجمة سواحل الحجاز ، إلى جانب أنه كان هناك ـ ربما ـ دافع آخر قد يكون لعب دوراً في مهاجمة سواحل الحجاز ، الا وهو حب القراصنة لمهنتهم وممارسة الاعتداء وبث الرعب في قلوب أفراد المجتمعات الهادئة المطمئنة ، بل والعيش على مهنة السلب والنهب والإغارة على أهالي السواحل .

ولم تكن غارات قراصنة الحبشة تتوقف عندما قاموا بها سنة(٩هـ) ، وإنما تكررت في عهد الخلفاء الراشدين وبصفة خاصة على ميناء جدة ، ففي سنة (٢٠/٦٤١م) هاجمت غارة حبشية موانيء الحجاز فتصدى لها الخليفة

الفاروق عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤م) بإرسال سرية مكونة من أربع سفن لترد تلك الغارة وتطردها من مهاجمة سكان الحجاز(٢٨).

لم تكن الصلات الحسنة بين أهالي الحبشة والخلفاء الراشدين في الحجاز قد انقطعت بوفاة الرسول ﷺ وإنما الهجرات العربية ازدادت نشاطاً في الثلاثة العقود الأولى بعد موت رسول الله ﷺ وذلك لما حدث في الساحة الإسلامية ، وخصوصاً منطقة الحجاز ، من الحروب والفتن كحروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م) وكالفتنة والحروب الأهلية التي حدثت في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) وتلك الهجرات من بلاد الحجاز وكذلك من أجزاء عديدة داخل وخارج شبه الجزيرة العربية كانت قد فتحت طريقاً لانتشار الإسلام في بلاد الحبشة وغيرها من بلاد أفريقيا بل وساعدت على انتشار الثقافة والفكر الإسلامي في تلك البلاد(٢٩).

وبالموازنة بين عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين نرى أن صلات الخلفاء الراشدين بملوك الأحباش قد أهملتها المصادر تماماً وربما نتج هذا التجاهل من جانب المؤلفين الأوائل ، عن عدم وجود صلات ملموسة بين الجانبين كتلك الصلات القوية التي كانت عليها أيام الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة ، وقد يكون هذا الافتراض صحيحاً خاصة إذا أدركنا الظروف القاسية التي مرت بها الدولة الإسلامية خلال عصر الخلفاء الراشدين إضافة إلى أن الفتوحات الإسلامية والتوسع الكبير الذي شغل

المسلمين في عصر الخلافة الراشدة ، والذي كان بعيداً عن أرض الأحباش ومركزاً في بلاد فارس والشام ومصر التي عن طريقها امتد الإسلام إلى بلاد النوبة المجاورة لأرض الحبشة ، وبلاد النوبة سوف تكون محور حديثنا في موضع آخر من هذا البحث .

ب- العلاقات التجارية بين الحبشة والحجاز :

أدت العلاقات السياسية الطيبة بين الأحباش في عهد أصحمة النجاشي ، وبين أهل الحجاز في عهد الرسول ﷺ وإلى حد ما في عهد الخلفاء الراشدين ، إلى نشاط العلاقات التجارية والتي أصبحت استمرار للعلاقات التجارية التي كانت سائدة في العهود السابقة للإسلام ، فيذكر لنا ابن حبيب روايات عدة يوضح فيها نشاط انتشار الرقيق الحبشي، وكذلك السلع المستوردة من بلاد الأحباش إلى أسواق الحجاز حيث كانت تجد لها رواجاً بين سكان أهل الحجاز وغيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية (٣٠) .

ومما يؤكد القول - إنه كانت هناك صلات تجارية وثيقة - ما ذكرته بعض الروايات عن الإيلاف الذي أوجدته قريش خصوصاً أولاد عبد مناف الأربعة (٣١) والذين ذهب كل واحد منهم إلى طرف من أطراف العالم آنذاك ليحصل من ملك تلك البلاد الحماية والأمان لتجار الحجاز، خصوصاً القرشيين ، ومما ثبت أن عبد شمس بن عبد مناف كان هو الذي ذهب إلى ملك الحبشة ليحصل على ذلك الأمان ، وفعلاً قد نجح في مهمته

حتى أصبح تجار قريش يذهبون ويرجعون بتجارتهم وسلعهم المختلفة ما بين أرض الحجاز وبلاد الحبشة (٣٢) .

لقد كانت هجرة المسلمين الأوائل إلى بلاد الأحباش والمراسلات المستمرة بين الرسول ﷺ وبين أصحمة ملك الحبشة دليلاً قوياً على أواصر الصداقة ، بل وعاملاً مساعداً على تنشيط العلاقات التجارية بين الطرفين ، فلقد كثرت الطرق التجارية التي كانت تربط بينهما ، فهنالك الطريق البحرية التي كانت تربط موانيء بلاد الأحباش بموانيء الحجاز أمثال الشعيبة وجدة والجار (٣٣) ، كذلك كان هناك طريق آخر يربط بلاد الأحباش بالبلاد اليمنية ، وبالتالي تتصل أرض اليمن مع الحجاز بعدة طرق برية تصل عن طريقها سلع بلاد الأحباش إلى أسواق الحجاز (٣٤).

أما الطريق البحري ـ الذي يربط بلاد الحبشة بموانيء بلاد الحجاز عبر البحر الأحمر ، خلال عصر الإسلام ـ فقد أفاضت المصادر في ذكره، وأول إشارة إلى ذلك عند الحديث عن هجرة المسلمين الأوائل الذين خرجوا من مكة إلى ميناء الشعيبة ، ثم ركبوا سفناً بحرية من سفن الأحباش حتى أوصلتهم إلى أرض الحبشة ، وفي حقيقة الأمر أن تلك السفن التي حملت أولئك المهاجرين لم تكن مخصصة فقط لحمل المسافرين ، وإنما كانت أيضاً تحمل البضائع المتنوعة والتي يتم تصديرها أو استيرادها بين الحجاز والحبشة ، ثم إن أسعار النقل على ما يبدو لم تكن عالية والدليل على ذلك

أن المهاجرين أنفسهم استأجروا سفينتين من تلك السفن لتوصلهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار فقط (٣٥) .

أدى ذهاب أولئك المهاجرين الأوائل إلى بلاد الأحباش إلى تنشيط حلقة الاتصال الاجتماعي والتجاري بين الأحباش وأهل الحجاز وخصوصاً المكيين ، وذلك أن قريشاً قد أصابها القلق لخروج أولئك المسلمين ، ثم إن المهاجرين كانوا في بلاد الحبشة يراقبون التطورات السياسية والدينية في الحجاز ، وكل هذه الظروف لا بد أن تكون أثرت في الصلات بين الطرفين. وبالتالي جعلت حركة التجارة أكثر نشاطاً مما كانت عليه قبل الإسلام وبانتقال الرسول ﷺ إلى المدينة بعد الهجرة أدى بالتالي إلى توسع الصلات التجارية أيضاً وذلك أن المسلمين في أرض الحبشة كانوا دائماً على اتصال بأحوال المسلمين في مكة قبل الهجرة ، لكن بعد انتقالهم إلى المدينة صاروا يتصلون بالرسول ﷺ والمسلمين في المدينة بواسطة التجار وذلك عن طريق الخط البحري الذي يربط بلاد الأحباش بميناء الجار أو ما سمته بعض المصادر ميناء المدينة (٣٦)، والذي ذُكر أنه كان يستقبل الأنواع العديدة من السفن التي كانت تأتي إليه من الحبشة وغيرها وهي محملة بأنواع السلع المختلفة (٣٧).

ومما يؤكد استخدم ميناء الجار من قبل المهاجرين الذين كانوا في الحبشة أن منهم من كان على صلة دائمة بالرسول ﷺ في المدينة ، وكذلك بذويهم وأقاربهم الذين أسلموا وهاجروا إلى المدينة وأنهم هم أنفسهم قد

أُرسلوا من قبل نجاشي الحبشة وعلى سفن حبشية وذلك في السنة السابعة للهجرة حتى نزلوا على ميناء الجار ثم ذهبوا حتى قابلوا الرسول ﷺ وهو في خيبر بعد فتحها ، ففرح بهم الرسول ﷺ فرحاً شديداً واستقبلهم ، مع قائدهم جعفر بن أبي طالب ، استقبالاً طيباً (٣٨) .

ومع وجود صعوبة في معرفة السلع المتبادلة بين الحبشة والحجاز وذلك لقلة المصادر وندرة المعلومات التي تناولتها ، إلا أننا مع هذا كله حصلنا على بعض المعلومات المتناثرة في مصادر ومراجع متعددة أشارت إلى بعض السلع المتنوعة والمتبادلة بين الأحباش والحجازيين .

فقد أرسلت الحبشة الرقيق الذين كانوا يُباعون في أسواق الحجاز وغيرها من أقاليم شبه الجزيرة العربية ، وذلك لاستخدامهم في أعمال حرفية ومهنية متعددة (٣٩) ، ومن صادرات الحبشة كذلك السيوف والخناجر التي كانت تُرسل من الحبشة إلى أسواق مكة ، وأكبر دليل على ذلك الإشارة إلى أن النجاشي أهدى جعفراً بن أبي طالب أثناء رجوعه مع المهاجرين إلى المدينة بعض الخناجر والسيوف والتي منها سيف يقال له الغمام حيث بقي ذلك السيف مع جعفر حتى قُتل في غزوة مؤته(٤٠)، وتذكر بعض الروايات التاريخية أن الألبسة المختلفة كانت تُصدر من الحبشة إلى الحجاز ، ومما ثبت عن أصحمة النجاشي نفسه أنه أرسل العديد من الهدايا إلى رسول الله ﷺ، وكان من بين تلك الألبسة الأقمصة والسراويل وبعض أدوات الزينة ، وألبسة القدم كالخف وما شابهه(٤١)، إلى جانب أن المهاجرين

أنفسهم والتجار سواء من الحجاز او بلاد الأحباش كانوا يُصدّرون العديد من السلع التي توجد في بلاد الأحباش أو حتى الأجزاء الأفريقية الأخرى ، أمثال العاج والمعادن والأخشاب وغيرها (٤٢) .

لم تذكر المصادر شيئاً كثيراً عن واردات الحبشة من أرض الحجاز وربما كان ما تستورده الحبشة من الحجاز قليلاً لأن منطقة الحجاز كانت فقيرة في مصادرها وثرواتها التجارية ، إلا أنها تملك الأسواق النشيطة والتي يرتادها التجار من جميع أنحاء العالم وذلك لكونها بلاداً مقدسة ، وهي ميزة لم يتمتع بها غيرها ، لذلك لم يكن الأحباش يستغنون عن المتاجرة في أسواق الحجاز ، بل والاستيراد من السلع التي تروج في تلك الأسواق وهي كثيرة جداً(٤٣)، غير أن ما ذكرته المصادر من سلع تم تصديرها إلى الحبشة وبصورة واضحة هي الألبسة ، أمثال الحلل والجباب وغيرها(٤٤)، والتي كانت أكثر ما توجد في اليمن ، لكنها تصدر إلى الحجاز ومنها ترسل إلى أقاليم عديدة في العالم أمثال الحبشة ، وكذلك العسل واللبان الذي كان يرسل من مكة والمدينة عبر الطريق البحري إلى الحبشة(٤٥)، أما الصناعات الجلدية والأديم فكانت من أهم الأشياء التي تصدر إلى الحبشة، بل كان ملك الحبشة والأحباش يفضلون استيراد المصنوعات الجلدية الحجازية المشهورة بالجودة ودقة العمل(٤٦). وكذلك الخيول العربية التي ثبت أنها كانت تُصدر إلى بلاد الأحباش(٤٧).

جـ - العلاقات السياسية والتجارية مع بلاد النوبة :

إن الاتصال بين بلاد النوبة (السودان حالياً) (٤٨) وبين منطقة الحجاز خلال العقود المبكرة في عهد الرسول ﷺ والخلافة الراشدة ، كان في حقيقة الأمر قد تلا الاتصال ما بين أهالي بلاد الأحباش والحجازيين ، لكن الشيء الذي لا يستبعد هو أن أهالي النوبة ربما قد سمعوا بظهور الرسول ﷺ في مكة ، وذلك عندما ذهب المهاجرون الأوائل إلى بلاد الحبشة، ثم عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وكوّن الدولة الإسلامية ، ثم اتصل بالملوك والأباطرة في ذلك الزمان يدعوهم للإسلام وكان من ضمنهم المقوقس حاكم مصر المجاورة لبلاد النوبة ، والذي استقبل رسول الرسول ﷺ استقبالاً حسناً (٤٩) .

والاتصال بين الحجاز وبلاد النوبة لم يكن بعد قد ظهر بشكل ملموس إلا بعد أن عم نور الإسلام في الجزيرة العربية ووهادها ، ثم تدفقت الجيوش العربية المسلمة والأمل يحدوها في نشر الإسلام ، وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ وفي فترة زمنية لا تتجاوز العقد من الزمان ، استطاعت تلك الجيوش أن تدوخ أكبر دولتين في العالم ، الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومية في كل من بلاد فارس والشام ، بل وواصلت مسيرتها حتى فتحت بلاد مصر وصارت على أبواب بلاد النوبة المجاورة للأراضي المصرية من الجنوب(٥٠).

وعند وصول الجيوش العربية إلى أرض مصر ، حدث العديد من الاعتداءات من قبل النوبيين على الحدود الجنوبية لمصر ، فلم يكن لدى المسلمين في مصر خيار إلا استشارة خليفة المسلمين في المدينة عمر بن الخطاب ، الذي أمر واليه عمرو بن العاص بأن يتصدى لأولئك المعتدين من أهل النوبة ، فقام عمر وأرسل جيشاً في سنة(٦٤١/٢١م) بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، تقدم ذلك الجيش حتى دخل بلاد النوبة ، لكنه لم يحقق النصر ، ولم تؤد حملة عقبة إلى نتيجة ، وذلك لما لقي من مقاومة عنيفة من قبل النوبيين ، فتراجع إلى الوراء وبقيت المناوشات مستمرة ما بين المسلمين في مصر والنوبيين في بلادهم ، بل واستمرت اعتداءات أهل النوبة تقرع أبواب مصر الجنوبية حتى كانت خلافة عثمان بن عفان ، فعُزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وولي بدلاً منه عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي صمم على وضع حد للغزوات والاعتداءات التي كان يمارسها أهل النوبة ضد المسلمين في مصر (٥١) .

استعد عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، ثم خرج على رأس جيش كبير بلغ عدده نحو خمسة آلاف مقاتل في سنة(٦٥٢/٣١م) حتى وصل دنقلة، عاصمة مملكة المغرة المسيحية ، فشدد الحصار عليها وضربها بالمنجنيق ، وهدم كنيستها ، وبث الرعب في قلوب أهل النوبة، وحينئذ طلب ملك النوبة ، وهو قاليدرون (Qualidrun)، الهدنة، فوافق الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح ولا سيما أن جيشه قد أصابه التعب والإرهاق (٥٢).

وكانت تلك الهدنة التي وافق عليها ابن أبي السرح على عقدها مع ملك النوبة، قد عرفت في الكتب التاريخية والفقهية بعهد النوبة، أو معاهدة البقط.

وكانت عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم اعتداء ، التزم الطرفان بمقتضاها على أن لا يعتدي أحدهما على الآخر ، وكذلك أن يدفع ملك النوبة لبيت مال المسلمين في المدينة ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق الأصحاء في كل عام ، وكذلك يعطي التجار من الطرفين الحرية باجتياز ديار بعضهم دون أن يتعرض لهم أحد بإيذاء (٥٣) .

وفي أثناء المفاوضات بعقد تلك المعاهدات أشارت الروايات إلى أن ملك النوبة اشتكى إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح من قلة الطعام في بلده، فالتزم له بعد مشاورة الخليفة في المدينة بأن يدفع له كمساعدة وضمن معاهدة البقط ألف أردب من القمح ، ولرسله ثلاثمائة أردب من القمح ومثلها من الشعير وكذلك مائة ثوب قماش ، ومن القباطي أربعة أثواب للملك ولرسله(٥٤).

وإذا كان عرب الحجاز قد وصلوا إلى مصر ثم بلاد النوبة أثناء الفتوحات الإسلامية وعبر الطريق البري الذي يربط الحجاز ببلاد الشام ثم مصر ، فإنهم كانوا قد اتصلوا ببلاد النوبة عبر البحر الأحمر(٥٥)، وفي فترة سبقت وصول الجيوش الإسلامية إلى مصر في عهد عمر بن الخطاب، حيث تذكر بعض الروايات إلى أن الخليفة أبا بكر الصديق قد نفى جماعة

من أعـراب الحجـاز إلـى مناطق على سواحل النوبة للبحر الأحمر (٥٦) ، بـل وفي روايـة أخـرى يـذكر أن الصحابي أبـا محجـن الثقفـي قـد عـبر البحـر الأحمر حتى وصل إلى سواحل بلاد النوبة ، وذلـك في سنة (١٦هـ/٦٣٧م)(٥٧) ويشير الأستاذ الدكتور مصطفى مسعد (٥٨) إلى عبور بعض أفـراد القبائـل العربية أمثال هوازن وربيعة للبحر الأحمر واستقرارهم ببلاد النوبـة وبعض البلاد المجاورة لها ، وذلك خلال العقود الإسلامية الأولى من القرن الهجـري الأول ، كمـا يـورد أيضاً الـدكتور السـر أحمـد العراقـي (٥٩) إشـارات يـوضح فيها تدفق الهجرات العربية إلى بلاد النوبة وغيرها وذلك خلال عهد الخلفاء الراشـدين مرجحـاً تكـاثر تلـك الهجـرات في عهـد الخليفـة عثمـان بـن عفـان خصوصاً عندما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين في الحجاز ، والـتي أدت بالتالي إلى قتل الخليفة ، مما سبب هجرة العديد من أفراد العرب القاطنين بالحجاز وغيرها حيث اتجهوا إلى الأجزاء الأفريقية أمثال النوبـة والحبشـة ومصر فاستقروا بها وأثروا في الناحية الاجتماعية والحضارية بوجه عام .

ونتج عن الاتصال ما بين منطقة الحجاز عبر البحـر الأحمـر أو عبر الشام ومصر بعد فتحهما أن نشطت الحركة التجارية بين الطرفين ، وصار على أثر معاهدة البقط يذهب التجار ما بين بلاد النوبـة ومنـاطق المسلمين بما فيها بلاد الحجاز ، بل والسلع التجارية صارت تنقل من النوبة إلى أسواق الحجاز والعكس صحيح.

بـل اتضـح مـن معاهـدة الـبقط أن أهـل النوبـة يرسلون لبيت مـال المسلمين في المدينة الرقيق الـذين اتفـق عليهم في تلك المعاهـدة ، في حـين أن خليفة المسلمين وواليه على مصر يقدمان المساعدات التي تتكون من الحبوب والمؤن والملابـس فيرسـلونها إلى أهـل النوبـة، إلى جانـب أن التجـار كـانوا يُصدّرون من أسواق الحجاز بعض المصنوعات الجلدية ، والأطعمة والأقمشة التي كانت توجد فيها بوفرة والتي كان البعض فيها يجلب مـن منـاطق تجارية أخرى كبلاد اليمن وغيرها (٦٠) ، ومن بلاد النوبة إلى جانب الرقيق ، كما يصدر منها المعادن والعاج والعنبر والصمغ (٦١) .

مما تقدم نلاحظ أن العلاقات السياسية بين الحجاز والحبشة كانت أسبق من العلاقات التي قامت بين أهـل الحجـاز وأهـل النوبـة ، بالإضـافة إلى ان المصادر توضح ان العلاقـات السياسـية مـع أهـل الحبشـة كانـت نشطة في عهـد الرسـول ﷺ إذا مـا قُورنـت بالعلاقـات بـين تلـك الـبلاد والحجـاز في عهـد الخلفاء الراشدين ، ويتضح في هذا البحث أيضاً أن الصلات مع أهل الحبشة كانـت صـلات مراسـلات وتبـادل الوفـود بـين كـل مـن المسـلمين في الحجـاز والملك النجاشي في الحبشة .

أما العلاقات السياسية بين أهل الحجاز وأهل النوبة فلم تظهر بشكل ملموس إلا في عهد الخلفاء الراشدين وذلك بعد امتداد الفتح الإسلامي إلى كل من بلاد الشـام ومصر ، أيضاً أن الصلات بين أهـل النوبة والحجـازيين كانت في بادئ الأمر صلات طابعها الصدام المسلح ثم تلي ذلك أن رحب أهل

النوبة بالإسلام وانفتحت بلادهم للمد الإسلامي الذي أخذ ينتشر في أنحاء، أفريقيا فيطبعها بالطابع الثقافي الإسلامي.

وبالعودة إلى العلاقات التجارية بين الحجاز والنوبة والحبشة رأينا أنها كانت تتأثر بالعلاقات السياسية التي كانت تجري في ذلك الزمن، إلا أنها بدون شك كانت أيضاً مستمرة من الوقت السابق للإسلام، ولكن بعد أن جاء الإسلام ووصل إلى تلك الديار كان عاملاً مساعداً في تنشيط حركة النشاط التجاري والثقافي بين بلاد الحجاز وتلك الأجزاء الأفريقية.

الهوامش والتعليقات

١- ومما يؤكد على عالمية رسالة الإسلام ما نجده عبر التاريخ إلى يومنا هذا أن الإسلام هو دين الفطرة ، بل هو دين العدل والتسامح حيث نجد أقواماً بل شعوباً عديدة دخلت الإسلام بدون حرب أو صدامات عسكرية، وأكبر دليل على ذلك ما حصل خلال العصور الإسلامية الوسطى في كل من بلاد شرق ووسط أفريقيا وبلاد الهند والسند ، أيضاً كما هو حاصل في يومنا هذا في كل من أوروبا وأمريكا وعدد من دول العالم الأخرى إذ نجد عدد المسلمين في هذا البلاد يتجاوز عشرات الملايين .

٢- تدل المعلومات التي أوردها المؤرخون من اليونان والرومان على أن البلاد التي نعتوها بكلمة ، أثيوبيا، تعني المساحة الشاسعة المتدة من جنوبي مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً ، وهي المنطقة التي تسكنها العناصر من ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون ، وهذا ما يعنيه اللفظ الإغريقي (Aethiops) ويتكون من مقطعين (Aethi) بمعنى محترق (Ops) بمعنى وجه . أنظر الحفني الغنائي. الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، مخطوط. ص ١٤. وأولئك الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغة اليونانية استعملوا كلمة (كوش) وأرادوا بها إثيوبيا أي أنهم حددوا إثيوبيا أو شطرها الغربي بالمنطقة المعروفة باسم كوش والمتدة جنوب مصر . وكلمة إثيوبيا عنى بها المترجمون الحبشة وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ ، أي في القرن الرابع الميلادي ، يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية ، والمعروف أن أهل أكسوم يفضلون أن تدعى بلادهم إثيوبيا بدلاً من الحبشة ، وأن يدعوا أنفسهم بالإثيوبيين لا الحبشيين ، بل إنهم ليشعرون بالإهانة إذا ما نعتوا بالأحباش ، ولعل ذلك يرجع إلى أن إثيوبيا تعني الكوش والكوشيين قد أصبحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرقي أفريقية ، باستثناء مصر ، وذلك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية ، وهذا مجد قديم ، كما أن إثيوبيا

وردت في التوراة فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن ، أما الأحباش فتعني الاختلاط . انظر الجاحظ، فخر السودان على البيضان ، ص ٨١ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب (القاهرة ، ١٩٦١م) جـ١ ، ص ١٥٥، ص ١٦٧ – ١٦٩.

٣- الحبشة ومنها الأحباش وهما اللفظان اللذان صار في اللغة الأجنبية (Abyssinia , Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي (حبشت) السامية التي عبرت البحر الأحمر مهاجرة من جنوب بلاد العرب واستقرت في أفريقية ، وتشير بعض المراجع العربية إلى أن الحبش من نسل حبشي من كوش بن كنعان بن حام بن نوح ، انظر ابن عبد الباقي ، الطراز المنقوش بمحاسن الحبوش ، مخطوط ورقة ٤ ، جلال الدين السيوطي ، أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال، ميكروفيلم رقم ٢٧ تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ، عبد الرحمن بن الجوزي ، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، مخطوط، مصور عن نسخة بالاسكوريال، ميكروفيلم، رقم (٢٩) تاريخ، دار الكتب بالقاهرة، الشاطر بوصيلي عبد الجليل.معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة، ١٩٥٧م) ص٧. وتلك الهجرة قد تمت ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد ، والغالب أن الموطن الأصلي لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقدم والعمران وفي ظل ملوك سبأ فإن هذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة ومدنية من المواطنين المقيمين في أفريقية في ذلك الحين وهم الذين استقر الأحباش بينهم ، ولم تلبث قبيلة حبشت حتى سادت في موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التي تميزت بها ، غير أن المواطنين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب ، ومع ذلك لم يكن القرن الرابع الميلادي يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التي استوطنوها . انظر ، عبد المعطي محمد عبد المعطي سمسم ، العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة ، منذ القرن السادس ق.م حتى نهاية العهد الحبشي باليمن ، رسالة ماجستير .

بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٠هـ ، ص٢٢ وما بعدها ، مصطفى محمد مسعد " بعض مظاهر العلاقات بين الجزيرة العربية وأوطان البجة بشرق السودان قبل الإسلام " دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني (الرياض ، مطابع جامعة الملك سعود ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص٣٩١ـ٤٠٠ ، عبد المجيد العبادي " أحابيش قريش هل كانوا عرباً أو حبشاً " مجلة كلية الآداب "الجامعة المصرية ، مج١ ، جـ١ (١٩٣٣م) ص٩٥ـ١٠١.

٤- انظر محمد بن حبيب . كتاب المنمق في أخبار قريش ، خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ، ص٣٢ ، حول النزاعات التي حصلت بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية ، انظر تفصيلاً أكثر عند ، أحمد إبراهيم الشريف . مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط٢ (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥م) ص١٢٨ وما بعدها .

٥- ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (مكان النشر والتاريخ بدون) جـ١ ، ص٣٢١ـ٣٢٢ ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب (مكان النشر والتاريخ بدون) جـ٧ ، ص١٨٨ .

٦- شهاب الدين أحمد النويري . نهاية الأرب في فنون الأدب. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (القاهرة، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م) جـ١٦ ، ص٢٥١ـ٢٥٢ ، أنظر أيضاً تفصيلات أكثر ، عبد الشافي غنيم عبد القادر " البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية " ، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة أبحاث الأسبوع العلمي الثالث ، ١٠ – ١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٧٥ـ٧٨.

٧- سورة آل عمران آية (٧٥) أنظر أيضاً تفسير الآية عند ، الحافظ عماد الدين بن كثير . تفسير القرآن الكريم ط٢(بيروت دار الأندلس ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ، جـ٢ ، ص٥٩.

٨- حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط٨ (القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٤م) جـ١ ص٨٧ـ٨٨.

٩- انظر ابن هشام ، السيرة ، جـ١ ، ص٣٢١ وما بعدها .

١٠- المصدر نفسه .

١١- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٣٣٤ .

١٢- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٣٣٠ـ٣٣١ ، انظر أيضاً عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي . الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية (القاهرة ، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة ، تاريخ النشر بدون) جـ٢ ، ص٧٥ـ٧٦ .

١٣- ابن هشام ، السيرة ، جـ١ ، ص٣٣٥ وما بعدها .

١٤- المصدر نفسه ، السهيلي ، الروض الأنف ، جـ٢ ، ص٩١ وما بعدها .

١٥- ابن هشام ، السيرة ،ج١ ص ٣٣٦ ، السهيلي ، الروض الأنف ، جـ٢ ، ص٩١ـ٩٢ .

١٦- انظر عبد الشافي غنيم " البحر الأحمر طريق للدعوة " ص٧٨ .

١٧- المرجع نفسه .

١٨- انظر محمد حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط٥ (بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص٩٩ .

١٩- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (بيروت ، دار سويدان ، تاريخ النشر بدون) جـ٢ ص٦٥٢ ، صفي الرحمن المباركفوري . الرحيق المختوم ، ط٢ (بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص٣٣٦ وما بعدها .

٢٠- محمد حميد الله ، الوثائق ، ص١٠٠ـ١٠٤ .

٢١- كانت رضي الله عنها مع من هاجر إلى الحبشة ، وبصحبة زوجها عبد الله بن جحش الذي ارتد عن الإسلام إلى النصرانية ، فبقيت أم حبيبة على دين الإسلام حتى تزوجها الرسول ﷺ وكانت سنة وفاتها في ٤٤هـ/ انظر ترجمة لها في كتاب ابن سعد ، الطبقات الكبرى (بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ٨ ، ص٩٦ـ١٠٠ .

٢٢- محمد حميد الله ، الوثائق ، ص١٠٦ ، ويورد ابن سيد الناس أن النجاشي أصدق عن رسول الله ﷺ إلى أم حبيبة تسعمائة دينار، انظر: عيون الأثر في فنون المغازي وشمائل السير ، تحقيق دار أحياء التراث العربي، ط٣ (بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) جـ١ ، ص١٤٩ .

٢٣- محمد حميد الله ، ص١٠٦ـ١٠٧ .

٢٤- انظر كيف تأثر الرسول ﷺ عندما سمع بموت نجاشي الحبشة ، ابن هشام السيرة ، جـ١ ، ص٣٤١ ، ابن حجر ، فتح الباري ، جـ٧ ، ص١٨٨ـ١٩١ .

٢٥- القرصنة ، قراصنة (Piracy , Pirates) سلاح شهرته الدول البحرية ضد سفن أعدائها ، وقد استخدمته الدول الإسلامية وغير الإسلامية ، فكانت هذه الدول تمنح رجال البحر تراخيص لمهاجمة سفن الأعداء وبذلك يضيفون قوة إلى أساطيل دولهم . غير أنه في كثير من الحالات كانت الدول لا تستطيع السيطرة على هؤلاء الأفراد الذين يعملون لحسابهم الخاص ، ويكّونون عصابات بحرية أشبه بعصابات البر . وكانت الغنيمة تدفعهم إلى عدم الالتزام بارتباطات حكوماتهم فيهاجمون سفن الأعداء والأصدقاء على حد سواء . أنظر أحمد عزة عبد الكريم دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت ، ١٩٧٠م) ص٢٨٩ـ٢٩٠ . Robert Johen. History Of The French Colonial Policy (1871-1925) (London, 1929) .

٢٦- محمد بن عمر الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، ط٣ (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص٩٨٣-٩٨٤ ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، جـ٨ ، ص٥٨-٥٩ المباركفوري ، الرحيق ، ص٤١٠ .

٢٧- أن النجاشي أعلن الإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققاً ، إذ أجمعت عليه المراجع العربية تقريباً ، أما أنه اعتنق الإسلام وترك النصرانية ، فهذا مالا يمكن التحقق منه إثباتاً أو نفياً ، ويرى بعض المحدثين أن النجاشي أعلن الإسلام هو وأساقفته لهدف سياسي بحت لا بدافع العقيدة الدينية ، فقد رأى انتصارات الإسلام داخل الجزيرة العربية ، وخشي من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده ، وهو في وضع قد لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة ، كما أنه لا يجب أن يدخل في حرب تتجلى عن قتل كثير من رعاياه ، ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وحمايتها من التعرض للفتح الإسلامي، ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة من بين سائر بلاد الشرق الوسط استطاعت أن تحتفظ بنصرانيتها بعد حكم أصحمة .

٢٨- انظر : محمد بن إسحاق الفاكهي . كتاب المنتقي في أخبار أم القرى ، نشرة وستنفلد جـ٢ ، ص٤٤ ، يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ١ ص٣

J. Spencer Trimngham , Islam In Ethiopia, 3rd. ed. (London, 1976) P. 46.

ومن يتبع العلاقات بين الحبشة والحجاز ، يجد أن الغارات من قبل قراصنة الأحباش تكررت خلال الدولة الأموية والدولة العباسية ، ولكن خلفاء الإسلام في تلك العصور كانوا دائماً على أهبة الاستعداد لرد ومحاربة تلك الغارات ، انظر أمثلة من غارات الأحباش في تلك العصور ، محمد بن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف (القاهرة ، ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م) ص٨١ ، عبد

القدوس الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة ، ط٣ (القاهرة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص٥٧ ، عبد الشافي غنيم " البحر الأحمر " ص٨٠٢ وما بعدها .

٢٩- انظر: مقالة السر أحمد العراقي " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في إثيوبيا والصومال " ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية " الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو / تموز ١٩٨٣م (بغداد ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م) ص١٦٤-١٦٥ عبد الشافي غنيم " البحر الأحمر " ص٨٠-٨٥ .

٣٠- ابن حبيب المنمق ، ص٣٢ وكذلك انظر في المراجع التالية نشاط تجارة الأحباش في أسواق الحجاز . جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢(بغداد ١٩٧٧) جـ٧ ، ص٣٠١-٣٠٢ ، عبد الحميد العبادي أحابيش قريش هل كانوا عرباً أو حبشاً مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية (١٩٣٣م)، مج١ ، جـ١ ، ص١٠١-١٠٢ .

٣١- وهم: هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، انظر تفصيلاً أكثر عنهم ، ابن حبيب المنمق ، ص٢٠-٢٢، ٤١ وما بعدها .

٣٢- انظر ابن حبيب ، المنمق ، ص٣٢ ، ٤٠٠-٤٠٢ ، جواد علي ، المفصل ، ج٧ ، ص٣٢.
M. J. Kister " Some Reports Concerning Mecca From Jahiliyya To Islam " Studies In Jahiliyya & Eariy Islam (London 1980) P.61 .

٣٣- ميناء الشعيبة وجدة: كانا يتبعان مكة وأسواقها لقربهما منها ، أما ميناء الجار فهو أيضاً مثل ميناء الشعيبة وجدة يقع علي ساحل البحر الأحمر الشرقي ، ويبعد عن المدينة بحوالي مائة وستين كيلاً ، وكان الميناء الرئيسي للمدينة المنورة قبل الإسلام وخلال الثلاثة قرون الأولى منه ، وقد تغير اسمه في العصر الحديث إلي مكان يسمي البريكة ، انظر حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة (الرياض ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص١٩٠-١٩١ وكذلك رسالة الدكتوراة لكاتب هذا البحث والتي بعنوان

The Social, Industrial & Commercial History Of The Hejaz Under The Early Abbasids 132-232 \ 749-847 p h. D. Thesis, Univ . Of Manchester, 1989, PP.194-200 .

٣٤- أنظر تفصيلاً أكثر. Ibid , PP . 186–187 , 194 ff . للمؤلف دراسة " بعنوان " الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة، مجلة العرب ، ج٧ - ٨، سنة (٢٧) (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص ٤٤٧-٤٦٢.

٣٥- أنظر تفصيلاً أكثر حول الصلات المبكرة بين المسلمين وأرض الأحباش . الطبري ، تاريخ جـ٢ ، ص٣٢٩ ، محمد بن فهد ، إتحاف الورى في أخبار أم القرى ، تحقيق فهيم محمود شلتوت (القاهرة ، ١٣٧٥هـ) جـ١ ، ص٢١٤-٢١٥ ، جواد علي ، المفصل ، جـ٧ ص٢٥٩ .

٣٦- انظر تفصيلاً أكثر عن نشاط ميناء الجار . حمد الجاسر " حول الجار والشعيبة " مجلة العرب ، الرياض ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، جـ١٢ ، ص١١٧٠-١١٧٢ وكذلك انظر رسالة الدكتوراة لمؤلف هذا البحث The Social. pp. 194 FF.

٣٧- أحمد بن واضح اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، تحقيق ، هوتسمان (لندن ، ١٨٨٣) جـ٢ ص١٧٧ ، أحمد ابن يحيى البلاذري فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة النشر بدون) ص٢٥٣ ، ٧٠٣ ، عرام السلمي ، كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م) ص٣٩٨-٣٩٩ .

٣٨- انظر أبا الفداء ابن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبي ملحم وآخرين (بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) جـ٣ ، ص٧٠-٧٢ .

٣٩- انظر ابن حبيب ، المنمق ، ص٤٠٠ـ٤٠١ ، عبد الحميد العبادي " أحابيش قريش " ص١٠١ وما بعدها ، جواد علي ، المفصل ، جـ٧ ، ص٥٠٥ وما بعدها .

٤٠- ابن حبيب ، المنمق ، ص ٤١٧ .

٤١- انظر تفصيلات أكثر في البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ، تاريخ النشر بدون) جـ١ ، ص١٨٨ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين (بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ١ ، ص٢٧٤ ، محمد حميد الله ، الوثائق ، ص١٠٦ .

٤٢- الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٣٤٣، انظر تفصيلاً أكثر في كتاب

M. Kister "Some Reports_ " PP. 61 FF,

٤٣- انظر معلومات أكثر عن الصادرات والسلع التي تروج في أسواق الحجاز ، أبي عثمان الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص٣٤ وما بعدها ، شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوى (ليدن ، ١٨٧٧م) ص٧٩ـ٩٧ آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو ريده ، ط٣ (القاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م) جـ٢ ص٣٢٥ـ٣٦١ ، أيضاً انظر رسالة الدكتوراة لمؤلف هذه الدراسة .

The Social, pp. 202-216 .

٤٤- الحلة: مفرد حلل وهي تشبه الثوب وقد عرفّها بعض اللغويين بأن اللباس الكامل يطلق عليه حلة . أما الجبة نوع من مقطعات الثياب تلبس مثلها مثل الثياب انظر معلومات أكثر . أبي منصور عبد الملك الثعالبي ، فقه اللغة (بيروت ، ١٩٧٣م)ص١٥٦ ، أبي الفضل محمد بن منظور ، لسان العرب ، نسخة مصورة من طبعة بولاق ، (القاهرة ، ١٣٠٧هـ) جـ١ ، ص٢٤٢ ، صالح أحمد العلي " الألبسة العربية في القرن الأول الهجري " مجلة المجمع العلمي العراقي ، جـ١٣ ،(١٣٨٥هـ) ، ص٥٨-٩٥ .

٤٥- الجاحظ ، التبصر ، ص٣٤ ، أبي عبد الله محمد بن قتيبة ، كتاب عيون الأخبار (القاهرة ١٩٣٠م) جـ٣ ، ص٢٠٥ .

Kister, " Some Report " pp. 60 ff , Abdullah Alwi Haji Hassan " The Arabian Commercial Background In Pre-Islamic Time " Islamic Culture, Vol . LXI- No.2, (1987), pp . 78-9 .

٤٦- الجاحظ ، التبصر ، ص٣٤ ، ابن هشام ، السيرة ، جـ١ ، ص٣٣٤-٣٣٥ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٣٣٥ ، ابن الأثر ، الكامل في التاريخ ، تحقيق نخبة من العلماء (بيروت ، تاريخ النشر بدون) جـ٢ ، ص٥٤ ، جواد علي، المفصل ، ج٧ ص٣٠٧ ، ٣١٥ .

٤٧- الجاحظ ، التبصر ، ص٣٤ ، A. Alwi " The Arabian Commercial " pp. 78 _ 9 .

٤٨- إن بلاد النوبة خلال فترة ظهور الإسلام ، كانت تنقسم إلى مملكتين ، مملكة المغرة ، وعاصمتها دنقلة. ومملكة علوة في الجنوب وعاصمتها سوبا ، انظر تفصيلاً أكثر عن موقع وجغرافية بلاد النوبة، مصطفى محمد مسعد ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م)، ص١-٢٢.

٤٩- انظر المكاتبة بين الرسول ﷺ وحاكم مصر المقوقس في كتاب محمد حميد الله ، الوثائق ، ص١٣٥-١٣٦ ، وقد كان رد المقوقس على كتاب الرسول ﷺ كالتالي "

" لمحمد بن عبد الله من المقوقس ، سلام ، أما بعد :

فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقي . . . وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام " المرجع نفسه،١٣٦.

٥٠- انظر تفصيلات أطول عن الفتوح الإسلامية في بلاد الشام ومصر ، الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص٥٩٨ وما بعدها ، عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (بيروت ، دار العلم للجميع ، سنة النشر بدون) جـ٢ ، ص٨٤-٩٠ ، ١١٤-١١٥ ، عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، (بيروت ، دار الفكر ، سنة النشر بدون) ص٢٠٥-٢١٤ .

٥١- البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٠-٢٨١ ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر وأخبارها (ليدن ، بريل ، ١٩٢٠م) ص١٧٣-١٧٤ ، ١٨٨ .

٥٢- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص١٨٣ ، ١٨٨ ، البلاذري ، فتوح ص٢٨٠-٢٨١ ، مصطفى محمد مسعد ، الإسلام والنوبة ، ص١١١-١١٣ .

٥٣- انظر نص تلك الاتفاقية كاملاً في كتاب محمد حميد الله ، الوثائق ، ص٥٣٠-٥٣١ ، ويذكر الدكتور يوسف فضل حسن ما دار حول معاهدة " البقط " من حديث ، فيوضح أن اشتهارها بهذا الاسم في المصادر العربية ، بل وسبب تسميتها بالبقط ، يعود إلى اهتمام المسلمين بالجوانب الاقتصادية ، وبما كان يرسل من الرقيق من بلاد النوبة إلى بلاد المسلمين ، ثم يورد تعليلاً آخر قائلاً وإنما كلمة البقط في الأساس لفظ لاتيني يسمى **Pactum** اشتهر في الإمبراطورية البيزنطية التي يسيطر المسلمون على أجزاء كبيرة منها ويعني مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها- انظر يوسف فضل ، دراسات ، ص٢٧ ، وللمؤلف نفسه أيضا " انتشار الإسلام في سودان وادي النيل " ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية ، الخرطوم ، ٢٨/٣٠ يوليو / تموز ، ١٩٨٣م (بغداد ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص٢٧ وما بعدها .

٥٤- ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص١٨٨-١٨٩ ، مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة ، ص١١٣ ، وقد أورد البلاذري حديثاً مجملاً لما كان يعطى المسلمون لأهل النوبة فذكر أنهم كانوا يرسلون لهم الأطعمة امثال

القمح والعدس وما شابهه على أن يرسل أهل النوبة الرقيق المتفق عليه في تلك المعاهدة انظر ، فتوح البلدان ، ص٢٨١ .

٥٥- السر العراقي " الإسلام ومراكز الثقافة " ص ١٥٩ وما بعدها ، يوسف فضل " انتشار " ص٢٥ وما بعدها ، عبد الشافي غنيم ، البحر الأحمر " ص٧١ وما بعدها .

٥٦- انظر عبد الله بن عبد العزيز البكري ، المالك والمسالك (مخطوط بالمتحف البريطاني لندن) ص١٠ ب يوسف فضل ، دراسات ، ص٢٩ .

٥٧- الطبري ، تاريخ / جـ٤ ، ٢٥ ، ٣٨ يوسف فضل ، دراسات ، ص٢٩ ، ويذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب الذي نفاه إلى سواحل بلاد النوبة على البحر الأحمر .

٥٨- الإسلام والنوبة ، ص١١٨ وما بعدها .

٥٩- " أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى " مجلة كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية ، العدد الثاني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ، ص١٥٩ وما بعدها .

٦٠- جواد علي - المفصل ، ج٧ ص٣١٥ ، يوسف فضل ، دراسات ، ص٢٧ .

79 _ Abdullah Alwi " Arabian " pp. 78

٦١- انظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة بيروت ١٩٨٠/٤٠٠م ، ص١٩١ ، أبو بكر عبدالله البكري ، معجم ما استعجم من الأسماء والبلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا (بيروت ، ١٩٤٥/٣٦٤م) جـ١ ، ص٣٥٥-٣٥٦ .

A. Alwi " The Arabian " pp. 79. ff .

الدراسة الثانية

أعمال خلفاء بني العباس الأوائل الخيرية لأهل الحجاز

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ – ٨٤٦ م)[*]

[*] بحث منشور في مجلة المنهل ، العدد (٤٩٧) مج (٥٤) المحرم (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ص ٨٢-٨٨ .



أعمال خلفاء بني العباس الأوائل الخيرية لأهل الحجاز
(١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م)

كانت الحجاز هي المقر السياسي والإداري والحضاري للدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ حتى عصر الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعد ذلك الزمن تحولت إلى ولاية من ولايات الدولة الإسلامية في عهد خلفاء بني أمية ، وبني العباس ، ومن جاء بعدهم من الأمراء والسلاطين . وهذا التحول السياسي لبلاد الحجاز ، وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، جعل أهميتها أقل بعد عصر الخلفاء الراشدين لأن مركز الثقل السياسي أنتقل منها إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، لكن أهميتها الدينية ، وكون الأماكن المقدسة بها ، جعل اهتمام الخلفاء والأمراء، في العصور الإسلامية الوسطى ، مكثفة تجاهها ، فكانوا يحرصون على السيطرة عليها ، بل يذهبون من الشام ، في عهد الدولة الأموية ، ومن العراق، في عهد الدولة العباسية ، إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ليؤدوا الحج والعمرة ويلتقوا بأهل الحرمين ، فكانوا يسمعون لشكاويهم وينفقون عليهم الأعطيات والهدايا ، بل ويقيمون بعض المشاريع العمرانية في ديارهم وبالتالي يستطيعون السيطرة على أرض الحجاز التي تحوي الحرمين الشريفين .

وهذا البحث سوف يكون مركزاً على ما قام به خلفاء بني العباس الأوائل من جهد للاتصال بأهل الحجاز، وما قدموا، من أعطيات وأعمال خيرية تجاه أهل الحجاز، مع ملاحظة الفوارق بين كل خليفة وآخر فيما كانوا يسعون لتقديمه أثناء ذهابهم من العراق إلى المدينتين المقدستين في أرض الحجاز.

الخليفة العباس الأول الملقب بالسفاح (١٣٢–١٣٦هـ/٧٤٩–٧٥٣م) لم يكن له تلك المجهودات الملموسة تجاه الحجازيين، اللهم إلاّ أنه قام ببعض الإصلاحات البسيطة في الطريق الواصلة بين الكوفة ومدن الحجاز (١)، إلى جانب أنه كان له صلات مع بعض أشراف وأعيان الحجاز فكان يستضيفهم في أرض العراق، بل ويجزل لهم الهدايا والأعطيات (٢)، ومن المحتمل أن الظروف لم تساعد السفاح على التقرب من الحجازيين واجزال العطاء لهم، كما فعل من جاء بعده من الخلفاء، وذلك لقصر المدة الزمنية التي قضاها في الخلافة، ثم لانشغاله في بداية قيام دولة بني العباس، التي كانت تحتاج إلى تكريس الجهود في إنشاء الدولة والقضاء على كل ما يهدد أمنها، ويقلق راحة حكامها.

وفي عهد الخليفة العباسي الثاني، أبي جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ/٧٥٣–٧٧٤م) زادت الصلات بين أهل الحجاز وبين الخليفة في بغداد فيُذكر أن الأخير ذهب للحج ست مرات، وفي كل مرة كان يلتقي بالحجازيين، فيسمع منهم، ثم يوزع عليهم الكثير من الأعطيات والأرزاق

المتنوعة (٣) وقد أشارت بعض المصادر الأولية إلى أن الخليفة المنصور ذهب إلى المدينة المنورة عام(١٤٠هـ/٧٥٧م) فوزع أموالاً كثيرة على الحجازيين، لكنه خص القرشيين بنصيب الأسد من تلك الأعطيات (٤)، وفي عام(١٥٢هـ/٧٦٩م) ذهب أيضاً إلى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة فقسم بينهم أعطيات كثيرة(٥). ولم يكن يقتصر الخليفة المنصور على توزيع الأموال أثناء ذهابه إلى الحجاز، وإنما كان يكلف أمراء الحجاز بالإشراف على أحوال الرعية، فيذكر النويري أنه في إحدى المرات أرسل إلى أمير مكة المكرمة والمدينة المنورة، زياد بن عبيدالله الحارثي، وأمره أن يوزع أموالاً وهدايا على الضعفاء والمساكين في الحجاز، ويتفقد أحوال كبار السن والأيتام والعميان (٦)، كما أنه كلف الأمير زياد بالإشراف على توسعة الحرم المكي عام (١٣٧هـ /٧٥٤م).

ويأتي الخليفة المهدي من بعد والده المنصور(١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) فيستكمل ما كان قد بدأه والده من قبل، إلا أن المصادر قد اطنبت في ما قام به الخليفة المهدي من أعمال خيرية تجاه الحجازيين ولكثرة ما بذل ذلك الخليفة من جهود، فقد أفردت له دراسة مستقلة بعنوان " أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز (١٥٨هـ / ٧٧٤م ١٦٩هـ ٧٨٥م) ونشرتها في مجلة الدارة، العدد الرابع، عام(١٤١١هـ/١٩٩١م)، ولهذا لا داعي لذكر هذه الدراسة هنا، وقد يستطيع القاريء الكريم الرجوع إليها هناك(٧).

وجاء بعد الخليفة المهدي ولداه الخليفة الهادي (١٦٩ – ١٧٠ هـ/٧٧٤-٧٧٥م) ثم الخليفة الرشيد (١٧٠هـ – ١٩٣هـ /٧٧٥-٨٠٨م) ، فلم يكن الموت يمهل الخليفة الهادي ليُقدِّم بعض الأعمال الخيرة تجاه الحجازيين، وإنما انتقل إلى الدار الآخرة بعد عدة أشهر من توليه الخلافة ، أما الخليفة الرشيد فقد جاء إلى الخلافة بعد موت أخيه الهادي ، وبقي في الخلافة نحو ثلاث وعشرين سنة ذهب خلالها إلى الحجاز عدة مرات (٨) ، وكان في أغلب زياراته يلتقي بعامة الحجازيين فيسمع منهم ، ثم ينفق عليهم الأعطيات والأرزاق المختلفة ، أشارت بعض المصادر إلى زيارته للحجاز سنة (١٧٠هـ/٧٨٦م) وذكرت أنه وزع أموالاً كثيرة على أهل مكة والمدينة وما حولهما (٩) ، لكن تلك المصادر لم تكن توضح مقدار تلك الأموال ، بل ولم تذكر الأسباب التي جعلت الخليفة يوزعها ، في حين أن الدينوري أشار إلى توزيع أموال كثيرة على أهل المدينة ولم يذكر أهل مكة ولا غيرهم (١٠) ، ويروي الفسوي زيارة الخليفة الرشيد للحجاز عام(١٧٣هـ/٧٨٩م) وتوزيعه أموالاً طائلة على عامة السكان في الحجاز (١١) ، وفي عام (١٧٤هـ/ ٧٩٠م) ذهب أيضاً للحج ووزع الكثير من الأموال والهدايا على سكان أهل مكة والمدينة(١٢)، ووردت رواية في كتاب الإمامة والسياسة ، أشارت إلى أنه ذهب إلى المدينة المنورة ووزع على أهلها عشرة بيوت مال ، وكل بيت مال فيه خمسمائة ألف ، وعندئذ يصبح المجموع خمسة ملايين ، لكن لم يذكر هل كانت الأموال بالدينار أم بالدرهم (١٣) ويورد ابن فهد والأنصاري زيارة الخليفة الرشيد

للحجاز عام (١٧٩هـ/٧٩٥م) وتوزيعه بعض الأموال على أهالي مكة والمدينة(١٤)، وفي سنوات مختلفة من عهده كان يرسل الأموال من بغداد إلى أمير الحجاز ليوزعها على السكان، فيذكر انه أرسل أموالاً إلى أمير المدينة، أبي بكار عبد الله بن مصعب الزبيري القرشي، عام (١٨١هـ/٧٩٧م)، (١٨٣هـ/٧٩٩م)، (١٨٦هـ/٨٠٢م) ليوزعها على سكان المدينة (١٥) ، ويوضح ابن بكار ، في كتاب جمهرة نسب قريش إلى أن المال الذي أرسل لأمير المدينة عام (١٨٦هـ/٨٠٢م) كان مليونا ومائتي ألف دينار وقد صرفت جميعها على المدنيين (١٦). وفي مصادر أخرى أشارت إلى ما انفق الخليفة الرشيد من الأموال على أهل الحجاز عام (١٨٦هـ/٨٠٢م)، في الوقت الذي ذهب معه ولداه، الأمين والمأمون ، لكي يعلن تعينهما في ولاية العهد من بعده (١٧) ، فيذكر ابن حبيب والدينوري إلى أنه ذهب من العراق ومعه ولداه ، والوزراء والفقهاء، وغيرهم ، وعند وصوله إلى المدينة المنورة وزع على أهلها ثلاث أعطيات ، ثم واصل سيره حتى جاء مكة المكرمة فوزع على أهلها عطاءين ، ولكنهما لم يذكرا مقدار تلك الأعطيات لا في المدينة ولا في مكة المكرمة (١٨) . ويشير الطبري (١٩) وابن الأثير (٢٠) وابن كثير (٢١) وابن تغري بردي (٢٢) إلى تلك الرواية التي ذكرها كل من ابن حبيب والدينوري إلا أنهم يشيرون إلى أن مجموع المال الذي تم توزيعه على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة كان مليونا وخمسين الف دينار ، لكن الطبري في مكان آخر يذكر أن مجموع ذلك المال لم يصرف إلا في المدينة المنورة (٢٣). ويتفق صاحب كتاب العيون

والحدائق، مع الطبري وابن الأثير وغيرهما ، لكنه يخالفهما في مكان توزيع الأموال ، حيث يورد أن مليونا وخمسين ألف دينار صرفت على أهل مكة فقط ولم يشر إلى المبلغ الذي صرف في المدينة المنورة(٢٤). ويذكر الازرقي والجهشياري ، والطقطقي ذهاب الخليفة الرشيد مع ولديه إلى الحجاز وتوزيع بعض الأموال على أهل المدينة المنورة دون أن يذكر مقدار تلك الأموال (٢٥) ، ثم انفراد الازرقي بالإشارة إلى أن الخليفة الرشيد ذهب إلى مكة المكرمة ، لكنه لم يشر إلى توزيع الأموال هناك (٢٦) ، ويتوسع في النقاش كل من الجهشياري والطقطقي فيصفان ما لحق أهل المدينة المنورة من الرفاهية والنعيم على أثر تلك الأعطيات التي وزعها الرشيد عليهم في عام (١٨٦هـ/٨٠٢م)، بل ويشيران إلى ذلك العام أنه أُطلق عليه " عام الأعطيات الثلاث " (٢٧) ويتفق اليعقوبي مع الجهشياري والطقطقي ، إلا انه أضاف أن الخليفة وزع مع المال بعض الملابس المتنوعة ، ثم أشار إلى أن الخليفة ذهب إلى كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة، ولكنه وزع أموالاً أكثر عند المدنيين، لكن اليعقوبي لم يوضح مقدار تلك الأموال لا في مكة ولا في المدينة (٢٨) ، ويتعرض ابن خلدون لما أشارت إليه المصادر السابقة فيتفق معهم في زيارة الخليفة الرشيد لمكة المكرمة والمدينة المنورة ، إلا أنه يعطينا أرقاماً تخالف ما مر معنا فيذكر أن الخليفة وزع في المدينة مليونا دينار ، وفي مكة أيضاً مليونا ونصف المليون وبالتالي صار مجموع ما صرف في الحجاز ثلاثة ملايين دينار (٢٩) .

وفي الأعوام التالية لعام (١٨٦هـ/٨٠٢م) تذكر بعض المصادر ذهاب الخليفة الرشيد إلى الحجاز، وتوزيعه الأموال الكثيرة على عامة الناس (٣٠)، ولم يكن يقتصر عمله فقط على توزيع النقود وإنما كان هو أيضاً يذهب ويلتقي بالفقراء والمساكين والمرضى فيسمع منهم، ويخفف عليهم أحزانهم ويوزع عليهم الألبسة والأطعمة وغيرها من الحاجات الضرورية(٣١).

لم يكن الخليفة الرشيد يقتصر على ما كان يوزع من أعطيات على أهل الحرمين، وإنما كان أيضاً يحث الوزراء، والقادة ، والأغنياء من بين بني العباس وغيرهم ، على أن يحسنوا إلى الحجازيين ويتصدقوا من فائض أموالهم على أهل مكة والمدينة ، وقد استجاب له العديد ، أمثال أمه الخيزران التي يذكر أنها ذهبت للحج سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م)، فوزعت الكثير من الأموال، والمجوهرات، والألبسة على القرشيين والأنصار ، والموالي وغيرهم من سكان الحجاز(٣٢)، أيضاً فعلت زبيدة، زوجة الرشيد، الكثير من الأعمال الخيرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة (٣٣).

أما الخليفة الرشيد فلم يكن له أعمال عمرانية ملحوظة في بلاد الحجاز، وخصوصاً فيما يتعلق بتوسعة الحرمين، أو ما شابه ذلك (٣٤)، لكن كان له بعض الاهتمامات في حفر العيون في مكة وما حولها، من أجل توفير الماء للحجاج والزوار الذين كانوا يرتادون أرض الحرمين، ثم أيضاً ليخفف من مشكلة قلة المياه التي كان يعاني منها المكيون وغيرهم (٣٥) .

لم تفصح المصادر عن مواقف خلفاء بني العباس، بعد الرشيد، تجاه أهل الحجاز، فالخليفة الأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ/٨٠٨– ٨١٣م)، ثم الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ/٨١٣– ٨٣٣م)، لم نستطع العثور على أي معلومة تذكر مساهمتهما الخيرية تجاه أهل الحرمين ، ولا نستطيع أن ننفي أنه لم يكن لهما أعمال خيرية ، لكن المصادر ربما أغفلت ما قاما به ، وقد نفترض انهما قد نسيا الحجاز أثناء الحرب الأهلية التي قامت بين الأخوين ، الأمين والمأمون ، من عام (١٩٣ – ١٩٨ هـ / ٨٠٨ – ٨١٣ م) ، لكن لا يمكن أن يترك الخليفة المأمون الحجاز وأهله ، وخاصة أن عصر ذلك الخليفة كان قد ظهر فيه العديد من الأنشطة العمرانية والفكرية وغيرها . أما الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) فيذكر أنه أرسل في إحدى المرات خمسة وعشرين ألف دينار، ليتم توزيعها على بعض الأشراف وأعيان المجتمع في مكة (٣٦) . أما الخليفة الواثق (٢٢٧ – ٢٣٢ هـ) فلم نستطع العثور على مادة علمية تؤكد مواقفه الخيرية ، اللهم إلا رواية واحدة ذكرها اليعقوبي ، حيث أشار إلى أنه أمر بتوزيع خمسة ملايين دينار على الأشراف في جميع المدن الإسلامية ، بما فيها مدن الحجاز (٣٧) . وإن صحت هذه الرواية فلا ندري كم مقدار المال الذي وزع على أشراف الحجاز ، أيضاً أن هذه الرواية التي وردت في عهد الخليفة الواثق ، والرواية التي أشرنا إليها في عهد الخليفة المعتصم لا تعطينا الصورة الواضحة عن أسباب توزيع تلك الأموال لكن مما يظهر أن المعتصم والواثق قد وزعاها على علية القوم وعلى الأشراف من بيت بني

هاشم ، وهذا العمل ربما يعود لأسباب سياسية ليشتروا بها قلوب أولئك الأفراد الذين وزعت عليهم الأموال .

ويلاحظ حرص خلفاء بني العباس الأوائل على الاتصال بالحجازيين ، والتقرب منهم ، وتوزيع الأموال والأعطيات عليهم ، مع العلم انهم لم يكونوا متساوين في اهتمامهم ببلاد الحجاز ، ولا في نسبة الأموال التي ينفقونها على سكان الحرمين ، لكن لا بد أن يكون لذلك الاهتمام أسباب هي : أن بلاد الحجاز تحتوي على المسجدين الشريفين ، ثم إنَّ بها الكعبة الشريفة ، وقبر الرسول ﷺ فكان على بني العباس العمل بجدية في السيطرة على تلك البلاد ، لأنهم إذا أبقوا بلاد الحجاز ضمن دولتهم ، فانهم بدون شك سينالون شرف حماية الحرمين ، ثم بالتالي سوف ينالون التقدير والاحترام من عامة المسلمين . وإذا كان هذا هو هدفهم فلا بد أن يبذلوا الغالي والرخيص مع أهل الحجاز من أجل كسب ولائهم ، وشراء قلوبهم، حتى يرضوا بحكم بني العباس وعدم الثورة ضدهم . وهناك أيضاً سبب آخر ، ربما دفع خلفاء بني العباس إلى الاتصال بالحجازيين وتوزيع الأموال عليهم وذلك هو طلب الأجر والثواب من الله ، لأن من يحسن إلى أهل الحرمين سوف يجازى من رب العباد ، ومما يؤكد ذلك ما قامت به زوجة الرشيد ، زبيدة ، وأمه الخيزران ، من أعمال خيرية تجاه أهل الحجاز .

ولكن إذا كانت هناك أموال كثيرة قد تتجاوز ملايين الدنانير ، كما لا حظنا في طيات البحث ، فأين صُرفت ، ومن الذي أخذها واستفاد

منها ؟ وكيف تم توزيعها ؟ والإجابة على هذه الأسئلة أمر صعب ، لأننا لا نملك المعلومات الكافية التي تجيب عليها ، علماً أن مثل تلك الأموال ، التي أشارت إليها المصادر ، قد تبني وتطور مدن بأكملها ، وإذا حاولنا معرفة أوضاع الحجاز في ذلك العهد ، أو في العهود التالية لعصر بني العباس الأول، فسنجد أن حالته يرثى لها ، فلم يكن هنا تطور عمراني ، ولا تحسن زراعي أو حرفي ، أو تجاري أو ما شابه ذلك ، وإنما كان اعتماد السكان على موسم الحج في كل عام ، ثم إن ذلك الموسم لا يكون كفيلاً بتطوير الحياة الحضارية في الحجاز واعتقادي هو أن تلك الأموال الطائلة كانت تصرف من خلفاء بني العباس الأوائل إلى بعض أشراف الناس وأعيانهم الذين ربما كانوا يستخدمونها في شؤونهم الخاصة ، وليست فيما يصلح لشؤون ولاية الحجاز ، وبالتالي أدى ذلك إلى أن أصبحت تلك الأعطيات أثراً بعد عين ، وخصوصاً بعد أن أصاب دولة بني العباس الضعف والانهيار خلال العصور العباسية التالية للعصر الذي نحن بصدده في هذا البحث .

الهوامش والتعليقات

١ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ، ١٩٦٠م) جـ٧ ، ص٤٦٥.

٢ـ انظر تفصيلات أكثر عن الخليفة السفاح وعلاقته ببعض أشراف الحجاز ، أحمد بن يحيى البلاذي ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد المحمودي (بيروت ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) جـ٣ ص٨٠ـ٨٢ ، أحمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ، ١٩٤٨م) جـ٥ ، ص٧٤ .

٣ـ للمزيد من المعلومات ، انظر أبا العباس أحمد المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (القاهرة ، ١٩٥٥م) ، ص٣٦ـ٣٨ .

٤ـ انظر أبا عبد الله الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق محمود شاكر (القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م) جـ١ ، ص٣٦ـ٣٨ ، أبا حنيفة أحمد الدينوري ، الأخبار الطوال (القاهرة ، ١٩٦٠م) ٣٠٣ البلاذي ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٥ .

٥ـ أبو يوسف يعقوب الفسوي ، كتاب المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العُمري (بغداد ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) جـ١ ، ص١٣٩ .

٦ـ شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين (القاهرة ، ١٣٤٢هـ) جـ٤ ، ص١٧ .

٧ـ انظر : غيثان بن علي بن جريس " أعمال الخليفة المهدي " مجلة الدارة ، العدد الرابع ، السنة السادسة عشر (١٤١١هـ) ص١١٣ـ١٢٩ .

٨- للمزيد من المعلومات حول عدد الزيارات التي قام بها الخليفة الرشيد لبلاد الحجاز ، انظر المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص٤٨-٥١ ، عبد القادر محمد الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ص٢١٩ وما بعدها .

٩- أحمد اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (ليدن ، ١٩٦٢م) جـ٢ ، ص٣٩٣ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ص٢٣٤ ، عز الدين ابن أثير ، الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٣٨٥هـ) ج٦ ص١٠٩ ، المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص٤٨ .

١٠- الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٨٧ .

١١- الفسوي ، كتابة المعرفة ، جـ١ ، ص١٦٣ .

١٢- انظر الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ، ص٢٣٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص١٢١ ، المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص٤٨ ، الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة ، ص٢٢١ .

١٣- أبو عبد الله محمد بن قيبة ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني (بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م) جـ٢ ، ص١٥٣ .

١٤- نجم الدين محمد بن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم شلتوت (القاهرة ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص٢٣٠ الأنصاري ، درر الفرائد ، ص٢٢١ .

١٥- انظر أبا عبد الله مصعب الزبيري ، نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة ، ١٩٥٣م) ، ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص١٦٣ ، وما بعدها ، الفسوي ، جـ١ ، ص١٧٤ ، أحمد بن علي البغدادي ، تاريخ بغداد ومدينة السلام (القاهرة ، ١٣٤٩هـ) جـ١ ص١٧٦ .

١٦- انظر ، ابن بكار ، جـ١ ، ص١٦٤ .

١٧ـ للمزيد من التفصيل عن توليه العهد لولدي الرشيد ، الأمين والمأمون . انظر ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ، ص٢٧٥ وما بعدها .

١٨ـ أبو جعفر محمد بن حبيب ، كتاب المحبر (بيروت ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م) ص٣٨ ، الدينوري ، الأخبار ، ص٣٩٠ .

١٩ـ الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ، ص٢٧٥ .

٢٠ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٦ ، ص١٧٣ .

٢١ـ إسماعيل بن علي بن كثير ، البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ١٠ ، ص١٨٧ .

٢٢ـ جمال الدين يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (القاهرة ، د . ت) جـ٢، ص١٠٩ .

٢٣ـ الطبري ، جـ٨ ، ص٣٦٤ .

٢٤ـ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٦٩م) جـ٣ ، ص٣٠٣ .

٢٥ـ انظر أبا الوليد الأزرقي ، أخبار مكة ، تحقيق رشدي ملحس ط٤ (مكة ، ١٤٠٣هـ) جـ٣ ، ص٢٣٢ ، محمد ابن عبدوس الجهشياري ، الوزراء والكتاب ،تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة ، ١٣٥٧هـ) ص٢٢١ـ٢٢٢ ، محمد بن علي الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، (بيروت ، د . ث) ص٢٠١ .

٢٦ـ الأزرقي ، جـ٣ ، ص٢٣٢ .

٢٧ـ الجهشياري ، ص٢٢٢ ، الطقطقي ، ص٢٠١ .

٢٨ـ اليعقوبي ، تاريخ ،جـ٢ ، ص٥٠١ .

٢٩ـ انظر عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ٣ ، ص٤٧٢

٣٠- للمزيد عن أعطيات الرشيد بعد عام(١٨٦هـ/٨٠٢م) ، انظر ، ابن حبيب المحبر ، ص٣٨ ، المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص٥٢ .

٣١- عن أعمال الخليفة الرشيد الخيرية تجاه الضعفاء والمساكين في الحجاز أنظر ، محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى (بيروت ، ١٣٧٦هـ) جـ٥ ، ص٤٢٦ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص٢٩١ ، أبا علي التنوخي ، المستجاد من فعلات الأجواد ، تحقيق محمد كرد علي (دمشق ، ١٣٦٥هـ) ، عبد الرحمن بن الجوزي ، صفة الصفوة (حلب ، ١٣٨٩هـ) جـ٢ ـ ص٢٠٦ .

٣٢- مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص٢٩١ .

٣٣- كانت لزبيدة أعمال جبارة في مكة المكرمة ، ومن أهم تلك الأعمال حفر عين زبيدة ، التي لا زالت إلى يومنا هذا ، فقد انفقت على حفرها أموال طائلة ، وبعد حفرها ظلت تنفق على إصلاحها وصيانتها مدة حياتها ، للمزيد من التفصيل حول أعمال زبيدة في الحجاز أنظر ، الأزرقي ، أخبار مكة ،جـ٢ ، ص٢٣٠ـ٢٣٢ ، أحمد اليعقوبي ، مشاكلات الناس لزمانهم (بيروت ، ١٨٨٣م) ص٢٦ ، شمس الدين بن خلكان ، وفيات الأعيان ، ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، ١٩٦٨م) جـ٢ ، ص٣١٤ .

Saad Al-Rashid. Darb Zubaydah (Riyadh, 1980) pp. 31ff

٣٤- من يطلع على الدراسة السابقة الذكر عن الخليفة المهدي فسيجد أنه قد قام بإصلاحات عمرانية جيدة في المسجد الحرام، وكذلك المسجد النبوي، انظر غيثان بن جريس " أعمال الخليفة المهدي " ص١١٣ ومابعدها

٣٥- انظر لمعلومات أكثر عن مجهودات الرشيد في توفير المياه لأهل الحجاز ، الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ٢ ، ص٢٢٧ وما بعدها ، تقي الدين الفاسي ، شفاء الغرام (بيروت ، د . ت) جـ١ ، ص٣٤٦ .

٣٦- انظر أبا القاسم الزمخشري ، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (بغداد ، ١٩٧٦م) جـ١ ـ ص٨٨ .

٣٧- اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٥٩٥ .

الدراسة الثالثة

علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس الأوائل

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ – ٨٤٦ م)(*)

(*) بحث منشور في مجلة المنهل ، العدد (٥٠٢) مج (٥٤) شعبان (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص٢٥-٣٠



علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس الأوائل (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م)

من يدرس اهتمام خلفاء بني العباس الأوائل بالفقهاء والعلماء في مختلف أجزاء الدولة الإسلامية ، يجد الكثير من المعلومات المتناثرة في بطون المصادر الإسلامية المختلفة ، التي تشير إلى اهتمام خلفاء بني العباس بالعلماء ، والعمل على التقرب منهم ، سواء كان في مدينة بغداد أو في غيرها من مدن العالم الإسلامي المعروفة آنذاك .

وبلاد الحجاز المشتملة على المدينتين المقدستين ، كانت من المناطق المهمة التي حرص خلفاء الإسلام الأوائل في السيطرة عليها لتكون تابعة لهم، نظراً لقداستها ، فمكة المكرمة فيها الكعبة المشرفة ، وإليها يتجه المسلم في صلاته خمس مرات في اليوم والليلة ، وإلى مكة المكرمة يأتي الزوار والحجاج لتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام .

أمّا المدينة المنورة فهي موطن الرسول ﷺ ، وفيها قبره الشريف ، من هنا كان حرص خلفاء بني أمية وبني العباس من بعدهم أن تكون منطقة الحجاز ولاية من ولايات دولهم ، بعد أن كانت المدينة عاصمة المسلمين أيام الرسول ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين من بعده .

وبلاد الحجاز كانت مركزاً للدعوة الإسلامية ، منها انطلقت الجيوش الإسلامية إلى البلدان المجاورة في العهد ألراشدي الذي انتهى بموت

الخلفية الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجاء العصر الأموي لتصبح ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ، وانتقل المركز السياسي إلى بلاد الشام ، بعد أن اتخذ الأمويون مدينة دمشق عاصمة لهم ، إلا أن الشيء الذي لا يمكن تجاهله ، أن مكانتها الدينية بقية وما زالت وستبقى ، بإذن الله ، في نفوس المسلمين ، لوجود مكة والمدينة وقيام المسلمين من مختلف مناطق المعمورة في شد الرحال إليهما أ لتأدية مناسك الحج ، ولهذا كان وما زال لهما المكانة السامية في نفوس المسلمين .

وبما أنهما كانتا في بداية الدولة الإسلامية ذات أهمية سياسية تخرج منهما قرارات الحكام ، إلا أن المكانة الدينية بقيت على مر التاريخ حيث يقصدها الفقهاء والمحدثون ، وغيرهم من فئات المجتمع الإسلامي .

ولكون هذا البحث مركزاً على علماء الحجاز (وبخاصة الإمام مالك) وعلاقتهم أو علاقته بخلفاء بني العباس الأوائل ، فسوف نركز على ذكر مشاهير علماء هذه المنطقة في الفترة المعنية بالدراسة ، وعلى الأعمال المهمة التي مارسوها مع بني العباس ، وعلاقتهم بعلماء العراق الذين استوطنوا المدن الرئيسة في الأراضي الحجازية ، وتعاونوا مع الفئات المختلفة في مجتمعاتها .

ومن مشاهير العلماء الحجازيين في العصر العباسي الأول ، مالك بن أنس ، وعبد الملك بن جريج ، وسفيان الثوري ، وغيرهم الكثير ، حيث كان البعض منهم يستوطن مكة المكرمة أو المدينة المنورة بشكل دائم ،

أمثال مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، وسفيان بن عيينة الذي اتخذ مكة موطناً له، في حين كان غيرهم من العلماء لايمكث طويلاً في مدن الحجاز ، فسرعان ما يغادرها إلى مدن إسلامية أخرى قد تطول أو تقصر حسب الظروف ثم يعودون لزيارة الحجاز مرات ومرات ، أمثال سفيان الثوري وغيره من علماء ذلك الزمان ، وكانت أعمالهم وأعمال غيرهم من العلماء متنوعة ، كالقيام بالتعليم والتدريس وإفتاء الناس ووعظهم وإرشادهم ، واجتماعهم بالأمراء وأصحاب الشرطة والبريد وغيرهم من موظفي الدولة فيعظونهم ويُذكّرونهم بمخافة الله ن وقد يطلب من بعضهم المشورة في أمور الرعية، وقد يسند للبعض الآخر منصب القضاء ، وهذه الأعمال التي مر ذكرها قد تكون صفات مشتركة عند علماء كل عصر وفي عهد كل حاكم ، بسبب ما يحسه الفقيه من واجب تجاه مجتمعه الذي يعيش فيه ، وما يجب أن يقوم به من وعظ وإرشاد لأفراد المجتمع مع العمل الدؤُب في محاربة الرذائل والانحرافات وكل ما نهى الله عنه.

ونظرا لإدراك خلفاء بني العباس الأوائل أهمية العلماء والفقهاء في مختلف أجزاء الدولة الإسلامية وخصوصاً أرض الحرمين ، فقد كانوا يسعون للتقرب منهم والسماع إلى أقوالهم ، وتقديم المنح والأعطيات إليهم ، طمعاً في كسب ودهم ، عندما يصبحون في نظر الرعية حماة الدين فيكسبون رضاهم لتطبيقهم الأحكام والتشاور مع العلماء باستمرار قصد الإجارة والصواب في تطبيقها .

وذكرت لنا المصادر التاريخية ما كان من اهتمام خلفاء بني العباس بالعلماء والحرص على تزيين مجالسهم بهم ، والتقرب بتقديم الهدايا لهم تعبيراً عن محبتهم والاهتمام بهم . ومثال ذلك ، مجالسة الخليفة أبي عبد الله الملقب بالسفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ / ٧٤٩ – ٧٥٣م) وأخيه الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ / ٧٥٣ – ٧٧٤م) الذي زاد عن أخيه أبي عبد الله بالتقرب إليهم وكثرة زيارته ودعوته لهم ، وعلى الأخص إمام دار الهجرة (مالك بن أنس)(١).

وانفرد ابن خلكان دون غيره في ذكر زيارة الإمام مالك إلى العراق ، بينما ذكرت مصادر أخرى أنه لم يخرج من المدينة حتى وافاه الأجل ، لكن ما يمكن تأكيده وهو وجود علاقات جيده بين الخليفة والإمام مالك من جهة ، وما بين الخليفة والأئمة الآخرين من جهة أخرى كسفيان بن عيينة وغيره . ويذكر أن الإمام مالك قام بزيارة للخليفة المنصور ، فاستقبله الخليفة بالحفاوة والتكريم ، وسأله عن علماء وفقهاء الحجاز وعلى الأخص ابن أبي ذئب ، وابن أبي سبرة وغيرهما (٢) . وأشار القاضي عياض في كتابه: ترتيب المدارك ، إلى تقدير الخليفة المنصور للإمام مالك فقال : " إن رابك ريب من عامل المدينة ، أو عامل مكة ، أو احد من عمال الحجاز في ذاتك ، أو ذات غيرك ، أو سؤ سيرة في الرعية ، فاكتب لي بذلك ، أَنزل بهم ما يستحقون ، وقد كتبت إلى عمالي بهذا ، أن يسمعوا منك ويطيعوا كل ما يعهد إليهم فأنههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك وأنت حقيق

أن يطاع أمرك ويسمع منك " (٣) ، وهذا التصرف من قبل الخليفة المنصور تجاه الإمام مالك ربما عائد إلى أهميته عند الخليفة والحجازيين معاً ، ولذا كان لحسن معاملة الخليفة له ما يبرر ذلك ، لأنه كان يهدف إلى تدعيم نفوذه عند المسلمين ، وعلى الأخص عند أهل الحجاز ، وخاصة عند المدنيين الذين كانوا ينفرون منه ، بسبب ما ارتكبه من آثام هو وغيره من بني العباس مع العلويين في المدينة ومع الأعراب المنشقين على الخلافة (٤) ، وكل هذا دفع الخليفة المنصور إلى تحسين العلاقة معه ليستبدل الخصومة بالمحبة .

ومن اهتمام الخليفة المنصور بعلماء الحجاز أنه كان يلتقي بهم ، أثناء ذهابه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، عند أدائه فريضة الحج ،بل ويعين البعض في بعض الوظائف التعليمية والشرعية ، وإلى هذا يشير ياقوت الحموي إلى أن أبان بن تغلب بن رياح قد عينه المنصور للوعظ والإرشاد في مسجد الرسول ، ﷺ ، قائلاً له " اجلس في مسجد المدينة وفقه الناس فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك " (٥) . ومن تشجيع الخليفة المنصور للعلماء ، ما ذكره ابن قتيبة في مؤلفه ، الإمامة والسياسة ، أنه طلب من إمام دار الهجرة ، الإمام مالك ، أن يعد له منهجاً لإدارة الدولة ، وفي هذا يقول " يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودونه ، ودون فيه كتاباً وتجنب شدايد عبد الله بن عمرو ورخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه أئمة الصحابة - رضي الله عنهم -

لنحمل الناس على علمك وكتبك ونبثها في الأمصار (٦) لكن الإمام مالك أقنع الخليفة بعدم جدوى ما يصبو إليه لأن المسلمين تفرقوا في أجزاء البلاد الإسلامية ، الأمر الذي أدى إلى كثرة الآراء والمذاهب وبالتالي لن يكون الأمر سهلاً .

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٧٤ – ٧٨٥م) نجد العلاقات مع علماء وفقهاء الحجاز ازدادت رسوخاً ، لما كان يبذله الخليفة المهدي من جهد في التقرب إلى علماء الحجاز والاستماع إلى أرائهم ، ومشاورتهم في كثير من الأمور الشرعية والإدارية والسياسة وغيرها من الأمور الأخرى ، إلى جانب المنح والعطايا لهم ولأهل الحجاز ، وهذا ما أشارت إليه المصادر في أماكن عديدة ، من ضمنها لقاء حدث بين الخليفة المهدي والإمام مالك بن أنس وتذكير الأخير للخليفة بأحوال الحجازيين ، وخاصة أهل المدينة ، وما هم عليه من شظف العيش ، فلم يكن من الخليفة إلا أن سارع في توزيع الأموال عليهم حيث بلغ مقدار ما صرف لهم حوالي مليونين ونصف دينار (٧) ، ومن شدة رغبة الخليفة المهدي في مجالسة الإمام مالك والسماع إليه أنه طلب منه مرافقته إلى العراق ، ولكن الإمام أستأذنه بالبقاء في المدينة مفضلاً إياها عما سواها من المدن ، فقبل عذره وأمره له بكسوة وستة آلاف دينار وتركه وشأنه (٨) .

ومما يدل على مكانة علماء وفقهاء الحجاز عند الخليفة المهدي أنه استشارهم في إعادة بناء الكعبة وجعلها إلى ما كانت عليه في عهد عبد الله

الزبير (٩) ، فقال الإمام مالك " دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها الخليفة (١٠) ، وفي رواية أخرى أن الخليفة المهدي استشار فقهاء الحجاز في نقض منبر الرسول ﷺ وإعادة صنعه ، فقال له الإمام مالك ، إن هذا المنبر مصنوع من خشب الطرفاء ، وأنه يخاف عندما ينقض أن ينكسر ولا يصلح مرة أخرى فتركه الخليفة نزولاً عند رأي الإمام مالك وغيره من علماء الحجاز (١١) ، ويورد لنا أيضاً النهروالي رواية عن الخليفة المهدي عام (١٦٠هـ/٧٧٦م) عندما استشار بعض علماء الحجاز في توسعة الحرم المكي فأيدوه بذلك فعمل على توسعته (١٢) .

وسلك الخليفة الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ / ٧٨٦ – ٨٠٨م) نفس مسلك والده المهدي ، فيذهب إلى مدن الحجاز عند انتهائه من مناسك الحج ويحرص على مقابلة العلماء والفقهاء وأشراف الناس فيشاورهم في كثير من الأمور ، ويكثر من توزيع الصدقات على المحتاجين وتقديم الأعطيات للأشراف فيها ، بل وكان يحرص أشد الحرص في مقابلة الإمام مالك بن أنس والفضيل بن عياض وغيرهما ليسمع منهما وعظاً وإرشاداً ، بل ويذكرانه بهادم اللذات (الموت) .

ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد أرسل وزيره يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك يطلبه الحضور إلى مجلس الخليفة ومعه كتابه الموطأ ، وعند وصول يحيى البرمكي إلى دار الإمام وإخباره بما يريد ، قال مالك ليحيى ، أقرأ الخليفة السلام ، وقل له العلم يُزار ولا يزور ، فيرجع

يحيى بن خالد إلى الخليفة ، وما كاد يصل إلا والإمام مالك قد لحق به ، فسلم على الخليفة ثم أوصاه بفضل العلم واحترام العلماء وتشجيعهم له فشكر له الخليفة عمله هذا (١٣) .

ومن حرص الخليفة الرشيد إلى سماع أحاديث الإمام مالك وغيره من العلماء والعمل على الاستفادة من سلوكياتهم ، أن أرسل ولديه الأمين والمأمون للسماع منهم جميعاً ، والتعلم على أيديهم في المدينة المنورة ومكة المكرمة (١٤) .

وذكر لنا صاحب كتاب ، الإمامة والسياسة ، عن زيارة الخليفة الرشيد للحجاز في إحدى السنوات ، مقابلته للإمام مالك ، فعرض عليه الأخير حالة الحجازيين ، وما هم عليه من العوز والحاجة ، مذكراً إياه بسخاء والده المهدي ، فما كان من الرشيد إلا أن أمر بتوزيع خمسة ملايين دينار عليهم (١٥)، وهذا التصرف له ما يبرره ، فمنزلة الإمام مالك عند الخليفة منزلة سامية وسكان الحجاز كانوا في نظره هم سكان الحرمين وتوزيع المال عليهم كان في محله إلى جانب رغبته في نيل مرضاة الله ، ويسد حاجات سكان الحرمين ، فسيكون بالتالي هناك ، إخماد للفتن المرتقبة وذلك بعدم وجود آذان صاغية لمروجيها، أو ميل النفوس للقيام بها، بسبب ما أنعمه الخليفة على أهلها ، وعندئذ يسود في عهده ، مثلما كان في عهد سلفه، وبلغ من حرص الخليفة الرشيد في الاهتمام بعلماء وفقهاء الأمة خاصة، وموظفي المؤسسات الدينية عامة، أنْ أمر الولاة بقضاء حوائجهم ،

بعد التعرف على أحوالهم ، وفي هذا يقول ابن قتيبة في كتاب ، الإمامة والسياسة ، " أما بعد فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن واقبل على طلب العلم ، وعمّر مجالس العلم، ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم وأستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم ، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم (١٦) ، فان الله تعالى يقول

" أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ " (١٧).

وسلك الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ / ٨١٣ – ٨٣٣م) نفس المسلك الذي سلكه خلفاء بني العباس من قبله ، فكان يستقبل العلماء والفقهاء ، وخاصة علماء وفقهاء الحجاز ، فيجزل لهم العطاء ويعرض عليهم مناصب القضاء في الحجاز وفي مدن أخرى من بقاع العالم الإسلامي .

ونظراً لأهمية العلماء والفقهاء في المجتمع الحجازي ، عمل خلفاء بني العباس الأوائل قصارى جهدهم في كسب تأييد الفقهاء في مواقفهم السياسية والوقوف إلى جانبهم ، وأوضح دليل على ذلك ، سعى الخليفة المنصور إلى الاتصال بالإمام مالك بن أنس ، وجعفر الصادق وسفيان بن عينية وغيرهم ، أثناء قدومه للحجاز ، ومناقشته إياهم في كثير من الأمور ، وخاصة عند وقوع بعض الفتن السياسية في الحجاز ، ومعرفة آرائهم في

كيفية القضاء عليها (١٨) ، كم حرص في إبعادهم عن العلويين ، الثائرين ضده ، حتى يضعف شأنهم ويقلل من أنصارهم عند الرعية .

وكان الفقهاء والعلماء يُستشارون في عظائم الأمور ، من خلافة أو إدارة بلاد أو غيرها ، فقد أشارت الروايات إلى أن الخليفة هارون الرشيد استشار الفقهاء والعلماء ، ـ وفيهم الحجازيون ـ في ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ سافر إلى مكة ومعه العديد من الوزراء والأمراء ، وعدد من فقهاء وعلماء الحجاز ، ليوقعوا على ترشيح ولديه من بعده (١٩) . كم سلك نفس المسلك أمير الحجاز داود بن عيسى العباسي ، عندما أعلن الخليفة الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ / ٨٠٨ – ٨١٣م) عزل أخيه المأمون من ولاية العهد وتولية ولده بدلاً منه ، فلم يكن من الأمير داود بن عيسى إلا أن استشار علماء الحجاز بشأن ما فعل الأمين ، فأشاروا عليه بخلع الخليفة الأمين والاعتراف بالمأمون بدلاً منه فلم يعمل إلا بما أشاروا عليه به (٢٠) .

وفي العصر العباسي الأول ظهرت بعض المذاهب الفقهية ، فكان مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي ، وقد برز وأشتهر في المدينة خلال العقود الأولى من عصر خلفاء بني العباس الأول ، وكان في منهجه يصر على العمل بما يتوافق مع حديث ، الرسول ﷺ، بعد العمل بكتاب الله ، وقد تطور مذهبه وانتشر حتى أطلق عليه ، مذهب أهل المدينة ، أو مذهب أهل الحديث، في حين أن الإمام أبا حنيفة صاحب المذهب الحنفي ، كان قد ظهر

مذهبه في العراق ، وعمل ما يتفق مع مذهب الإمام مالك من حيث الأصول ، واختلافه في بعض الفروع . وقد تطور هذا المذهب إلى أن سمي بمذهب أهل العراق ، وأحياناً أخرى مذهب أهل الرأي ، لأن الإمام أبا حنيفة كان يلجأ إلى الأخذ بالرأي والاجتهاد ، وكان له في ذلك ما يبرره ، وهو بعد العراق عن بلاد الحجاز موطن الرسول ﷺ، وموطن حفظة الحديث ، ثم كان يرى في أخذه بالرأي والاجتهاد السلامة من الوقوع في الأخطاء التي تؤدي بصاحبها إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة لأن بلاد العراق كثر فيها الاختلاط وعلى الأخص أيام بني العباس ، فلم تكن مقصورة على الرجال الثقاة الذين كانوا يحفظون الأحاديث الصحيحة ، وإنما وجد فيها العجم والبربر والديالمة وغيرهم من العناصر المختلفة في أهوائها ورغباتها ، وفي مستوياتها من العلم والمعرفة ، إلى جانب الظروف والملابسات التي أحاطت بها خاصة بما يتصل بالشريعة والفقه .

وقد عاش خلفاء بني العباس الأوائل تلك العصور التي بدأ يظهر فيها التنوع في المذاهب والآراء الفقهية ، فعندما كان علماء أهل الحجاز وعلى رأسهم الإمام مالك الذي كان يدرس ويفتي في بعض الأمور الشرعية على ضوء مذهبه ، كان أيضاً الإمام أبو حنيفة وطلابه في العراق - أمثال ، أبي الحسن الشيباني وقاضي القضاة يعقوب أبي يوسف - يُعلّمون ويفتون في كثير من الأمور الفقهية التي تختلف في بعض فروعها عما كان يمارسه أهل الحجاز ، لهذا كان على الخلفاء العباسيين أن يقاربوا بين وجهات

النظر عند علماء الحجاز والعراق ، وذلك لأهميتها عند الخلفاء ، وبالتالي كانوا يسعون إلى اجتماع الطرفين والمناظرة بينهما حتى يصلوا في النهاية إلى التقارب فيما اختلفوا فيه ، وقد خفظت المصادر الكثير من تلك الاجتماعات والمناظرات التي كان يرأسها الخليفة العباسي ، وقد لا يتسع البحث لذكرها جميعاً ، وإنما نقتصر على بعض الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه ، ففي رواية ذكرها وكيع قال : قدم هارون الرشيد المدينة ومعه أبو يوسف فبعث إلى مالك : يأمرك أمير المؤمنين أن تخرج إليه فكتب إليه مالك يا أمير المؤمنين أني رجل عليل ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى بما أراد فعل ، فأراد أن يكتب له ، فقال له أبو يوسف أبعث له حتى يجيء إليك فبعث إليه فجاءه في دار مروان ، وقد هيئ لكل إنسان مجلس ، فهيئ لمالك مجلسه الذي له ، فقال أبو يوسف ما ترى في رجل حلف الا يصلي نافلة أبداً ، قال يضرب ويحبس حتى يصلي ، قال فجاء هارون ، فقال له أبو يوسف يا أمير المؤمنين إني سألت مالكاً كذا وكذا فقال كذا ، فقال له هارون وترى ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : لا، قال أبو يوسف أليس افتيتني بذلك ؟ قال بلى ولكن أبا يوسف رجل عراقي إن أفتيه يترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة وأنت لا أخاف على ذلك منك (٢١) . وفي رواية أخرى يذكر أن هارون الرشيد قدم إلى المدينة " فقعد في المسجد وقعد معه أبو يوسف وبعث إلى مالك بن أنس فجاءه وعندما دخل سلم ثم جلس ، فقال هارون لمالك اجب يعقوب أبي يوسف فيما يسألك عنه قال : مالك يا أمير

المؤمنين ليس من أهل العلم أنشدك بالله هل للرسول ﷺ وقف يأخذ منه فيجعله حيث أراد الله قال هارون : نعم ، قال : فأنشدك الله هل لعمر وقف قال اللهم نعم قال : فهذا يزعم أن الوقف باطل فالتفت هارون إلى أبي يوسف مغضباً ، فقال ما تقول ، قال كان صاحبنا لا يراه وأنا أراه (٢٢) " ويقصد بصاحبنا هنا الإمام أبا حنيفة .

وكلما كان يسعى إليه الخليفة هارون الرشيد وغيره من خلفاء ذلك العصر هو تقريب وجهات النظر بين علماء المذهب المالكي وعلماء المذهب الحنفي ، ولذلك كان كثيراً ما يحصل لقاء بين الطرفين يتسم بالنقاش الحاد بل ويصل في بعض الأحيان إلى عدم موافقة أراء بعضهم لبعض ، لكن هذا كان في الجوانب الفرعية التي لا تؤثر على الأصول ولا جوهر العقيدة والفقه الإسلامي ، ومن يتوسع في البحث والدراسة لأراء الفقهاء في أواخر العصر العباس الأول وما تلاه من عهود يجد أن الحدة التي كانت بين علماء المذهبين قد تقاربت وأصبحت تصب في معين واحد ، وذلك فيما تمثل في مذهب الإمام الشافعي — في العقود التالية لعهدي الإمام مالك بن أنس والقاضي يعقوب أبي يوسف وغيرهما ، ولا يمكن إغفال المجهودات التي كان يقوم بها خلفاء وأمراء بني العباس الأوائل من أجل التقريب بين الطرفين فيما كانوا يختلفون فيه .

وخلاصة القول أن العلماء في الحجاز كان لهم دور بارز وملموس خلال العصر العباسي الأول ، ولم يكن تأثيره مقتصراً على شؤون الحياة

السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية في بلاد الحجاز، وإنما تأثيرهم كان أيضاً يمتد إلى خلفاء وأمراء بن العباس في العراق، بل كانت هناك صلات وطيدة وقوية بين الخلفاء العباسين الأوائل وبين علماء وفقهاء الحجاز ويظهر جلياً من الروايات والأخبار الواردة في ثنايا هذا البحث .

الهوامش والتعليقات

١ـ أنظر أبا يوسف يعقوب الفسوي ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العُمري (بغداد ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) جـ١ ، ص٦٦٩ وما بعدها .

٢ـ شمس الدين أبو العباس بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، ١٩٦٨م) جـ٤ ص١٨٣ .

٣ـ أنظر أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك (الرباط ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص٩٨ .

٤ـ من يتابع الأحداث التاريخية في الحجاز خلال عهد الخليفة العباسي المنصور فسيجد أن أهل المدينة والأعراب الذين كانوا يسكنون خارج أرض المدينة قد انضموا مع الثائر العلوي محمد النفس الزكية عام (١٤٥هـ/٧٦٢م) ضد الخليفة العباسي ، لكن مصير أولئك الثوار كان الفشل عندما أرسل المنصور قوات عباسية من بغداد فقضت على العلويين ومن ثار معهم من أهل الحجاز ، للمزيد من التفصيلات أنظر: أبا جعفر محمد ابن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة ، ١٩٦٠م) جـ٧ ، ص٥٣٩ وما بعدها .

٥ـ شهاب الدين ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، (القاهرة ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) جـ١ ، ص١٠٧ـ١٠٨ .

٦ـ أبو عبد الله محمد بن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني (بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م) جـ٢ ، ص١٥٠ .

٧ـ للمزيد من المعلومات حول اهتمام الخليفة المهدي باهل الحجاز ، خصوصاً العلماء والفقهاء ، أنظر ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص١٠١ـ١٠٢ ، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥١ـ١٥٢ ،

غيثان بن علي بن جريس " أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز " (١٥٨هـ / ٧٧٤م / ١٦٩هـ / ٧٨٥م) مجلة الدارة ، العدد (٤) السنة (١٦) ١٤١١هـ ص١١٣ــ١٢٩ .

٨ـ ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص٩٩ــ١٠٠ .

٩ـ للمزيد من التوضيح حول تاريخ الكعبة أنظر : أبا الوليد محمد الأزرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي ملحس ، (مكة المكرمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ١ ، ص٢٥٨ــ٢٠١ وما بعدها .

١٠ـ إسماعيل بن علي بن كثير ، البداية والنهاية ، (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ١ ، ١٣٢ .

١١ـ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٦٩م) جـ٣ ، ص٧٢ . ابن عياض، ترتيب المدارك ج٢ ، ص١٠٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ج١٠ ، ص١٣٢

١٢ـ قطب الدين النهروالي ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، (بيروت ، ١٩٦٤م) ص١٠٣ ، أنظر أيضاً غيثان بن علي بن جريس " أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز " ص١١٣ وما بعدها .

١٣ـ عبد الملك بن حسين العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (القاهرة ، ١٣٨٠هـ) جـ٣ ، ص٢٩٧ــ٢٩٨ .

١٤ـ للمزيد من التوضيحات ، أنظر مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ، ص٩٨ ، ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص١٩ ، القاضي الرشيد بن الزبير ، الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله (الكويت ، ١٩٥٩م (ص٢٢٣ .

١٥ـ ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

١٦ـ المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٥٧ .

١٧ـ سورة النساء ، آية ٥٩ .

١٨ـ ومن الفتن التي ظهرت في الحجاز أثناء عهد المنصور ثورة العلويين في عهد محمد النفس الزكية ، كما أشرنا سابقاً ، وأيضاً ثورات بعض القبائل العربية في داخل المدينة وخارجها ، إلى جانب ظهور بعض الاضطرابات من قبل العبيد في المدينة المنورة ، للمزيد من التفصيل أنظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ، ص٥٣٠ وما بعدها .

١٩ـ انظر الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ، ص٢٤٠ وما بعدها ، عز الدين أبا الحسن بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، (بيروت ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) جـ٦ ، ص١٧٣ .

٢٠ـ المصدر نفسه ، جـ٦ ، ص٢٦٦ .

٢١ـ وكيع أبو محمد بن خلف بن حيان ، أخبار القضاة ، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي (القاهرة ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م) جـ٣ ، ص٢٥٩ـ٢٦٠ .

٢٢ـ المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

الدراسة الرابعة

ورقات من تاريخ المدينة المنورة

خلال السنين الأولى من حكم بني العباس

(١٣٢ — ١٦٩ هـ / ٧٤٩ — ٧٨٥ م)[*]

[*] بحث منشور في مجلة المنهل ، (العدد السنوي الخاص) عدد (٤٩٩) مج (٥٤) الربيعان (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ص١١٢-١٢٠ .



ورقات من تاريخ المدينة المنورة
خلال السنين الأولى من حكم العباس
(١٣٢—١٦٩هـ/ ٧٤٩—٧٨٥م)

المدينة المنورة أول عاصمة إسلامية ، وأول قاعدة عسكرية اتخذها الرسول ﷺ، واستمرت من بعده في عهد الخلفاء الراشدين ، يفد إليها المسلمون على اختلاف فئاتهم ، لأنها العاصمة ، ومقر لجميع المؤسسات الإدارية ، وقبيل ظهور الدولة الأموية ، وفي عهد الخليفة الراشد ، علي بن أبي طالب ، انتقلت العاصمة السياسية إلى مدينة الكوفة في العراق.

ولما أعتلى الأمويون سدة الحكم من سنة (٤٠ – ١٣٢هـ /٦٦٠–٧٤٩م)، اتخذوا مدينة دمشق في بلاد الشام عاصمة لهم ، ثم جاءت دولة بني العباس، وأسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد في العراق واتخذها عاصمة للعباسيين. وبهذا السلوك السياسي الذي ظهر منذ عهد الخليفة علي بن أبي طالب، أصبحت المدينة المنورة في المفهوم السياسي ، مدينة مثل بقية مدن الحجاز الأخرى، لولا أن منّ الله عليها بهجرة الرسول الكريم ﷺ، وبنائه المسجد فيها، وبقائه هو وأصحابه حتى توفاهم الله ، ودفنوا فيها و إلا ضّاع مركزها. ونتيجة لذلك حرص كل خليفة على بسط سلطانه على المدينة المنورة والكعبة المشرفة ، في مكة المكرمة ، وأخذ كل واحد منهم يقاتل من يقف دون تحقيق رغبته . ولذا وقعت فتن وحروب كثيرة بين الطامعين

فيها وبمكة المكرمة، نظراً لمكانتها المقدسة عند المسلمين . ومن هذا المنطلق سلك خلفاء بني العباس مسلك غيرهم في بذل جهدهم ، بجعل الحجاز (المدينة المنورة ومكة المكرمة) تحت نفوذهم . ولهذا سنعالج في هذه الورقات فترة الحكم للخلفاء الثلاثة الأوائل من بني العباس. السفاح (١٣٢–١٣٦هـ/٧٤٩–٧٥٣م). المنصور (١٣٦– ١٥٨هـ/٧٥٣–٧٧٤م). والمهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ/٧٧٤–٧٨٥م) مركزين على الأوضاع السياسية للمدينة المنورة في عهدهم ، ثم كيفية تعامل كل واحد من أولئك الخلفاء مع أهل المدينة في ضوء الحياة السياسية .

فالخليفة العباسي الأول الملقب بالسفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ/٧٤٩–٧٥٣م)، عمل في بادئ الأمر على إظهار سلطانه في بلاد العراق ، ثم أرسل الأمراء من قبله إلى ولايات متعددة من البلاد الإسلامية ، وكان الذي فاز بولاية المدينة المنورة ، أو منطقة الحجاز بشكل عام ، هو عمه داود بن علي العباسي (١) ، حيث أرسله وأوصاه بالحذر والحيطة تجاه أهل المدينة المنورة والسبب في هذه الوصية هو خوف السفاح من بعض العلويين الذين كانوا قد استوطنوا المدينة، وخاصة عبد الله بن الحسن الملقب (بالمحض) ، وولداه محمد (الملقب بالنفس الزكية) وإبراهيم ، وجميع هؤلاء كانوا من أكثر العلويين ميلاً للسياسة، والأهم من ذلك يقينهم أنهم أحق من العباسيين في الخلافة (٢) ، ولم يكن الخليفة السفاح وأميره في المدينة المنورة ، داود بن علي العباسي، غافلين عن نوايا وتطلعات عبد الله بن الحسن وأولاده في

لمدينة ، فكان يراقبان تحركاتهم وأنشطتهم مع أهل المدينة وغيرهم ، بل استخدم الخليفة السفاح أسلوب الملاينة واللطف معهم ومع بعض أفراد أهل بيتهم ، فكان يودهم ، ويتقرب منهم ، ويدعوهم لزيارته في العراق ، إلى جانب إغداقه الأموال الطائلة والهدايا ، وإقطاعهم الإقطاعات الزراعية الكثيرة من أراضي المدينة المنورة وغيرها من الأراضي المجاورة لها كسباً لرضاهم واتقاء لفتنهم (٣) .

وعندما جاء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ/٧٥٣–٧٧٤م) ، تبدل الأمر ، وتغيرت لسياسة التي كان يسلكها الخليفة السابق تجاه أهل المدينة ، فلجأ إلى استخدام العنف والشدة بدلاً من اللين والمسايرة مع عبد الله بن الحسن وولديه ، ومع جميع العلويين والمتعاطفين معهم من أهل المدينة المنورة (٤) .

وكان الخليفة المنصور عندما يذهب إلى الحج ، ثم يأتي إلى لمدينة المنورة يأمر جميع العلويين بالحضور إلى مجلسه ليتأكد من ولائهم له ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، وإنما يأمر بحضور من يشك في أمره ، وقد يسأل عن شخصيات معينة يفتقدها في مجلسه ، مثلما حدث أثناء زيارته عام(١٤٠هـ/٧٥٧م) عندما لم ير محمد النفس الزكية وإبراهيم ، ولدي عبد الله بن الحسن ، فطلب والدهما ، ولما حضر سأل عنهما ، فأبدى عبد الله بعض الأعذار متلمساً لولديه العذر من الخليفة راجياً عدم غضبه منهما(٥). ومن شدة إرتياب الخليفة المنصور من أهل المدينة المنورة أرسل بعض

الجواسيس إلى المدينة المنورة على هيئة تجار أو موظفين في الدولة ، أو سدنة يعملون في المسجد لنبوي ، لكي يدونوا له ملاحظاتهم عن أهلها ، وخاصة العلويين ومواليهم والمتعاطفين معهم (٦) . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان يبحث عن الأمراء القادرين على ضبط المدينة وأهلها وجعلها تحت حكمه (٧) .

وفي ظل هذه السياسة ، لم يستطع العلويون ومن ساندهم من أهل المدينة أن يقفوا مكتوفي الأيدي ، وإنما صاروا يخططون بشكل جاد للقيام بالثورة ضد الخليفة المنصور ، وعندما أحس المنصور بخطورتهم ، أمر بترحيل عبد الله بن الحسن وعدداً من أهل بيته من المدينة إلى بغداد ، في حين أن محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم هربا عندما سمعا الخبر، ونجيا من الوقوع في يد المنصور ، الذي قام بمعاقبة كل من حضر من العلويين حتى الموت . فقام محمد النفس الزكية بتأليب أهل المدينة ومن حولها ، ثم الثورة ضد الخليفة المنصور سنة (١٤٥هـ/٧٦٢م) (٨) ، والغريب في الأمر أن الخليفة عندما علم ما قام به محمد النفس الزكية، لم يكن يتفاعل بشكل سريع فيرسل له من يحاربه ، وإنما تريث بعض الوقت، حتى ينجلي الموقف ، ويعرف غرض النفس الزكية الذي أرسل له رسالة مطولة يذكر له فيها أحقية نسل علي بن أبي طالب بالخلافة ، لمواقفه في الدفاع عن الإسلام ، وتفانيه في خدمته ولكونه أول من أسلم دون أن يسجد لصنم، ثم استطرد يعدد مناقب الطالبيين ، ويبرز مثالب العباسيين وأجدادهم، وفي

نهاية الرسالة يطالب الخليفة بالتنازل عن الخلافة وتركها لأهلها من العلويين ، فرد المنصور على تلك الرسالة برسالة مطولة نقض فيها حجج محمد النفس الزكية ، مشير إلى أحقية بني العباس بها ، مستنداً على العديد من المبررات التي دفعته لإرسال جيش يبلغ عدده أربعة آلاف جندي(٩)، بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى العباسي ، فصار حتى قدم إلى المدينة، وحارب النفس الزكية ، مستعيناً بما انضم إليه من القبائل القاطنة في المدينة المنورة ومن حولها ، ونتج عن ذلك قتل محمد النفس الزكية ، ومطاردة فلول جيشه ومناصريه من القبائل (١٠) . ولم يتورع الخليفة المنصور بعد قضائه على محمد النفس الزكية من معاقبة كل من ساعد العلويين من أهل المدينة على القيام بثورتهم ، حيث تذكر بعض الروايات التاريخية أنه أرسل واليه جعفر بن سليمان العباسي إلى المدينة المنورة ليقبض على كل من ساعد محمد من القرشيين فيضعه في السجن ، أما من ثبتت إدانته من الموالي فتقطع يده عقاباً له على مناصرته للعلويين ضد الخليفة وسلطانه(١١)، أما القبائل العربية التي انضم أغلبها إلى العلويين ، فلم يسلموا هم الآخرون من عقاب أبي جعفر المنصور ، الذي أمر بجمع أربعمائة من أعيان قبائل مزينة وجهينة مع بعض العلويين ، ثم أنزل بهم العقاب الجماعي الذي كان متنوعاً في أساليبه، منهم من سجن ومنهم من ضرب حتى الموت(١٢).

ولم يسلم بعض رجال العلم والفقه والحديث من عقاب الخليفة المنصور ، وأكبر دليل ما ذكرت المصادر التاريخية عن حادثة فتوى الإمام مالك ، عندما جاءه بعض أهل المدينة قبل ثورة محمد النفس الزكية ، يستفتونه في حكم البيعة التي أعطوها للخليفة المنصور تحت الضغط والإكراه ، فأخبرهم أنه لا بيعة تحت إكراه ، فأخذ بعض أهل المدينة بتلك الفتوى التي رأوا فيها مخرجاً لحلهم من بيعة المنصور ، ولانضمامهم لمحمد النفس الزكية (١٣) ، وعندما انتصر جيش المنصور على العلويين ، ثم جاء جعفر بن سليمان العباسي أوقع العقاب بالإمام مالك بسبب فتواه ، فتذكر بعض الروايات أنه ضُرب سبعين سوطاً ، وعُذب حتى خلعت يده من كتفه ، فبقي معاقاً طوال حياته (١٤) .

وما قام به الخليفة المنصور أو واليه في المدينة المنورة ضد العلويين ليس بالأمر الخفي حيث إن الوضع السياسي يحتم عليه وعلى ممثليه في المدينة وغيرها أن يحافظوا على كيان الدولة الناهضة ويقمعوا جميع الثورات التي تظهر ضدهم سواء أكانوا من قبيلة قريش أم غيرها . وتذكر المصادر الأولية أن الذي أخذ القرار والتنفيذ بضرب الإمام مالك هو أمير المدينة جعفر بن سليمان دون علم الخليفة المنصور ، بل وتذهب الروايات إلى أبعد من ذلك في أن الخليفة عندما سمع بما فعل جعفر لمالك ذهب إلى المدينة المنورة ، وعزل جعفر من الإمارة ، ثم استسمح الإمام مالك موضحاً له انه لا علم له بما فعل ، جعفر بن سليمان ، ولم يكن لديه علم بما أنزل به

من عقوبة ، ثم قال له " إن رأبك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة ، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك ، أو ذات غيرك ، أو سؤ سيرة في الرعية ، فاكتب لي بذلك ، أنزل بهم ما يستحقون ، وقد كتبت إلى عمالي بهذا ، أن يسمعوا منك ويطيعوا كل ما يعهد إليهم ، فأنههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك ، وأنت حقيق أن يطاع أمرك ويسمع منك (١٥) ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل من المعقول أن يقوم جعفر بن سليمان بضرب الإمام مالك ومعاقبته دون علم الخليفة المنصور ، وللإجابة على هذا السؤال، فإنه من المستبعد صحة كل ما قيل ، ولا يمكن أن يقدم جعفر بن سليمان على عمله فيما يتعلق بمالك إلا بإشارة من الخليفة والأدلة التي تجعلنا نجزم بأن الخليفة هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في ضرب مالك عديدة ومن أهمها :

أ - أن ما سطرته المصادر الأساسية عن حنكة وسياسة الخليفة المنصور تشير إلى أنه ذلك الرجل القوي الذي كان قابضاً على زمام أمور الدولة بيد من حديد ، وبهذا فإنه ليس من السهل في أن يتصرف جعفر بن سلمان دون علمه خصوصاً في ضرب إمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي ، مالك بن أنس، وفي حالة أن نلقي نظرة أيضاً على سياسة المنصور تجاه مراقبة الأوضاع في المدينة ومتابعة سير الأمراء الذين كان يرسلهم لضبط البلاد نستطيع أن نعرف مدى سيطرته على

البلاد ومدى مركزيته في حكم الأجزاء البعيدة عن مقر الخلافة في العراق (١٦) .

ب - أن جعفر بن سليمان لم ينزل العقاب بالقرشيين والموالي الذين ساندوا العلويين حتى جاءه الأمر من المنصور في أن ينفذ أمر العقاب عليهم فيسجن القرشيين ويقطع أيدي الموالي (١٧) ، وهذا الأمر دليل على أن جعفر لم يضرب مالكاً إلا بإشارة من الخليفة .

ج - أَن عزل جعفر بن سليمان من منصبه كونه أَميراً للمدينة مقابل ضربه لم يكن في اعتقادي إلا صورة من صور سياسة المنصور ، و إلا لماذا أُعطي إمارة الحجاز في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ /٧٧٤–٧٨٥م) الذي لا يستبعد أن يكون تعيينه بناء على وصية والده ، الذي ثبت له إخلاصه في ضربه الإمام مالك(١٨).

د - أيضاً أن من يتابع الفترة الزمنية التي أعطى فيها الإمام مالك فتواه كانت في منتصف عام (١٤٥هـ / ٧٦٢م) مع أن جعفر بن سليمان لم يعين أميراً على المدينة إلا في ربيع الأول من عام (١٤٦هـ / ٧٦٣م) وهذه الفترة الزمنية تكون كافية للخليفة المنصور وجعفر بن سليمان في أن يحيكا الخطة في ضرب مالك ، وبالتالي يذهب الخليفة ليستأذن من مالك فيما

حل به ثم يعزل الأمير وبهذا يكون قد ظهر أمام الرأي العام أنه يحترم ويجل العلماء ويدافع عنهم هادفاً إلى إظهار نفسه بالمدافع عن رجال العلم ليكسب رضا الناس وبالتالي الاستقرار ، ولهذا قام بالالتقاء بمالك وطلب منه الصفح وأخبره أن ما جرى له من ضرب وإهانة لا علم له به .

وكون الخليفة المنصور كان صارماً وقوياً على الثوار ومن ساندهم ، إلا أن المصادر التاريخية لم تنس بعض الجوانب الإيجابية التي قدمها لأهل المدينة . فيذكر أنه ذهب للحج ست مرات ، وفي كل مرة يذهب للمدينة فيلتقي بعلية القوم فيها فيسمع منهم ، ويتفقد أحوالهم ، ثم يوزع عليهم الكثير من الأعطيات والأرزاق المتنوعة (١٩) . وقد أشارت بعض المصادر المبكرة إلى أن المنصور ذهب إلى المدينة عام (١٤٠هـ /٧٥٧م) فوزع على أهلها أعطيات حسنة ، إلا أن أشراف قريش نالوا نصيب الأسد من تلك الأعطيات دون أن تذكر مقادير ذلك العطاء ، إلا أنه شمل أيضاً نساء قريش حيث ذكر أن بعضهن حصلن على صحائف من الذهب والفضة مع كساوي جيدة (٢٠) ، والمشكلة الظاهرة على هذه الأعطيات أنها لأهل المدينة وليست أيضاً لجميعهم ، وإنما كانت غالباً لعلية القوم من القرشيين ، وهذا العمل ربما كان سياسة من الخليفة في أن يكسب بعض الشخصيات الهامة في المدينة المنورة لتكون عوناً له على العلويين ومن ساندهم ، أو ربما كان يسعى إلى شراء قلوب أعيان المجتمع حتى لا يثوروا عليه ويساعدوا الثوار ضده .

ومن أعطيات وهدايا الخليفة المنصور ما أشار إليه الفسوي عندما ذهب الخليفة إلى الحج عام (١٥٢هـ/٧٦٩م)، وقيامه بتوزيع مقادير كثيرة من الأموال والهدايا على أهل المدينة ، ومع أن الفسوي هو المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الأعطيات والهدايا دون أن يعطي توضيحاً أكثر عن كميات ومقدار تلك الهبات ، أو من حصل عليها من سكان المدينة (٢١) . أيضاً كان للخليفة المنصور بعض الأعمال الخيرية التي تشمل بعض أفراد المدينة المحتاجين ، فيذكر النويري أنه أمر واليه في المدينة ، زياد بن عبيد الله الحارثي ، أن يحرص على زيارة كبار السن والمعوزين من الرجال والنساء، وإعطائهم ما يحتاجون من كساء وغذاء، بل وأمره أن يوزع بعض الأعطيات على النساء الأرامل والأيتام والعميان في جميع نواحي مدينة الرسول ﷺ(٢٢).

وكان يتقرب الخليفة المنصور من علماء المدينة، وبخاصة الإمام مالك، فعندما يذهب إلى الحجاز يحرص على مقابلته، وقضاء حوائجه، بل ويطلب منه القيام ببعض الأعمال الدينية ، ومما يؤكد ذلك أنه طلب منه إحدى المرات أن يضع منهاجاً لإدارة الدولة يقوم على أسس دينية سليمة حيث قال : " يا أبا عبد الله ضع هذا العلم – يقصد علم الإمام مالك – ودونه ودون فيه كتباً وتجنب شدايد عبد الله بن عمرو ورخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى أوسط الأمور، وما اجتمع عليه أئمة الصحابة - رضي الله عنهم - لنحمل الناس على علمك وكتبك ونبثها في الأمصار (٢٣)".

ومن بعد الخليفة المنصور جاء ولده الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م)، فلم يكن يقابل مثل المشكلات والثورة التي قابلها سلفه من قبل ، وإنما على العكس من ذلك فقد وجد حكماً مهيئاً لأن يتخذ سياسة مغايرة لمن سبقه ، فلم تكن هناك صطدامات أو حروب عسكرية تجعله يسعى إلى المساهمة فيها ، ولم تكن هناك ثورات يقوم بالتصدي لأصحابها ، وإنما كان عليه أن يقوم ببعض المساهمات الحضارية التي يصون بها أوضاع دولته، وكان من ضمن المساهمات التي اتخذها النظر لأهل المدينة المنورة من حيث المكان والسكان فعمل على التقرب منهم عن طريق العطايا والهبات، وكذلك اقام بعض المشاريع العمرانية ، والإصلاحات الاجتماعية. فعندما تولى المهدي الخلافة عام(١٥٨هـ/٧٧٤م)، ولى المغيرة بن خبيب الزبيري مهمة توزيع بعض الأعطيات والهدايا على أهل المدينة ، ويذكر أنه زاده ألف فريضة يفرضها لمن شاء من سكان المدينة (٢٤) . ولم يكن يتوقف الخليفة المهدي عند الأعمال التي سبق ذكرها ، وإنما أعطى بعض أهالي المدينة الاقطاعات الزراعية ، فيذكر أنه أقطع الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوي مالاً من ديوان الصوائف بالمدينة المنورة ، كما تشير بعض الروايات إلى أنه أعطى المغيرة بن خبيب الزبيري عيوناً وأرضاً زراعية ببعض نواحي المدينة (٢٥) . ثم إنه لم يقتصر في أعطياته على الأراضي الزراعية والعيون وما شابهها ، وإنما كان أيضاً يدفع المبالغ الكثيرة لمن يأتيه إلى العراق من عرب المدينة المنورة، فتذكر بعض الروايات أنه استقبل في

إحدى المرات الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب فأكرمه وأحسن وفادته ، ثم أعطاه مبلغاً قدره أربعون ألف دينار(٢٦). ومثل هذه التصرفات من الخليفة المهدي ربما تكون عائدة إلى طبعه وحبه للخير، وربما تكون عائدة إلى علاقته مع بعض رجال المدينة المنورة كالمغيرة الزبيري، حيث يذكر أن علاقته به كانت قوية، ولكن لا بد أن تصرفاته، أيضاً، مع بعض رجال العلويين على وجه الخصوص، كانت قائمة على مبدأ سياسي حيث كان يهدف إلى أن يحتوي المعارضين، ويستبدل غضبهم بالمحبة بإعطائهم الهدايا، ويظهر جلياً فيما قدمه لكل من الحسن ابن إبراهيم، والحسين بن علي من العلويين (٢٧) .

وفي عام (١٦٠هـ/٧٧٦م) حج الخليفة المهدي ، ثم وزع أموالاً كثيرة على سكان المدينة ، ويشير الطبري إلى تلك الأموال فيذكر أن الخليفة أحضر معه من العراق ثلاثين مليون درهم ومائة وخمسين ألف ثوب ، وجاءه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار من اليمن ، فوزع أكثرها على سكان المدينة ومن حولها (٢٨) ، وكون الطبري يذكر هذه الرواية ، فهو لم يوضح لنا طريقة توزيعها ، ولا مقدار العطاء لكل فرد أو أسرة في المدينة ، مع أن الأرقام المشار إليها خيالية في مقاديرها ، ولكن لم يكن الطبري هو الوحيد الذي أشار إليها ، وإنما جاء بعده عدد من المؤرخين فأشاروا إلى توزيع تلك الأموال على أهل الحجاز ، وخاصة سكان المدينة المنورة (٢٩) .

ولم تكن أعمال الخليفة المهدي مقتصرة على توزيع المال والثياب على أهل المدينة في سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م)، وإنما بعض المصادر التاريخية المبكرة تذكر أن في تلك السنة نفسها أمر الخليفة ببناء بيوت للعجزة والمرضى في جميع أنحاء المدينة المنورة ، وأجزل العطايا والهبات إلى كل المرضى والمجذومين بها (٣٠) ، وأمر أيضاً بتصدير الحبوب ، وبخاصة القمح من مصر إلى أهل المدينة المنورة ، بعد أن كان قد قطعه عنهم أثناء مساندتهم لثورة محمد النفس الزكية في عهد والده (٣١) ، ولأن المهدى كان يدرك أن تصدير الحبوب من مصر إلى المدينة كان لا يسد حاجة سكانها ، فأمر بنهر الصلة من مدينة واسط من العراق أن يُعمّر وتزرع الأراضي من حوله ثم يرسل خمسي الإنتاج من محصوله إلى أهل المدينة ، وأن تكون هبة سارية المفعول لمدة خمسين سنة(٣٢). ومن يلق نظرة على قائمة الخراج التي أوردها ابن قدامة، في كتابه الخراج ، عام (٢٠٤هـ/٨١٩م) يجد أن مقادير محاصيل نهر الصلة كانت ألف كر من الحنطة، (٣١٢١) كر من الشعير، (٥٩٠٠٠) درهم، وبهذا لو حاولنا معرفة ما كان يرسل إلى أهالي المدينة وعلى ضوء السياسة التي رسمها المهدي فإننا نجد نصيبهم كالآتي (٣٣) :

١٠٠٠ X $\frac{٢}{٥}$ = ٤٠٠ كر من الحنطة .
٣١٢١ X $\frac{٢}{٥}$ = ١٢٤٨,٤ كر من الشعير .
٥٩٠٠٠ X $\frac{٢}{٥}$ = ٢٣٦٠٠ درهم .

واستمرت أعمال الخليفة المهدي تجاه أهل المدينة ، إذ لم يتوقف عند زيارته لها في عام (١٦٠هـ/٧٧٦م) إنما كرر الزيارة في عام (١٦٤هـ/٧٨٠م) وأنفق أموالا طائلة على أغلب سكان المدينة ، فيذكر لنا ابن بكار ما حدث معه أثناء ذهابه إلى المدينة في تلك السنة ، فبعد وصوله إليها اجتمع بأعيان قريش وفقهاء وعلماء المدينة ، ثم أمر أحد أصحابه ، وهو المغيرة بن خبيب الزبيري ، أن يوزع أموالاً كثيرة عليهم حتى " أصاب مشيخة بني هاشم؛ أكثرهم نال خمسة وستون ديناراً ، وأقلهم خمسة واربعين ديناراً ، ومشيخة القرشيين؛ أكثرهم خمسة وأربعين ديناراً ، وأقل القرشيين سبعة وعشرين ديناراً ، ومشيخة الأنصار؛ أكثرهم سبعة وعشرين ديناراً ، وأقل الأنصار سبعة عشر ديناراً ، والعرب أكثر من الموالي ، ومشيخة الموالي خمسة عشر ديناراً " (٣٤).

ومن هذا النص الذي أورده ابن بكار ، نستنتج أن الخليفة وزع تلك الأموال على مستوى القرابة من أهل بيته ، إذ كان بنو هاشم ثم القرشيون هم من الأوائل في الحصول على النصيب الأكبر من تلك التوزيعات ، ومع أننا لا نعلم المجموع الكلي الذي تم توزيعه ، إلا أنه بالتأكيد كان كثيراً جداً لأن ابن بكار نفسه ختم حديثه بذكر عدد الذين استفادوا من تلك الأموال في المدينة المنورة وما حولها ، فقال : إن عددهم يزيد على الثمانين ألف شخص (٣٥) .

ومن جانب يتضح لنا أن الخليفة المهدي كان يعير أهل المدينة كل الاهتمام ، فلم يكن يكتفي بتلك المبالغ التي ذكر ابن بكار أنه وزعها سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م) ، وإنما هناك صورة أخرى يرويها لنا ابن قتيبة فيذكر أنه في سنة (١٦٧هـ/٧٨٣م) تم الالتقاء بين الخليفة المهدي وإمام دار الهجرة مالك بن أنس ، فكان الأخير قد أوصى الخليفة المهدي أن يكون جواداً كريماً على أهل الحجاز وخاصة أهل المدينة ، ثم ذكره بالحاجة الماسة التي هم فيها من ضيق العيش ، مع تذكيره بأنهم أهل مدينة رسول الله ﷺ، فلم يكن رد الخليفة عليه إلا أن " قال صدقت فيهم وبررت ، وحضضت على الرشد، فأنت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك ، فأمر له بخمسة أبيات مال ، البيت عندهم خمسمائة ألف ، وأمر مالكاً أن يختار من تلاميذه رجالاً يثق بهم ويعتمد عليهم يقسمونه على أهل المدينة (٣٦) .

ومن يقف عند النصين اللذين ذكرهما كل من ابن بكار وابن قيبة أثناء زيارة الخليفة المهدي للحجاز في عامي (١٦٤هـ/ ٧٨٠م) و (١٦٧هـ/٧٨٣م) يجد أن الأعطيات التي أعطاها الخليفة لم تكن إلا على أهل المدينة دون أن يظهر أي ذكر لأهالي المدن الأخرى في أرض الحجاز، ولهذا فإن هناك أكثر من احتمال في أن المصادر الأولية أغفلت ذكر هباته وأعطياته تجاه أهل مكة والطائف وجدة وغيرها من المدن ، أو أنها لم تهمله لأنه لم يكن يعطيهم شيئاً؛ وإنما أعطى أهل المدينة لأهداف سياسية ، وخصوصاً بعد تذكر تلك المواقف التي وقفها أهل المدينة في عهد والده ولأن من كان يترأس الثوارث

في عهد محمد النفس الزكية هم سكان وقبائل المدينة ، ثم لوجود الإمام مالك الذي كان الخليفة المهدي يكن له كل تقدير واحترام ، كل هذه الأمور جعلت الخليفة يسلك سياسة الحنكة والدهاء وذلك بإعطاء الأعطيات السخية لأهل المدينة بصفتهم يشكلون عليه خطراً وقد يثورون ضده كما ثاروا مع محمد النفس الزكية ضد والده من قبله ، وبهذا رأى أنه من الأحسن شراء قلوبهم بتلك الأموال التي يوزعها عليهم وفعلاً هذا ما كان يتطلع إليه وقد نجح في سياسته ، فلم نجد أي مصدر تاريخي يذكر قيام أي حركة أو ثورة سياسية من قبل أهل المدينة في عهده .

ولم يكن الخليفة المهدي يُقصّر في يوم ما عن اتصاله بعلية القوم في المدينة ، وبخاصة الفقهاء والعلماء الذين كان يتزعمهم إمام دار الهجرة، الإمام مالك بن أنس ، فكان كلما ذهب إلى المدينة المنورة يحرص على الالتقاء بهم ومشاورتهم في العديد من الأمور ، فتذكر بعض المصادر أنه أراد هدم الكعبة وإعادة بنائها إلى ما كانت عليه في عهد عبد الله بن الزبير (٣٧)، واستشار في ذلك علماء المدينة ، فقال له الإمام مالك " دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها الخليفة (٣٨) " نزولاً عند رأي الإمام ، وفي رواية أخرى ، أن الخليفة المهدي استشار فقهاء المدينة المنورة في نقض منبر الرسول ﷺ وإعادة صنعه ، فقال الإمام مالك ، إن هذا المنبر مصنوع من خشب الطرفاء ، وأنه يخاف عندما ينقض أن ينكسر ولا يصلح مرة أخرى ، فتركه الخليفة بعد مشورة الإمام مالك .

وقد اهتم الخليفة المهدي ببعض الإصلاحات والمشاريع الخيرية في المدينة المنورة ، ففي عام (١٦٢هـ/٧٧٨م) عمل على توسعة المسجد النبوي ، وأعطى واليه على المدينة ، جعفر بن سليمان العباسي ، صلاحية الإشراف العام على تنفيذ تلك التوسعة ، ويصف لنا ابن النجار الخطوات التي اتبعها جعفر في تنفيذ رغبة الخليفة المهدي ، وذلك بذكر كتابة نقشها جعفر بن سليمان في صحن المسجد ، بعد الانتهاء من العمل كان قد ابتدأها بالبسملة والحمد ثم الدعاء للخليفة المهدي الذي تولى الإنفاق على ذلك المشروع المقدس ، ثم ذكر العام الذي تمت فيه بداية تنفيذ التوسعة وذلك العام الذي انتهت فيه فيقول " وكان مبتدأ ما أمر به عبد الله المهدي ، محمد أمير المؤمنين أكرمه الله من الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ في سنة اثنين وستين ومائة ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائة ، فأمير المؤمنين أصلحه الله يحمد الله على ما أذن له واختصه به من عمارة مسجد رسول الله ﷺ وتوسعته حمداً كثيراً والحمد لله رب العالمين على كل حال (٣٩) .

وللخليفة المهدي بعض الإصلاحات العامة الأخرى ، فيذكر انه أنشاء بعض الحمامات والبرك العامة في أماكن عديدة من المدينة المنورة ، وخاصة حول المسجد النبوي ، ومن اهتماماته في تصميم الحمامات انه كان يوجد حمامات خاصة بالرجال ، وأخرى خاصة بالنساء (٤٠) .

وخلاصة القول إن خلفاء بني العباس الأوائل (السفاح والمنصور والمهدي) قد اختلفوا في مواقفهم تجاه المدينة المنورة وأهلها ، فالخليفة

السفاح ، كان يستخدم أسلوب اللين وشراء قلوب الناقمين عليه؛ لأن عبدالله بن الحسن (الملقب بعبد الله المحض) وأهل بيته كانوا من الحاقدين على البيت العباسي ، ويرى أنه أولى منهم بالخلافة ، وكان السفاح على معرفة بمخططاته لذلك كان يداهنه حتى استطاع أن يبقي على الثورة التي قام بها ولده ، محمد النفس الزكية ، في عهد الخليفة المنصور الذي جاء بعد السفاح . وتغيرت سياسة المداهنة عند المنصور فلم يكن يستخدم مع العلويين ، ومن ساندهم من قبائل المدينة ، إلا القمع والضرب والتنكيل ، وبالتالي أدى إلى ظهور ثورة محمد النفس الزكية عام (١٤٥هـ/٧٦٢م)، فاستطاع المنصور القضاء على قائد الثورة ، محمد النفس الزكية ، بل واستطاع إنزال العقوبة بكل من سانده من أهل المدينة . وبعد ذلك دانت أرض المدينة للحكم العباسي ، فلم يكن الخليفة المنصور ينساهم من بعض الصدقات والهبات ، فكان يذهب إليهم أثناء حجة ويسمع من أعيانهم وفقهائهم ، ويوزع عليهم الأعطيات ويحل مشكلاتهم . ولكن لم يكن الخليفة المنصور مثل ولده المهدي ، فلقد جاء الأخير فلم يكن أمامه عوائق ، وإنما تولى دولة مترامية الأطراف وخزانة مليئة بالأموال ن فبذل بعض الجهود الحسنة تجاه أهل المدينة ، فوزع عليهم صدقات كثيرة ، وأموال طائلة ، وقام بتوسعة المسجد النبوي ، وقدم بعض الإصلاحات الخيرية والاجتماعية تجاه الأرض والسكان في مدينة الرسول ﷺ.

الهوامش والتعليقات

١ـ حول الإمارة والأمراء في الحجاز انظر مقالنا في مجلة العصور ، عدد يناير ، عام ١٩٩٢م .

"The Governorship In The Hijaz During The Eariy Abdasid Period (132A.H – 232A.H) .PP.13-21.

٢ـ لقد واجه العلويون العديد من الصدامات العسكرية في عهد خلفاء بني أمية ، ومن أعظم تلك الصدامات ، موقعة كربلاء في عهد يزيد بن معاوية ، التي قتل فيها العديد من بيت الحسين بن علي بن أبي طالب ، ونقل من بقي حيا إلى المدينة المنورة ، وعند ظهور بني العباس بدعوتهم السرية في أواخر الحكم الأموي ، كان بعض أفراد البيت العلوي يعتقدون أن الأمر السياسي سيكون لواحد من بيتهم ، ومن ضمن أولئك الأفراد عبد الله بن الحسن وولداه محمد وإبراهيم . للمزيد من التفصيل عن العلويين والعباسيين في أواخر الحكم الأموي ، وظهور الحكم العباسي انظر : محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة ، ١٩٦٠م) جـ٧، ص٤١٢ وما بعدها ، أبا الفرج علي الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر) (بيروت ، تاريخ النشر غير معروف) ص١٧٩ وما بعدها، أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط٤ (القاهرة ، ١٩٧٠م) جـ٣، ص١٩ـ٦٢ .

٣ـ للمزيد من التفصيلات عن سياسة السفاح مع العلويين في المدينة المنورة ن انظر . أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد المحمودي (بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) جـ٣ ، ص٢٣٢، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ، ١٩٦٧م) جـ٥، ٧٤.

٤- تذكر العديد من المصادر تعاطف بعض سكان المدينة مع العلويين ومساندتهم ضد الخليفة المنصور ، بل بني العباس بشكل عام ، للمزيد من التوضيح حول هذه النقطة انظر : الطبري ، تاريخ الرسل، جـ٧ ، ص٣٠٥ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٨ وما بعدها .

٥- الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٢٢ ، البلاذري ، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٥ـ٨٦ .

٦- حول سلوك الخليفة المنصور في نظام التجسس ، وخاصة تجاه العلويين في المدينة المنورة ، انظر البلاذري، أنساب ، جـ، ٣ ، ص٨٥ـ٨٦ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥١٩ وما بعدها ، وانظر أيضاً مقالنا " صوراً من تطور نظام العيون (الاستخبارات) خلال القرون الإسلامية الأولى " جامعة عين شمس، مركز بحوث الشرق الأوسط ، سلسلة دراسات (١٩٩١م) عدد (٨٩) ص٧ـ٩ .

٧- البلاذري ، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٥ـ٨٦ ، أبو عبد الله الزبير بن بكار ، أخبار الموفقيات ، تحقيق سامي العاني (بغداد ، ١٣٩٢هـ) ص٣٦٨ ، انظر مقالنا عن الأمارة والأمراء في مجلة العصور عدد يناير ، ١٩٩٢م . ص١٣-٢١.

٨- للمزيد من التفصيل عن الثورة التي قام بها محمد النفس الزكية ضد الخليفة المنصور في المدينة . أنظر . الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٥٢ـ٦٠٩ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق ام . دي غوي (ليدن ، ١٨٦٩م) جـ٣ ، ص٣٤٩ـ٣٥١ . F. Omar . " Some Aspects Of The Abbasid Period (132 - 193A.H) Arabica, Vol . XXII (1975) pp. 170 ff ; J . Lassner . The Shaping Of The Abbasid Rule (Princeton , 1980) pp . 70 ff .

٩ـ انظر الرسائل التي تبادلها الخليفة المنصور مع محمد النفس الزكية . الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٦٦ـ٥٧١ ، فاروق عمر " الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية " مجلة العرب (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) جـ١ ص٢١ وما بعدها .

١٠ـ تشير الروايات التاريخية إلى دور قبائل بني سليم وجهينة ، ومزينة في مساندة محمد النفس الزكية ومناهضة جيش العباسيين . وللمزيد من التفصيل انظر . الطبري ، تاريخ الرسل ، ص٥٥٠ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٨ وما بعدها ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ، ص٢٣٥ .

١١ـ ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص١٨٦ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٧٩ .

١٢ـ المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص٥٥٠ ، ٥٩٠ .

١٣ـ للمزيد من التفصيل عن تلك الفتوى التي أدلى بها الإمام مالك ، انظر : الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٦٠ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ، ص٢٩٨ ، جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة ، ١٣٧١هـ) ص٢٦١ .

١٤ـ انظر ، أبا عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني (بيروت ، ١٣٧٨هـ) جـ٢ ، ص١٤٨ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص٥٦٠ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣، ص٢٩٨ .

١٥ـ انظر أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة إعلام مذهب مالك (الرباط ، ١٤٠٣هـ) جـ٢ ، ص٩٨ .

١٦ـ من الأمراء الذين أرسلهم الخليفة المنصور إلى المدينة المنورة ، زياد بن عبيد الله الحارثي ، والحسن ابن زيد ، ومحمد بن خالد القسري ، وعثمان بن رياح المرئ ، وعبد الله بن الربيع . انظر مقالنا في مجلة العصور عدد يناير ، ١٩٩٢م ص١٣-٢١.

١٧- ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص١٨٦ .

١٨- لقد ترك الخليفة أبو جعفر المنصور لولده المهدي دولة مترامية الأطرف ، خالية من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، إلى جانب أنه ترك له خزانة وافرة بالمال ، علماً أنه صادر أموالاً كثيرة من العلويين وغيرهم من الثوار في المدينة المنور إلا أنه عندما حضرته الوفاة كان قد ترك بعض النصائح لولده ، كأن يحسن إلى بعض من أساءلهم – الخليفة المنصور – وخصوصاً من القرشيين فيدفع لهم الهدايا والأعطيات ، بل ويوليهم المناصب الإدارية ، فكان جعفر بن سليمان ضمن من انطبقت عليه نصائح الخليفة المنصور .

١٩- للمزيد من المعلومات ، انظر ، أبا العباسي أحمد المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (القاهرة ، ١٩٥٥م) ص٣٦-٣٨ .

٢٠- انظر ، ابا عبد الله الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق محمدو شاكر (القاهرة، ١٣٨١هـ جـ١ ، ص٣٠٣ ، قطب الدين المكي النهروالي ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق اف وستينفلد (بيروت ، ١٩٦٤م) ص٩١ .

٢١- أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي ، كتاب المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العُمري (بغداد، ١٣٩٤هـ) ص١٣٩ .

٢٢- شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد أبي الفضل وآخرين (القاهرة ، ١٣٤٢هـ) جـ٤ ، ص١٧ .

٢٣- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥٠ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٣٩ .

٢٤- ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص١٢٤ وما بعدها ، وقد أشارت إلى هذه النقطة مصادر ومراجع أخرى، أحمد بن علي البغدادي ، بغداد ومدينة السلام (القاهرة ، ١٣٤٩هـ) جـ١٣ ، ص١٩٤.

A. S. Tritton " Notes On Muslim System Of Pension " Bulletin Of School Of Oriental & African Studies, Vol. XVI (1954) pp. 170-2.

٢٥ـ انظر ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص١٠٩ ، أبا عبد الله مصعب الزبيري ،كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي برفنسال (القاهرة ، ١٩٥٣م) أبا عبد الله بن عبد العزيز البكري ، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ، ١٣٦٤هـ) جـ١ ص١٦٦ .

٢٦ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٠٠ .

٢٧ـ ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو أن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب لم يتورع عن القيام بثورة ضد الخليفة الهادي (١٦٩ — ١٧٠هـ /٧٨٥-٧٨٦م) الذي خلف الخليفة المهدي ، وذلك لأنه لم يجد الهادي على نمط السياسة التي كان عليها المهدي ، وإنما كان شديداً على العلويين ، وخاصة في المدينة المنورة ، فثار ضده في أواخر عام (١٦٩هـ /٧٨٥م). وبهذا نستطيع القول إن الخليفة الهادي كان تقريباً مثل الخليفة المنصور حيث كان كل واحد منهما شديداً في سياسته ضد العلويين في المدينة المنورة وغيرها ، في حين أن الخليفة المهدي كان قريباً في سياسته من الخليفة السفاح ، وذلك بحبهما للمهادنة وشراء قلوب الرجال الذين يخافون منهم، بالمال وإعطاء العطايا والهبات . انظر تفصيلات أكثر . البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٠ـ٨٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص٧٤ .

٢٨ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٣٣ .

٢٩ـ أنظر في المصادر التي أشارت إلى أعطيات المهدي لأهل المدينة عام (١٦٠هـ /٧٧٦م). المطهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، (باريس ، ١٩٦١م) جـ٦ ، ص٩٦ ، إسماعيل بن علي بن كثير ،

البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ١٠ ، ص١٣٢ ، شمس الدين الذهبي ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير (القاهرة ، ١٣٦٩هـ) جـ٦ ، ص١٦٧ ، جمال الدين بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تاريخ النشر غير معروف ، جـ٢ ، ص٣٦ ، عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ بن خلدون (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ٣ ، ص٤٤٤ .

٣٠- انظر ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ٦ ، ص٩٦ ، عز الدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٣٨٥هـ) جـ٦ ، ص٥٧ .

٣١- ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص٣٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٢٦٢ .

٣٢- انظر أبا الفرج قدامة ، الخراج ، (ليدن ، ١٨٨٩م) ص٢٤١-٢٤٢ .

٣٣- انظر كتاب الخراج ، لقدامة ، ص٢٤١-٢٤٢ ، والكر هو أكبر أحجام المكائيل عند العرب ، ويعادل (١٦٥٠) غرام بالأوزان الحديثة . انظر ، محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ط٣ (القاهرة ، ١٩٦٩م) ص٣٥٥ وما بعدها .

٣٤- ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص١١٠-١١١ .

٣٥- المصدر نفسه .

٣٦- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥١ — ١٥٢ .

٣٧- للمزيد من التفصيل حول تاريخ الكعبة ، انظر . أبا الوليد محمد الازرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة ، ١٤٠٣) جـ١ ، ص١٥٧ وما بعدها ، ٢٠١ — ٢٠٣ .

٣٨- ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ١٣٢ .

٣٩ـ محمد بن محمود النجار ، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، (مكة المكرمة ، تاريخ النشر غير معروف) ص٣٧٤ = ٣٧٥ . (ملحق بآخر الجزء الثاني بكتاب شفاء الغرام للفاسي) .

٤٠ـ انظر أبا إسحاق إبراهيم الحربي ، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (الرياض ، ١٣٨٩هـ) ص٤٠٩ .



الدراسة الخامسة

الأوضاع السياسية والحضارية في الحجاز
خلال عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور
(١٣٦ – ١٥٨ هـ / ٧٥٣ – ٧٧٤ م)[*]

[*] بحث منشور ضمن سلسلة دراسات مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة ، رقم السلسلة (٩٦) (١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص١-٢٦ .



الأوضاع السياسية والحضارية في الحجاز خلال عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م)

كانت المدينة المنورة بأرض الحجاز العاصمة الأولى للدولة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن الهجري الأول ، لكن بعد خروج الخليفة علي بن أبي طالب (٣٦هـ / ٦٥٦م – ٤٠هـ / ٦٦٠م) من الحجاز ، ثم ظهور الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١هـ / ٦٦١م – ٦٠هـ ٦٧٩م) انتقلت الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق التى بقيت عاصمة للدولة الأموية لفترة تزيد عن التسعين عام (٤١هـ / ٦٦١م – ١٣٢هـ ٧٤٩م) كما ظهر من السياسيين من كان يبذل كل ما في وسعه لإرجاع عاصمة العالم الإسلامي إلى المدينة المنورة في الحجاز وكان أقوى من تزعم حركة سياسية أوشكت أن تطيح بالدولة الأموية ، هو عبد الله بن الزبير الذي حارب جيوش بني أمية وتغلب عليها في عدة معارك، لكن حنكة وسياسة الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ/٦٨٤م – ٨٦ هـ/٧٠٥م) مكنته من القضاء على ثورة ابن الزبير(١).

ولم يستمر طويلاً حكم الدولة الأموية حيث دب الضعف في كيانها مع ظهور بني العباس الذين استطاعوا أن ينتزعوا الأمر من بني أمية ، وأن يكون السفاح أول خليفة عباسي يستمر في الحكم أربع سنوات (١٣٢هـ/٧٤٩م–

١٣٦هـ/٧٥٣م)، ثم أعقبه الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٣م-١٥٨هـ/٧٧٤م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس التي حكمت ما يزيد عن خمسة قرون (١٣٢هـ / ٧٥٣م – ٦٥٦هـ ١٢٥٨م) . والذي كان له من الآثار السياسية والحضارية في جميع أجزاء الدولة الإسلامية ما يجعل العديد من المصادر الأساسية تطيل الحديث عن أعماله ، بل وتصفه بالمؤسس الأول لدولة بني العباس ، ولما كانت منطقة الحجاز جزءاً مهماً من أجزاء دولة الخلافة العباسية فإن موضوع البحث سوف يكون مركزاً على أوضاع الحجاز السياسية والحضارية في عهد المنصور ، حيث نناقش ما ظهر في الحجاز من ثورات سياسية ضد حكم الخليفة ، وكيف تم القضاء على تلك الثورات ، مع التطرق لنتائج تلك الثورات على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، ثم التعرض لما قدمه الخليفة المنصور من أعمال خيرية تجاه المجتمع الحجازي .

أ - الأوضاع السياسية :

في حقيقة الأمر أن أرض الحجاز كانت مهمة لأي خليفة من خلفاء بني أمية في الشام أو بني العباس في العراق ، لكي يبسط نفوذه عليها ، وتكون ولاية من ولاياته ، وذلك لمكانتها وأهميتها الإسلامية وكونها أراضي مقدسة وبها الحرمان الشريفان ، ففي عهد الخليفة السفاح كان من أول أعماله بعد توليه الخلافة أن أرسل عمه داود بن علي ليكون أميراً على أرض الحجاز (٢) . في حين أن الفترة التي ظهرت فيها الدولة

العباسية ، كان يسكن أرض الحجاز عدد من شخصيات البيت الطالبي الذين ينتسبون إلى كل من الحسن والحسين أولاد علي بن أبي طالب ، وكان مقرهم في مدينة الرسول ﷺ وما حولها ، ومن أهم الشخصيات الإمام جعفر الصادق ، والحسن بن زيد ، وعبد الله بن الحسن " الملقب بالمحض " وولداه محمد ، الملقب بالنفس الزكية وإبراهيم وغيرهم عدد كثير (٣) . وكان من أخطر الرجال على ظهور الدولة العباسية هو عبد الله بن الحسن وولداه النفس الزكية وإبراهيم ، لأنهم من أول وهلة أظهروا عدم رضاهم بأن تكون الخلافة في أبناء عمومتهم من بني العباس، وذلك لاعتقادهم أنهم قد خُدعوا أثناء الدعوة السرية لإسقاط الدولة الأموية ، في أن الدعوة كانت قد أنشئت ببعض أفراد البيت الطالبي ، ثم انتقلت إلى البيت العباسي فبقوا يدعون سراً لرجل من آل البيت دون أن يفصحوا لأبناء عمومتهم من الطالبيين في أن الخلافة ستكون في رجل من البيت العباسي ، وليس من البيت الطالبي ، علماً أن العديد من أفراد البيت الطالبي كانوا يظنون أن الخلافة ستكون فيهم ومن هؤلاء الأفراد عبد الله بن الحسن وولداه (٤) . ولهذا قاموا بإعداد العدة والاستعداد للثورة ضد العباسيين منذ أعلن بنو العباس خلافتهم بزعامة أبي العباس ، عبد الله السفاح ، وكان عبد الله بن الحسن وولداه، محمد النفس الزكية وإبراهيم ، هم المتزعمون للثورة المناوئة لبني العباس ، إلا أن سياسة السفاح كانت تتسم بالمداهنة والمسالمة

خلال مدة خلافته ، فكان دائماً يتصل بالعلويين في الحجاز ويطلب منهم الزيارة في أرض العراق ، إلى جانب أنه كان يغدق عليهم الأموال الطائلة والهدايا والإقطاعات الزراعية حتى استطاع ان يكسب رضاهم فلم يقوموا بأي ثورة ضده (٥). لكن هذه السياسة التي سلكها لم تستمر على نفس المستوى من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور ، وخصوصاً مع عبد الله بن الحسن وولديه ومن كان يؤيدهم في الثورة ضد العباسيين، فكان دائماً يراقب تحركاتهم خطوة خطوة فكلما ذهب إلى الحجاز للحج والعمرة بذل ما في وسعه لمقابلتهم والتعرف على مؤامراتهم ومخططاتهم ضده ، وفي حالة عدم مقابلته ، أو تغيب بعض الشخصيات التي يخاف منها على مواجهته ، يسعى ويلح في السؤال عنهم لمعرفة الأسباب التي منعتهم من مقابلته ، ومن المواقف التي تذكرها المصادر أنه حج سنة (١٤٠هـ / ٧٥٧م) فلم ير محمداً وإبراهيم ولدي عبد الله بن الحسن ، فطلب والدهما وسأله عنهما ، وألح أن يخبره أين ذهبا فأبدى عبد الله بن الحسن بعض الأعذار متلمساً لولديه من الخليفة عدم غضبه منهما(٦). وبهذا فإن الأمر بدأ يتأزم بين الخليفة المنصور والطالبيين الذين أصبحوا يجهزون أنفسهم للثورة على الخليفة الذي بدأ يمارس أيضاً أنواعاً من المضايقات عليهم إلى جانب أنه أوقف العطايا والهبات التي كانت تصلهم أثناء خلافة الخليفة السفاح .

ومن أعمال الخليفة المنصور التي سلكها ضد العلويين أنه بدأ يرسل الأمراء الأقوياء الذين عرف عنهم الحزم والقوة ليكونوا ولاة الحجاز ويراقبوا حركات العلويين ، ويضيقوا عليهم ، ويعاقبوهم بالسجن والجلد والتعذيب أحياناً (٧) . إلى جانب إرسال الخدم والجواسيس إلى مكة والمدينة ليتجسسوا لصالحه ويخبروه بكل ما يرون من أعمال العلويين ، وكذلك ما يقوم به الولاة الذين أرسلهم إلى الحجاز من عمل في أحكام السيطرة على المنطقة الحجازية ، وقمع الثورات التي تظهر بها. وكان الخليفة أيضاً يرسل الجواسيس على هيئة تجار في الأسواق أو خدم يقومون بالخدمة في الحرمين الشريفين ، كالتنظيف وسقاية الحجيج وما شابه من الأعمال ، مع العلم أن مهمتهم الأساسية هي التجسس ومراقبة أحوال الحجاز لصالح الخليفة (٨) . وبالرغم مما كان يبذله الخليفة من مراقبة العلويين فقد نجحت ثورتهم في المدينة المنورة بقيادة محمد النفس الزكية في منتصف عام(١٤٥هـ / ٧٦٢م) (٩). وربما كان سبب ثورة العلويين الأساسية في الحجاز أنهم رأوا أن الخلافة قد سُلبت منهم بصنيع بني العباس عندما نادوا في باديء الأمر بأن الدعوة في آل الرضى من آل البيت وبعد نجاحهم في إسقاط دولة بني أمية حصروا الخلافة في البيت العباسي ، لهذا بذل العلويون كل ما في وسعهم للثورة ضد بني العباس وكسب مساعدة وولاء الحجازيين الذين كانوا هم أنفسهم يريدون التخلص من الخلافة العباسية ، كما فعلوا

مع عبد الله بن الزبير في عهد الخلافة الأموية ، وذلك ربما طمعاً في إرجاع عاصمة الخلافة الإسلامية إلى أرض الحجاز ، كما كانت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين .

وبالرغم من أن العلويين ظهروا كثائرين في أرض الحجاز ضد ولاة وممثلي الخلافة ، إلا أن الخليفة لم يكن يتسرع في إرسال جيش يقضي على ثورتهم وإنما انتظر حتى يرى ماذا يفعلون ، فكان أن قام محمد النفس الزكية وكتب رسالة مطولة يذكر فيها أحقية أولاد علي بن أبي طالب في الخلافة لمواقف جدهم علي بن أبي طالب في خدمة الإسلام، لكونه بين أول من أسلم بدين الإسلام ، ثم أستطرد يعدد مناقب الطالبيين وعلى العكس يذكر العديد من مثالب العباسيين وأجدادهم ثم يطلب في النهاية أن يتنازل الخليفة العباسي عن الخلافة ويتركها لأهلها أولادهم العلويين ، فرد المنصور على تلك الرسالة برسالة مطولة أخبر فيها أن أولاد بني العباس هم الذين استطاعوا أن يقضوا على بني أمية ، في حين أن أولاد علي بن أبي طالب فشلوا في ذلك ، ثم عدد أشياء عديدة من مناقب العباس عم الرسول ﷺ وكذلك أولاده ، وبهذا فهم الأحق بزعامة الخلافة الإسلامية ، ولن يتنازل عن الخلافة كما طلب محمد النفس الزكية ثم قام فأعد العدة وجهز الجيوش لإرسالها إلى الحجاز وقمع ثورة العلويين (١٠). وقد تزعم الجيش الذي أرسل من العراق ولي عهد الخليفة المنصور عيسى بن موسى فصار في عدد أربعة

آلاف جندي سالكاً طريق الكوفة الحجاز، وعند وصوله استطاع أن يستميل عدداً من رجال محمد النفس الزكية، حتى لم يبق معه إلا قلة قليلة، ثم حاربه عدة أيام، حتى قضى عليه بالقتل وقضى على ثورته قضاءً تاماً (١١).

ومع أن ثورة محمد النفس الزكية كانت نهايتها الفشل لأسباب قد لا يكون مردها قوة الخليفة المنصور أو الجيش الذي أرسله تحت قيادة عيسى بن موسى، لكن يبدو أن سبب الفشل عائداً لما قام به محمد النفس الزكية من ارتجالية في ثورته، بل ولأسباب أُخرى عدة نوردها فيما يلي:

أ - ظهرت الثورة في بلاد الحجاز فباءت بالفشل، لما تتصف به هذه البلاد من صعوبة التضاريس والمواصلات التي تصلها بغيرها من العالم، ولضيق وقلة الغذاء بها، فهي فعلاً لم تكن أرضاً غنية تسد حاجة سكانها بل كانت تعتمد على ما يأتيها من أطراف العالم الإسلامي، كبلاد مصر، والعراق واليمن وغيرها، وأكبر دليل على ذلك مصداقية قولنا إنه أثناء سماع الخليفة بقيام ثورة محمد النفس الزكية أمر بقفل الطريق البري والبحري الذي يصل بلاد الشام ومصر ببلاد الحجاز حتى لا تصل إليهم المعونات والمواد الغذائية التي كانت تأتيهم من تلك الأطراف (١٢).

ب - أن من يقارن في الدقة بين التنظيم والترتيب من قبل الخليفة المنصور ومن قبل محمد النفس الزكية ، يجد أن الأخير كان ارتجاليا في تنظيمه ، بل وفي علاقته بمن انضم معه على الرغم من كثافة جنده حتى أن الطبري يذكر في احد رواياته أنه قد اشترك معه في ثورته ما يزيد عن مائة ألف رجل من الحجازيين (١٣)، في حين أن عيسى بن موسى لم يأت بأكثر من أربعة آلاف جندي وسبب ، فشله إذاً عدم التنظيم وعدم جمع كلمة من أنضم معه على رأي واحد، إلى جانب تعدد الآراء في اتخاذ القرار لمقابلة جيش المنصور ، فهناك رواية تذكر أن الحجازيين اللذين انضموا مع محمد النفس الزكية قد اختلفوا فيما بينهم في الطريقة التي يقاتلون بها جيش الخليفة ، هل تكون دفاعية أو هجومية في حين أن فئة . أخرى كانت لا ترى في الحرب فائدة وطلبوا من محمد النفس الزكية أن يخرج من المدينة إما إلى البوادي ، وإما إلى أرض مصر حتى يستعدوا استعداد تاماً ثم يعودوا لمقابلة جيش الخليفة وهذه الخلافات بين رجال محمد النفس الزكية هي التي مكنت عيسى بن موسى مع أربعة آلاف من الجند في أن يقضوا على تلك الثورة قضاء مبرماً (١٤).

ج - لم تكن سياسة محمد النفس الزكية في نفس المستوى الذي يتصف به الخليفة أبو جعفر المنصور ولا حتى قائد جيشه الذي ذهب إلى الحجاز عيسى بن موسى ، فمحمد النفس الزكية كان في مرتبة أقل من الخليفة وقائده لعدم حزمه وضبطه لرجاله الذين قاموا لمساعدته ، ثم التسرع في ثورته، بل وفي قراراته حتى أنه ليُذكر أنه في أول خطبة خطبها، وكانت حوله أعداد كبيرة من الرجال ، قال لهم : من يريد البقاء معي فليبق ومن يريد الذهاب فإن له ذلك ولا بيعة لي على من يغادر وإنما هو في حل(١٥) فمثل هذا الإعلان في الخطبة قد يقلل من شأنه ، وفعلاً تركه أعداد كثيرة ممن كان معه ولم يبق عنده في آخر أيام الثورة إلا عدد قليل (١٦).

وظهور ثورة محمد النفس الزكية في المدينة بأرض الحجاز كانت لها نتائج سلبية على المجتمع الحجازي ، وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقة الخليفة المنصور بالحجازيين: فحين قيامه بحركة الثورة قام عدد كبير من رجالات بني هاشم والقرشيين بوجه عام بمساندة العلويين ضد الخليفة المنصور وممثليه في أرض الحجاز، إلى جانب ظهور أعداد كثيرة من الموالي والعبيد وجمع القبائل العربية المحيطة بالمدينة، أمثال قبائل مزينة، وجهينة، وبني سليم، وغطفان، فانضمت إلى

محمد النفس الزكية لمحاربة المنصور (١٧) ومع أن المصادر قد أشارت إلى كثرة الأعداد التي انضمت للعلويين إلا أننا لا نستطيع أن نعثر على رواية تذكر أعدادهم على وجه الدقة في حين أن الطبري أشار أنهم قد يتجاوزون المائة ألف نسمة(١٨). في حين أنه كان هناك بعض القرشيين والموالي والعبيد المقيمين في أرض الحجاز والمؤيدين للخليفة المنصور؛ إلا أنهم بدون شك لم يستطيعوا ولن يقدروا على مواجهة الثوار لهذا كان السبب في إرسال عيسى ابن موسى بالأربعة آلاف رجل للتصدي للثوار وهزيمتهم وقتل أغلبهم(١٩).

أيضاً طبقات العلماء ورجال العلم كانوا أكثر تعاطفاً مع العلويين ومن أشهر العلماء في الحجاز عبد الملك ابن جريج ، وسفيان بن عينيه وإمام دار الهجرة مالك بن أنس، الذين يُروَى أنهم كانوا مؤيدين لمحمد النفس الزكية وثورته ، وخصوصاً مالك بن أنس الذي ذكر عنه أن أهل المدينة وما حولها جاءوا إليه يستفتونه في حكم البيعة التي أعطوها الخليفة المنصور على أَكراه وأنهم يرغبون في نقضها، فكانت فتواه أنهم أعطوا البيعة على إكراه وأي بيعة على إكراه فهي باطلة ، وبهذه الفتوى يذكر أنه خرج عدد كثير من أهل الحجاز مع النفس الزكية(٢٠).

ومع أن أغلبية أهل الحجاز كانت إلى جانب العلويين إلا أن الهزيمة كانت حليف محمد النفس الزكية واعوانه وذلك لأسباب سبق ذكر العديد منها (٢١) ، ثم إن الخليفة المنصور لم يكن يتورع عند هزيمة العلويين من معاقبة كل من قدم المساعدة لمحمد النفس الزكية وأهل بيته فتذكر بعض الروايات أنه أرسل إلى واليه على المدينة جعفر بن سليمان العباسي ليقبض على كل من ساعد العلويين من القرشيين ، فيضعه في السجن أما من تثبت مساعدته من الموالي فيقطع أيديهم وذلك عقابا لهم على ما عملوا في مناصرتهم العلويين ضد الخلافة (٢٢) ، أما القبائل العربية التي كان أغلبها قد انضم إلى العلويين فلم يسلموا أيضاً من العقاب ، فيُذكر أن المنصور أمر بجمع أربعمائة من أعيان قبائل مزينة وجهينة مع بعض العلويين ثم أنزل بهم العقاب الجماعي الذي كان متنوعاً فمنهم من سجن ومنهم من ضرب وقتل (٢٣) ولم يكن عقاب المنصور لمن ثار مع العلويين مقتصراً على الأعيان من القبائل أو بالشكل الجماعي كما فعل مع شيوخ القبائل ، بل كان أيضاً يبالغ في إيذاء من يفشي أسرار جواسيسه الذين يرسلهم إلى الحجاز لمراقبة النفس الزكية وتثبت إدانته فإنه لا يتوانى في إنزال العقاب

به وأكبر مثال على ذلك ما يُذكر عن رجل من قبيلة مزينة حين أطلع على معرفة بعض جواسيس المنصور الذين يراقبون حركات العلويين فأوصل هذا الرجل خبرهم إلى محمد النفس الزكية وأهل بيته فوصل الخبر إلى المنصور فأمر بالقبض على ذلك الرجل وجلده سبعمائة وقيل تسعمائة سوط جزاء لما فعل من مساعدة للعلويين(٢٤).

أيضاً نجد أن بعض العلماء ورجال الفقه والحديث في أرض الحجاز لم يسلموا من عقاب المنصور وأكبر دليل على ما حدث هو أن أنزل والي الحجاز جعفر بن سليمان العباسي العقاب بالإمام مالك ، بسبب فتواه التي أعطاها أهل الحجاز، فيذكر أنه ضربه سبعين سوطاً ثم خلعت يده من كتفه فبقي معاقاً طول حياته (٢٥) .

وما قام به الخليفة المنصور أو ولاته في الحجاز ضد من ساعد الثوار ليس بالأمر الخفي حيث إن الوضع السياسي يحتم عليه وعلى ممثليه في الحجاز وغيرها أن يحافظوا على كيان الدولة الناهضة ويقمعوا جميع الثورات التي تظهر ضدهم سواء كانوا من قبيلة قريش أم غيرها ، وتذكر المصادر أن الذي أخذ القرار والتنفيذ بضرب الإمام مالك هو أمير المدينة جعفر بن سليمان دون علم الخليفة المنصور ، بل

وتذهب إلى أبعد من ذلك في أن الخليفة عندما سمع بما فعل جعفر لمالك ذهب إلى الحجاز، وعزل الوالي من الإمارة ثم استأذن مالك موضحاً له أنه لا علم له بما فعل جعفر بن سليمان ولم يكن لديه علم بما أنزل به من عقوبة ، ثم طلب من مالك إذا أراد أن ينزل العقاب بجعفر فلم يكن من مالك إلا أن عفا عنه (٢٦) . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل من المعقول أن يقوم جعفر بن سليمان بضرب مالك ومعاقبته دون علم الخليفة المنصور ؟ وللإجابة على هذا السؤال فإنه من المستبعد صحة كل ما قيل ، ولا يمكن أن يقدم جعفر بن سليمان على عمله فيما يتعلق بمالك إلا بإشارة من الخليفة والأدلة التي تجعلنا نجزم أن الخليفة هو صاحب الكلمة الأولى في ضرب مالك عديدة ، ومن أهمها :

أ. أن ما سطرت المصادر الأساسية عن حنكة وسياسة الخليفة المنصور تشير إلى انه ذلك الرجل القوي الذي كان قابضاً على زمام أمور الدولة بيد من حديد ، وبهذا فإنه ليس من السهل في أن يتصرف جعفر بن سليمان دون علمه وخصوصاً في ضرب أمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي ، مالك بن انس ، وفي حالة أن نلقي نظرة أيضاً على سياسة

المنصور تجاه مراقبة أحوال الحجاز، ومتابعة سير الأمراء الذين كان يرسلهم لضبط البلاد له نستطيع أن نعرف مدى سيطرته على البلاد ومدى مركزيته في حكم الأجزاء البعيدة عن مركز الخلافة في العراق (٢٧) .

ب. أن جعفر بن سليمان لم ينزل العقاب بالقرشيين والموالي الذين ساندوا العلويين حتى جاءه الأمر من المنصور في أن ينفذ أمر العقاب عليهم فيسجن القرشيين ويقطع أيدي الموالي (٢٨) ، وهذا الأمر دليل على أن جعفراً لم يضرب مالكاً إلا بإشارة من الخليفة .

ج. أن عزل جعفر بن سليمان أيضاً من منصبه كأمير للمدينة مقابل ضربه الإمام مالك لم يكن في اعتقادي إلا صورياً ، إذ رأيناه يُعطى إمارة الحجاز كاملة في عهد الخليفة المهدي (١٥٨هـ ٧٧٤م – ١٦٩هـ / ٧٨٥م) ، وتوليته هذا المنصب في عهد المهدي ولد أبي جعفر المنصور لا يستبعد أن تكون وصية ينفذها الولد لوالده مكافأة له على ما قام به من ضرب مالك وغيره من أهل الحجاز (٢٩) .

د. أيضاً أن من يتابع الفترة الزمنية التي أعطى فيها الإمام مالك فتواه كانت في منتصف عام (١٤٥هـ / ٧٦٢م) مع أن جعفر بن سليمان لم يعين أميراً على المدينة إلا في ربيع الأول من عام (١٤٦هـ / ٧٦٣م) وهذه الفترة الزمنية تكون كافية للخليفة المنصور وجعفر بن سليمان في أن يحيكا الخطة في ضرب مالك (٣٠) ، وبالتالي يذهب الخليفة ليستأذن من مالك فيما حل به ثم يعزل الأمير وبهذا يكون قد ظهر أمام الرأي العام بأنه يحترم ويجل العلماء ويدافع عنهم هادفاً إلى السلامة من إظهار نفسه بالمعتدي على رجال العلم وبالتالي يكسب رضا الناس في عمله وذلك الذي قام به من الالتقاء بمالك وطلب العفو منه بل وإخباره بعدم معرفة ما جرى في مسألة ضربه .

وظهرت ثورة في المدينة بعد ثورة محمد النفس الزكية عرفت في المصادر التاريخية بثورة السودان، وكان ظهورها بعد هزيمة العلويين وقتل معظمهم، ففي الوقت الذي واصل الخليفة المنصور انتصار جيشه بقيادة عيسى بن موسى كان قد أمر بإرسال

أمير يدعى عبد الله بن الربيع (٣١)، ليكون والياً على المدينة ، وحين وصول هذا الأمير إلى مقر الإمارة في المدينة أطلق العنان لجنوده ليعيثوا في الأسواق والشوارع وكذلك المزارع فيدمروا كلما أتو عليها، مع العلم أن بعض أعيان وموالي وعبيد المدينة جاءوا إلى الأمير عبد الله بن الربيع ليشتكوا إليه من جنوده، فلم يسمع لهم ولم يردع جنوده عما كانوا يقومون به من أعمال تخريبية ، مع العلم أن فوضى أولئك الجنود كانت في أماكن متعددة من المدينة إلا أن احتكاكهم كان أقوى بالعاملين من طبقة العبيد في الأسواق والمزارع وغيرها حيث تم الاعتداء على بعضهم بالقتل وخصوصاً من كان يمارس التجارة وبعض الحرف اليدوية فاعتدوا عليهم في سوق المدينة وقتل بعضهم ، وهذا مما أدى إلى تجمع العبيد في المدينة ثم التصدي لعبد الله بن الربيع ومحاربته وطرده وجنوده (٣٢) .

ومن يتقص الأسباب الحقيقية لثورة السودان يجدها متعددة الأسباب ففي الوقت الذي ظهرت فيه ثورة العلويين في الحجاز ضيق المنصور الخناق عليهم

مما سبب عدم ارتياح من عامة الناس خصوصاً للثوار وإرساله أميراً ليبث الرعب والخراب في البلاد فيزيد الأحوال سوءا وهذه السياسة كافية لأن تظهر ثورة اجتماعية لكي يتنفس الناس مما حل بهم من مآس ، علماً أن هناك من أرجع أسباب الثورة إلى عوامل أخرى فيذكر طه الحاجري (٣٣) أن الهدف من قيامهم بثورة المدينة على أعقاب ثورة محمد النفس الزكية هو شعورهم بالقوة ولذا فإنهم كانوا يهدفون إلى الحصول على سيطرة سياسية إدارية في أرض الحجاز تمكنهم من حصولهم على مكانة جيدة في المجتمع ، وأنا لا أتفق مع الأستاذ الحاجري فيما قال وإنما شدة المنصور وسوء تصرف الأمير عبد الله ابن الربيع مع الحجازيين كان السبب الرئيسي لأن تقوم ثورة ضد الظلم والخراب والدمار الذي فعله جنود أبن الربيع ، أيضاً لا أستبعد أن يكون للعامل الاقتصادي أثر في قيام الثورة ، وذلك يتضح مما قام به السودان أثناء ثورتهم وتصديهم لعبد الله بن الربيع وجنوده في أنهم في بادئ الأمر لاحقوهم في أماكن متعددة من المدينة ، ثم رجعوا إلى مخازن

الحبوب والأطعمة الخاصة بالخليفة ورجاله في المدينة فنهبوها جميعها، وهذا التصرف يوحي لنا بأنهم كانوا في حاجة ماسة إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية وربما إلى سد رمقهم والحاجة التي لحقت بهم (٣٤)، كذلك من المحتمل أن يكون لأعيان المدينة وسادة العبيد يد في قيام ثورة السودان ضد عبد الله بن الربيع وجنوده، فربما أنهم قد أيدوهم وشجعوهم للتصدي لرجال الخليفة المنصور الذي قتل العلويين وعاقب من ساندهم في ثورتهم ، وهذا الاحتمال يكون قوياً إذا ما رأينا ما قاله السودان لأسيادهم عندما قاموا بالثورة إذ يذكر الطبري أنهم يقولون "والله ما قمنا إلا أنفة لكم مما عمل بكم فأيدينا مع أيديكم وآمرنا إليكم(٣٥)" وهذا القول فعلاً يدل على أن العبيد قد ثاروا برضا أسيادهم كذلك أنهم لم يكونوا يتطلعون إلى الحصول على زعامة أو نفوذ سياسي كما ذكر الأستاذ الحاجري أيضاً في رواية أخرى ذكرها الطبري في أنهم قالوا صراحة إنما ثاروا وهم فعلاً لا يتطلعون إلى أي نفوذ سياسي فإن نجحت ثورتهم فإن الأمر يترك شورى في أن يعقد مجلس مكون من أربعة من بني هاشم،

وأربعة من الأنصار ، وأربعة من الموالي ثم الأمر شورى بينهم (٣٦) " في أن يختاروا من هو أصلح للخلافة وقيادة زعامة الأمة الإسلامية، وهذا القول أيضاً يخالف رأي الحاجري ، وكيف يقدر العبيد أن يحصلوا على زعامة سياسية في بلاد الحجاز في حين أن العلويين ومعهم غالبية الحجازيين لم يحققوا هدفهم وإنما ثورتهم أصبحت هباء منثورا أمام حنكة وصمود الخليفة المنصور.

ب - **الأوضاع الحضارية :**

يتضح لنا من الصفحات السابقة ، ما ظهر في الحجاز من إضطرابات سياسية ، والتي كان لها جوانب سلبية على الجانب الحضاري ، مع أن الخليفة المنصور كان يذهب إلى بلاد الحجاز مقدماً بعض الإصلاحات العمرانية والمساعدات المالية لبعض الحجازيين ، لهذا سوف نرى تأثير الأوضاع السياسية على الأوضاع الحضارية ، ثم كيف كان ينظر الخليفة المنصور لبلاد الحجاز حضارياً .

إن من يدرس الأحوال الاقتصادية في أرض الحجاز خلال فترة المنصور يرى أن الجانب التجاري لم يكن نشطاً علماً أن مكة والمدينة ، كمدن مقدسة كان بها حركة تجارية جيدة ، وخصوصاً خلال فترة الحج لأنه يأتي إليها آلاف الحجاج الذين يؤدون مناسك حجهم وبالتالي يمارس

العديد منهم مهنة التجارة كعمل أساسي يعيش من ورائه ، في حين أنه كان هناك العديد من التجار الذين يأتون إلى هذه البلاد لأجل التجارة فقط وكسب الأرباح الجيدة خلال مواسم الزيارة والحج (٣٧) ، إلا أن المشكلة التي كانت على ساحة بلاد الحجاز تتمثل في القلاقل والثورات بل والصراعات بين جيوش الخليفة والثوار في أرض الحجاز ، وهذا الأمر سبب تدهور أحوال التجارة ، إلى جانب أن الخليفة المنصور استخدم العامل الاقتصادي كونه إحدى أسلحته لمحاربة الحجازيين فذكر أنه عندما سمع بظهور ثورة محمد النفس الزكية في المدينة أمر بأن تقطع الطريق البحري الواصل من مصر إلى ميناء الحجاز والذي كان مهمته تزويد الحجازيين بالحبوب والمواد الغذائية المتنوعة (٣٨) ، كذلك أمر بقطع الطريق البري الذي يصل بلاد الشام بالمدينة ، فوضع قوة عسكرية مسلحة في محطة وادي القرى الذي يقع في منتصف الطريق بين المدينة والشام ، ليمنع وصول السلع والمواد التجارية المختلفة إلى بلاد الحجاز (٣٩) وإذا كان قد فعل هذا التصرف مع الطريق القادمة من مصر وبلاد الشام فليس ببعيد أن يكون قد سلك نفس السياسة بقفل الطريق الأخرى الموصلة إلى الحجاز وخصوصاً التي تربط بلاد المشرق والعراق بأرض الحجاز واليمامة وبلاد اليمن وغيرها.
أيضاً أن سياسة جيش المنصور وبعض الولاة الذين كان يرسلهم إلى الحجاز كانت سياسة قوة واضطهاد فمما ذكر عن عبد الله بن الربيع ورجاله نستطيع معرفة تدني الأحوال التجارية في الحجاز وانعدام الأمن إذ أشارت

المصادر الأساسية إلى جند عبد الله بن الربيع عندما ذهبوا إلى أسواق المدينة تدمر الدكاكين التجارية وتنهب الأموال والسلع التي في الأسواق ومثل هذا التصرف فعلاً يؤثر على التجارة ويؤدي إلى انهيارها وتدهورها (٤٠) أيضاً لم يكتف المنصور بكل ما عاقب به أهل الحجاز وإنما سعى أيضاً إلى تنشيط الطريق البحري التجاري الذي يربط الهند والصين بالخليج العربي بعاصمة الخلافة في حين أنه لم يكن يهتم بالطريق البحري الذي كان يمر بالبحر الأحمر ويربط بين شرق العالم وغربه ، وهذا السبب أيضاً سبب تدهور التجارة في أرض الحجاز (٤١) .

وبحدوث الثورات بالحجاز وخصوصاً ثورة السودان وما قام به الأمير عبد الله بن الربيع ، كان لها آثار سلبية على الصناعات والحرف المهنية، وذلك يظهر واضحاً في تاريخ الطبري (٤٢) إذ يصف لنا ما حدث من تصادم بين جيش عبد الله بن الربيع وأصحاب الصناعات والحرف في أسواق المدينة، وبالتالي كيف خربت محلات بعض المهنيين ، بل وكيف تم الاعتداء عليهم وقتلهم ، وهذه التصرفات والقلاقل السياسية لابد وأن تكون قد أثرت على مستوى الإنتاج للحرفيين والصناعيين بالحجاز (٤٣).

أما التأثير على الجانب الزراعي في المدينة وبعض المناطق الحجازية الأخرى التي كانت أراضي زراعية غنية بمزارعها ومنتجاتها (٤٤) فقد كان لثورة النفس الزكية وثورة السودان نتائج سلبية على الجانب الزراعي ، وذلك بأن أُعتدي على بعض المزارعين والعاملين ، في حقول الزراعة فقتل

بعضهم ، بل ودمرت بعض الأراضي الزراعية ، عندما تم أخذها ومصادرتها من قبل أصحابها ، إذ تذكر لنا بعض المصادر أن جميع أملاك عبد الله المحض وأهل بيته وكذلك بعض أعيان الحجاز الذين ساندوا الثوار ، تم مصادرة أملاكهم الزراعية من قبل الخليفة المنصور (٤٥) ، علماً بأننا لا ندري إلى من أعطاها ولا نستبعد أن تكون قد صودرت ثم تركت بدون زراعة وصيانة ، لأنه أيضاً ذكر عن الخليفة المهدي أنه قام عندما تولى الخلافة بإرجاع بعض تلك المزارع والأملاك المصادرة إلى أصحابها دون أن تشير المصادر أيضاً إلى أنها كانت في أيدي أحد خلال المدة التي صودرت فيها (٤٦)، وبهذا فإنه احتمال قوي . أن بقيت بدون رعاية من وقت مصادرتها في عهد الخليفة المنصور إلى وقت إرجاع بعضها في عهد ولده الخليفة المهدي .

أما ما قام به الخليفة المنصور من أعمال إيجابية تجاه أهل الحجاز فإنه لم ينسهم حتى ولو كان قد أخمد الثوار العلويين بل وعاقب كل من قام بمساندتهم أو مد يد العون لهم ، لهذا فإنه كان له بعض الإصلاحات العمرانية التي قام بإنشائها أو إصلاحها في البلاد الحجازية ، فقام بإعطاء بعض الهبات والعطايا التي كان يوزعها أثناء ذهابه لأداء الحج والعمرة .

فمن أعماله في السنة التي مات فيها الخليفة السفاح (١٣٦هـ / ٧٥٣م) حيث كان أميراً للحج في تلك السنة ، فعند ذهابه من العراق إلى مكة كان يقوم بإصلاح الطرق والعقبات التي تقابله في ذلك الطريق الواصل بين الكوفة ومكة ، وأيضاً كان يحفر الآبار والبرك على طول الطريق ، إلى

جانب أنه كان يكسو الأعراب الذين يواجهونه على قارعة الطريق ، وفي أثناء وصوله إلى مكة قام بتوظيف خمسمائة وصيف (خادم) في المسجد الحرام لكي يقوموا بسقاية الحجاج وتنظيف المسجد (٤٧) . في حين أن إصلاحاته المعمارية في ارض الحجاز تتمثل فيما قام به من توسعة للمسجد الحرام في مكة . فتذكر المصادر أنه ذهب إلى الحج سنة (١٣٦هـ / ٧٥٣م) وعند رؤية ضيق المسجد وأنه لا يتسع لكل الزوار والحجاج أمر واليه على الحجاز ، زياد بن عبيد الله الحارثي (٤٨) ، أن يقوم بالإشراف على توسعة المسجد من الجهة الشمالية حتى يستوعب كل الزوار لبيت الله الحرام ، فقام هذا الأمير بالقيام على ما أوكل إليه ثم عمل في داخل الحرم أساطين الرخام، وزينها بالفسيفساء ، أيضاً نقش الرخام على بئر زمزم والحجر الأسود (٤٩).

ذكرت المصادر أن توسعة المسجد الحرام حدث في عهد الخليفة المنصور إلا أنهم يختلفون في سنة البدء فيذكر اليعقوبي (٥٠) أن البداية كانت في عام (١٣٨هـ / ٧٥٥م) في حين أن الطبري وابن فهد أرخا بعام (١٣٩هـ / ٧٥٦م) بأنها كانت البداية في عمل التوسعة (٥١) أما الأنصاري فلم يكن مستقراً على رأي اليعقوبي أو الطبري ، بل كان غير متأكد هل بداية العمل كانت في عام (١٣٨هـ) أو(١٣٩هـ) ذاكراً أن العمل كان قد بدأ في واحدة من هاتين السنتين (٥٢) ، ومع أنه لم يكن هناك رأي راجح لتحديد السنة التي حج فيها الخليفة وأمره بالتوسعة إلا أننا نرجح أن تكون سنة (١٣٦-١٣٧هـ ٧٥٣-٧٥٤م) ، لأن الخليفة كان قد ذهب في حج ذلك العام ثم أمر

بالتوسعة التي لم تبدأ إلى أوائل عام (١٣٧هـ / ٧٥٤م) وما يؤيد رأينا هو ما ذكرته بعض المصادر المحلية لتاريخ مكة التي حفظت لنا كتابة كانت على إحدى أبواب المسجد الحرام والتي تشير إلى بداية ونهاية تلك التوسعة، وهذه الكتابة لا تزال موجودة في كتابي الأزرقي ، والفاكهي ، وهذا نصها:

" أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه ، نظراً منه للمسلمين واهتماماً بأمورهم وكان الذي زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل ، وأمر ببنائه وتوسعته في المحرم سنة سبع وثلاثين وفرغ منه ورفعت الأيدي عنه في ذي الحجة سنة أربعين ومائة(٥٣)، وهذا النص فعلاً يؤكد البداية والنهاية لتلك التوسعة التي أمر بتنفيذها الخليفة المنصور أثناء زيارته للحجاز في نهاية عام (١٣٦هـ).

ومن الإصلاحات العمرانية التي قام بها الخليفة المنصور أيضاً أنه أمر ببناء بعض المساجد الصغيرة في أماكن متفرقة من مكة والطائف وما حولهما ، بل وأصلح بعض المرافق العامة في المدينة كبناء الحمامات وأماكن للاستراحة وما شابهها (٥٤) .

كذلك الأعطيات والهبات التي كان يقوم بتوزيعها الخليفة المنصور أثناء ذهابه للحج ، فلم يكن يتوانى في الاتصال ببعض الأعيان من الحجازيين وكذلك بعض أفراد أهل بيته فيذكر البلاذري (٥٥) أنه حج سنة (١٤٠هـ / ٧٧٧م) فاعطا أهل المدينة أعطيات حسنة إلا أنه لم يذكر كم مقدار تلك الأعطيات وما نوعها ، في حين أن الطبري يذكر ذلك العطاء إلا

أنه ذكر معلومات لم يذكرها البلاذري في أن الخليفة قد خص عبد الله ابن الحسن وأهل بيته بالنصيب الأكبر من تلك الأعطيات (٥٦)، ومع أن الطبري يعد الوحيد الذي ذكر أن أغلب أعطيات تلك السنة أعطيت إلى العلويين ، علماً أن سياسة الخليفة المنصور تجاه عبد الله بن الحسن وأهل بيته كانت سياسة طابعها القسوة والعذاب والاضطهاد ولكن لا نستبعد صحة ما ذكر الطبري خصوصاً إذا كان قد راجع سياسة الخليفة السفاح وكثر عطاياه للطالبيين حتى استطاع أن يشتري قلوبهم ويمنعهم من القيام بثورة ضده ، وإن كان قد فعلها الخليفة المنصور وحاول أن يعمل عمل أخيه السفاح وأنه لم ينجح وربما كان ذلك عائداً إلى الظروف التي أحاطت به في أن طال الوقت بالطالبيين الذين كانوا يفكرون في الثورة في عهد السفاح ، ثم لسياسة الخليفة المنصور التي كان طابعها القوة والشدة وقمع من تسول له نفسه الثورة، ثم أيضاً طول الوقت الذي بقي فيه الخليفة المنصور للدولة العباسية، وكل هذه العوامل قد تكون متضافرة في عدم نجاحه في شراء قلوب العلويين ومنعهم من الثورة ضده.

وقد استطردت بعض المصادر في تلك الأعطيات والهبات التي كان يوزعها الخليفة المنصور وخصوصاً ما سبق أن ذكره كلاً من البلاذري والطبري في سنة (١٤٠هـ / ٧٧٧م)، فذكر كلاً من ابن بكار، والنهراولي بأن الخليفة المنصور وزع في تلك السنة أعطيات على أهل المدينة، إلا أن أشراف القرشيين وأعيانهم نالوا نصيب الأسد من تلك الأعطيات دون أن يذكروا

مقدار الأعطيات التي كانت تعطى لكل واحد منهم حتى صرح بعض الأشراف بأنه كان يحصل على الألف دينار وربما أكثر كنصيبه من تلك الهبات ، ثم إن تلك الأعطيات لم تكن مقتصرة على رجال قريش وإنما قسم أموالاً على قواعد القرشيين من النساء وكذلك وزع عليهن صحائف الذهب والفضة مع كساوي جيدة (٥٧) والمشكلة الظاهرة على هذه الأعطيات أنها كانت مخصصة لأهل المدينة وليست لجميعهم وإنما كانت غالباً لعلية القوم من القرشيين ، وهذا العمل ربما كان سياسة من الخليفة في أن يكسب إلى جانبه بعض الشخصيات المؤثرة في الحجاز لتكون عوناً له على الثوار أو ربما كان يسعى إلى شراء قلوب أعيان المجتمع حتى لا يثوروا عليه ويساعدوا الثوار ضده ، لكن كل هذه لم تحجب عنه العلويين من أن يقوموا بثورة ، وأن يساندهم أغلب المجتمع الحجازي وخصوصاً من كان يعيش في المدينة وما حولها . وفعلاً كان جل اهتمام الخليفة على المدينة ومن فيها وذلك بصفتها موطن العلويين الذين كان يخاف منهم ، علماً أنه لم يذكر عنه في سنة (١٤٠هـ / ٧٧٧م) أن قدم أي عطاء لأهل مكة والطائف وغيرهما حتى أن الدينوري (٥٨) يذكر أن الخليفة أبا جعفر ذهب إلى مكة ثم رجع إلى المدينة فوزع فيها الأعطيات دون أن يوزع أي شيء في مكة ، وبهذا كان يقصد بعطائه هذا عملاً سياسياً بحتاً من أجل منع الثورة من القيام في أراضي المدينة .

ومن أعطياته وهداياه أيضاً ما ذكر الفسوي في أنه ذهب إلى الحج عام (١٥٢هـ / ٧٦٩م)، ثم قام بتوزيع مقادير كثيرة من الأموال على الحجازيين في كل من مكة والمدينة ، ومع أن الفسوي هو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذه الأعطيات دون أن يعطي تفصيلاً أكثر عن كميات تلك الأعطيات وعن من حصل عليها من السكان (٥٩) ، أيضاً كان للخليفة المنصور بعض الأعمال الخيرية التي تشمل بعض أفراد المجتمع المحتاجين فيذكر النويري (٦٠) بأنه أمر واليه في الحجاز زياد بن عبيد الله الحارثي، بأن يحرص على زيارة كبار السن والمعوزين من الرجال والنساء وإعطائهم ما يحتاجون من كساء وغذاء ، أيضاً أمره بأن يوزع بعض الأعطيات على النساء والأرامل غير المتزوجات وعلى الأيتام والعميان . أيضاً عطايا الخليفة المنصور كانت تشمل السياسيين ومن يعمل في خدمته فيذكر عنه أنه كان يغدق الأموال والهدايا على من يتجسس له على الحجازيين وخصوصاً ممن كان يخافهم من رجال العلويين (٦١) . وكان يتقرب من العلماء ومن يعمل في خدمة الدين والعقيدة ، إذ كان دائماً على صلة بهم ، وخصوصاً عندما يذهب إلى الحج فكان يلتقي بعلماء الحجاز ومن يأتي من الأجزاء الأخرى في الدولة الإسلامية ، وبهذا كان يسمع لنصائحهم ويعطيهم الأعطيات الجزيلة ، ومن أمثال من كان يلتقي بهم من علماء الحجاز مالك بن أنس وعبد الملك بن جريج وقاضي المدينة في عهده، محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد القرشي وغيرهم كثير (٦٢).

وخلاصة القول إن منطقة الحجاز قد شهدت أحداثاً سياسية متمثلة في ثورة العلويين ضد الخليفة أبي جعفر المنصور ، ثم عقب الثورة العلوية ثورة السودان التي كان العبيد في المدينة الأداة المحركة لتلك الثورة ، لكن صرامة وسياسة وبعد نظر الخليفة المنصور مكنته من القضاء على تلك الثورات ومنعت الثوار ومن ساندهم من الحجازيين الفوز بما كانوا يتطلعون إليه من إلحاق هزيمة ساحقة ببني العباس.

وقد نتج عن الحياة السياسية التي عاشتها منطقة الحجاز، وخصوصاً المدينة المنورة ، بعض السلبيات من قبل الخليفة ، فأصدر أوامره بمعاقبة عدد من أعيان وشيوخ الحجاز الذين ساهموا في ثورة العلويين ضد بني العباس ، كما قطع الأعطيات وصادر أملاك وعقارات بعض الحجازيين، إلى جانب أنه منع تصدير السلع ، وخصوصاً المواد الغذائية ، ومن الشام ومصر إلى منطقة الحجاز ، وكل تلك الأعمال التي سلكها الخليفة المنصور ليست إلا نكاية بالحجازيين على مساندتهم للعلويين ، علماً أنه لم ينس المنطقة في بعض الإصلاحات ، فأجرى توسعة للمسجد الحرام ووزع بعض الهدايا والأعطيات على بعض الفقراء والمساكين وبعض الناس من الحجازيين الذين كانوا عوناً له في توطيد سياسته في المنطقة الحجازية.

الهوامش والتعليقات

١- أنظر . شمس الدين أبا العباس أحمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨م) جـ٣ ، ص٧١ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، (الإسكندرية ١٩٨٤م) ، ص٧١ وما بعدها ، عبد الأمير عبد حسين دكسن ، الخلافة الأموية ، ٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م (بيروت ١٩٧٣م) وما بعدها .

٢- انظر ترجمة لداود بن علي في، كتاب خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط٥ (بيروت ١٩٨٠م) جـ٢ ، ص٣٣٣ .

٣- أبو الفرج على الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، تحقيق أحمد صقر (بيروت تاريخ النشر بدون) ص١٧٩ وما بعدها .

٤- انظر تفصيلات عن الدعوة السرية التي كان بنو العباس يسعون خلالها لإسقاط دولة بني أمية . أبا جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٠م) جـ٧ ، ص٤١٢ وما بعدها ، أحمد شلبي ، التاريخ والحضارة الإسلامية ، ط٤ (القاهرة ١٩٧٠م) جـ٣ ، ص١٩-٦٢ .

٥- انظر حول سياسة السفاح مع العلويين ، أحمد بن يحيى البلاذري ، أنساب الأشراف ،تحقيق محمد المحمودي (بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ، جـ٣ ص٢٣٢ ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ١٩٦٧م) جـ٥ ، ص٧٤ ، فاروق عمر " الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية " مجلة العرب (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م) جـ١ ، ص٢١ .

٦- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٢٢ ، البلاذري ، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٥-٨٦ .

٧- أرسل الخليفة المنصور عدداً من الأمراء إلى كل من مكة والمدينة ليضبطوا له الأمن في بلاد الحجاز ، ويقضوا على ثورة العلويين التي تزعمها محمد بن عبد الله بن الحسن ، علماً أن أولئك الأمراء كانوا غير متساوين في سياستهم وتنفيذهم أوامر الخليفة ، وبعضهم اتصف بالحزم والقوة ، كزياد بن عبيد الله الحارثي ، والحسن بن زيد ، ومحمد بن خالد القسري ، إلا أنهم كانوا متعاطفين مع العلويين لقرابتهم من الرسول ﷺ ، لذا فلم يكونون يشددون القبض عليهم ، وإنما كانوا متساهلين معهم فلم يكن يسع الخليفة إلا أن يعزلهم ثم يعاقبهم بالسجن ومصادرة أموالهم في حين أنه كان هناك أيضاً ولاة آخرون امتازوا بالشدة والقسوة ، خصوصاً على العلويين والحجازيين بشكل عام ، ومن أمثال أولئك الأمراء عثمان بن رياح المرئ ، وعبدا لله بن الربيع أنظر تفصيلات أكثر ، البلاذري، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٥-٨٦ ، الطبري، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥١٧ وما بعدها ، أبا عبد الله الزبير بن بكار ، أخبار الموفقيات ، تحقيق سامي العاني (بغداد ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م) ، ص٣٦٨ ، إسماعيل بن علي بن كثير . البداية والنهاية (بيروت والرياض ١٩٦٦م) جـ١٠ ، ص٢٦٢ .

٨- البلاذري ، أنساب ، جـ٣ ، ص٨٥ـ٨٦ ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥١٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٨٤ .

٩- أنظر تفصيلات عن الثورة العلوية التي قامت في المدينة ضد دولة بني العباس في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، الطبري ، تاريخ ،جـ٧ ص٥٥٢ـ٦٠٩ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق أم. دي غوى (ليدن ، ١٨٦٩م) جـ٣ ، ص٣٤٩ـ٣٥١ ، علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق شاربيلا (بيروت ١٩٦٦م) ص١٤٥.

J. Lassner . The Shapping Of The Abbasid Rule (Princeton 1980) pp. 70-2 , F. Omar. " Some Aspects Of The Abbasid -

Husaynid Relation During The Eariy Abbsid Period 132–193 . A.H / 750–809 A.D " Arabica, Vol. XXII (1975) pp. 170FF

١٠- انظر للرسائل التي تبادلها الخليفة أبو جعفر المنصور مع محمد النفس الزكية ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧، ص٥٦٦–٥٧١ ، فاروق عمر " الرسائل المتبادلة " ، ص٢٠ وما بعدها .

١١- انظر نفس المصادر والصفحات التي ذكرت في هامش (٩) .

١٢- أبو عبد الله الزبير ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص٣٣٩ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٧٨ ، ٦٠٣ ، حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، نصوص ، مشاهدات ، انطباعات (الرياض ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص٢٠٩ .

١٣- انظر الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٨٢ .

١٤- انظر تفصيلات حول تلك الخلافات في الرأي ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٧٢–٥٧٣ ، ٥٨٠–٥٨٢ ، ٥٨٦ وما بعدها .

١٥- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٨٢–٥٨٣ .

١٦- المصدر نفسه .

١٧- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٢٧–٥٢٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٧–٥٨٩ ، ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص١٨٦ .

١٨- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٨٢ .

١٩- المصدر نفسه .

٢٠- أشارت بعض المصادر إلى أن الفتوى التي أفتى بها الإمام مالك لأهل الحجاز على ترك بيعة الخليفة المنصور والإنضمام إلى العلويين . الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٦٠ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق،

جـ٣ ، ص٢٩٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٨٤ ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م) ص٢٦١ .

٢١ـ انظر في الصفحات السابقة من البحث نفسه .

٢٢ـ ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص١٨٦ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٧٩ .

٢٣ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٥٠ ، ٥٩٠ .

٢٤ـ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٨ وما بعدها ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣، ص٢٣٥ .

٢٥ـ أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني (بيروت ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧) جـ٢ ، ص١٤٨ ، المؤلف نفسه ، المعارف ، تحقيق ثروة عكاشة (القاهرة ١٩٦٠م) ص٤٩٩ ، الطبري، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٦٠ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص٢٩٨ .

٢٦ـ انظر نفس المصادر والصفحات التي في ملاحظتي (٢٠) ، (٢٥) .

٢٧ـ من الأمراء الذين أرسلهم الخليفة المنصور إلى الحجاز ، زياد بن عبيد الله الحارثي ، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري ، وعثمان بن رياح المرئ ، وعبد الله بن الربيع

٢٨ـ ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص١٨٦ .

٢٩ـ لقد ترك الخليفة أبو جعفر المنصور لولده المهدي دولة مترامية الأطراف ، خالية من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، إلى جانب أنه ترك له خزانه وافرة بالمال ، علماً أنه صادر أموالاً كثيرة من العلويين وغيرهم من الثوار في بلاد الحجاز ، إلا أنه عند ما حضرته الوفاة كان قد ترك بعض النصائح لولده ، كأن يحسن إلى من أساء لهم – الخليفة المنصور – وخصوصاً من القرشيين فيدفع لهم الهدايا

والأعطيات ، بل ويوليهم المناصب الإدارية ، فكـان جعفـر بـن سـليمان ضـمن مـن انطبقـت عليـه نصـائح الخليفة المنصور .

٣٠- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٥٦ ، ٦٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٨٤

٣١- لقد أشار الطبري إلى أعمال عبد الله بن الربيع كأمير في بلاد الحجاز خلال عهد الخليفة المنصـور ، تـاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ، ص٦١٠ وما بعدها .

٣٢- أحمد بن يعقوب اليعقوبي ، تـاريخ اليعقـوبي ، تحقيـق أم. هوتسـما (ليـدن ١٨٨٣م) جــ٢ ، ص٤٥١-٤٥٢، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦١٠-٦١٤ ، عز الدين أبو الحسن ابن الأثير ، الكامـل في التـاريخ ، تحقيق س. تورنبرق (بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) جـ٥ ، ص٥٥٦-٥٥٧ .

٣٣- طه الحاجري ، الجاحظ ، حياته وتراثه ، (القاهرة ١٩٦٩م) جـ٢ ، ص٢٤٣ .

٣٤- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦١١ .

٣٥- المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص٦١٢ .

٣٦- المصدر نفسه .

٣٧- انظر تفصيلات أكثر عن الأنشطة التجارية في موسم الحج . أبا الوليد محمد بن عبد الله الأزرقـي ، أخبـار مكة ، تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص٢٣٩ ، أبـا الحسـن محمـد بـن أحمد ابن جبير ، رحلة بن جبير (ليدن ١٨٥٢م) ، شمـس الـدين أبـا عبـد الله محمـد المقدسـي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوى (ليدن ١٨٧٧م) ص١١١-١١٢ ، أبا عبد الله محمد الشريف الإدريسي " جزيرة العرب مـن نـزهة المشتاق " تحقيق إبراهيم شوكت ، مجلة المجمع العلمي العربـي العراقي ، (١٩٧١م) جـ٢١ ، ص٢٠ .

٣٨- ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص٣٣٩ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦٠٣ ، الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، ص٢٠٩ .

٣٩- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٧٨ .

Abdallah Al . Wuhaybi, The Northern Hijaz In Writing Of Arab Geographers, (800–1150) (Beirut, 1973) pp. 293

٤٠- اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٥١-٤٥٢ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦١٠-٦١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٥٥٦-٥٥٧ .

٤١- انظر نشاط التجارة في كل من البحر الأحمر والخليج العربي ثم تأثير السياسة على مستوى النشاط التجاري بهذين البحرين، السيد محمد يوسف " علاقات العرب التجارية بالهند منذو أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري " مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، جـ١٥، ١٩٥٣م) ص٢٤-٣٠.

Maurice Lombard . The Golden Age Of Islam, tr. Spencer (Amsterdam, 1975) pp. 16f, S. m. Imamuddin " Comercial Relation Of Spain With Iraq, Persia, Khurasan, China &India In The 10th Century A. C. " Islamic Culture, Vol. XXXVII (1961) pp. 180- 2 , R. Hart Mann (Rev. P. A. Marr) " Djudda " EI2, Vol. II, P.572.

٤٢- تارخ الطبري جـ٧ ، ص٦١٠-٦١٤ .

٤٣ـ منطقة الحجاز كان بها العديد من الحرف والصناعات التي تزاول في أسواقها وكذلك في بيوت بعض المهنيين في حرف متنوعة ، انظر الأزرقي ، أخبار ، جـ٢ ، ص٦٠ ، ٧٩ ، ٣٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ .

٤٤ـ انظر النشاط الزراعي في الحجاز خلال عصر بني العباس . عبد الله محمد ناصر السيف " الزراعة في لحجاز في العصر العباسي " مجلة الدارة ، عدد (٢) سنة (٩) المحرم ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ص١٨٣-٢٠٥ .

٤٥ـ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٦ـ٨٨ ، ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، ص٣٦٨ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦٠٣ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ص٢٣٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٢٦٢ ، إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي البجاوي ، ط٢ (القاهرة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م) جـ١ ، ص٨٣ .

٤٦ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦٠٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٢٦٢ .

F. Omar . " Some Opservation On The Reigon Of The Addasid Caliph al. Mahdi 158/775–169/785 Arabica, Vol. XXI (1974) P.140 .

٤٧ـ نجم الدين محمد بن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم شلتوت (القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص١٧٢ ، عبد القادر بن محمد الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطرق مكة المعظمة ، (القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ص٢٠٩

٤٨ـ انظر بعض أعمال زياد بن عبيد الله الحارثي ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٤٩٦، ٤٩٩، ٥١١ ، ٥١٧ ، .

٤٩ـ انظر تفصيلات أكثر عن توسعة الخليفة أبي جعفر المنصور للمسجد الحرام عند ، الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ٢ ، ص٧٣-٧٤ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص٥٦٠ ، المطهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، (باريس ١٩١٩م) جـ٦ ، ص٩١ ، الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة ، ص٢١٠ .

٥٠ـ تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٤٣ .

٥١ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٤٣ ، أبن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ١٧٣ــ١٧٤ .

٥٢ـ الأنصاري ، درر الفرائد ، ص٢٠٩ .

٥٣ـ الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ٢ ، ص٧٣ــ٧٤ ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي ، كتاب أخبار مكة ، تحقيق فواز الدهاس ، رسالة دكتوراة من جامعة أكستر ببريطانيا (١٩٨٣م) ص٣٢٠ــ٣٢١ .

٥٤ـ أبو زيد عمر ابن شبه ، كتاب أخبار المدينة ، تحقيق سليمان الغنام ، رسالة دكتوراة من جامعة مانشستر ببريطانيا (١٩٧٣م) ص١٤ ، تقي الدين محمد أحمد الفاس ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (بيروت ت. تاريخ النشر بدون) جـ١ ، ص٢٦٢ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، جـ٢ ، ص١٧٣ .

٥٥ـ أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٨٥ــ٨٦ .

٥٦ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ص٥٢٢ .

٥٧ـ أبو عبد الله الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق محمود شاكر (القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م) جـ١ ، ص٣٠٣ ، قطب الدين المكي النهروالي ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق أف. وستينفلد (بيروت ١٩٦٤) ص٩١ .

٥٨ـ أبو أحمد داود الدينوري ، الأخبار الطوال ، (القاهرة ١٩٦٠م) ص٣٧٩ــ٣٨٠ .

٥٩ـ أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي ، كتاب المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العُمري بغداد ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص١٣٩ .

٦٠ـ شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وآخرين (القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م) جـ٤ ، ص١٧ .

٦١ـ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ، جـ٣ ، ص٨٥ـ٨٦ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ، ص٢٣٤ .

٦٢ـ كان الخليفة أبو جعفر المنصور يتقرب إلى بعض علماء الحجاز خلال اجتماعه بهم وإعطائهم بعض الهدايا والأعطيات ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٥٣٩ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٧٣ ، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ص١٥٠.

الدراسة السادسة

أعمال الخليفة المهدي العباسي
الخيرية لأهل الحجاز
(١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٧٤ – ٧٨٥م)(*)

(*) بحث منشور في مجلة الدارة ، العدد (٤) سنة (١٦) (رجب ، شعبان ، رمضان / ١٤١١هـ) ص١١٣-١٢٩.



أعمال الخليفة المهدي العباسي
الخيرية لأهل الحجاز
(١٥٨ـ١٦٩هـ / ٧٧٤ـ٧٨٥م)

إن من يلق نظرة على تاريخ خلفاء بني العباسي ، يجد هناك اختلافا واضحاً في سياستهم التي اتبعوها ، وفي مشكلاتهم التي قابلوها ، بل وفي الظروف التي عاشها كل واحد منهم ، فالخليفتان السفاح (١٣٢/٧٤٩ – ١٣٦/٧٥٣م) ، والمنصور (١٣٦/٧٥٣م – ١٥٨/٧٧٤م) قد اصطدما بالعديد من الثورات أثناء إقامة دولتهما ، وكان من أشد وأعظم الثورات التي ظهرت في أراضي الحجاز خلال عهد أبي جعفر المنصور ، ثورة العلويين في المدينة التي تزعمها محمد بن عبد الله الحسن ، الملقب بالنفس الزكية ، والتي أوشكت أن تسقط خلافة العباسيين ، ولكن الظروف السائدة على أرض الحجاز ، وخصوصاً الحالة الاقتصادية التي كان يعيشها أهل المدينة ، التي كانت أرضهم ميداناً لظهور العلويين وثورتهم ، لم تكن حسنة ، بل ولم تكن في مستوى الأوضاع الاقتصادية التي تحيط بالخلافة والخليفة العباسي في العراق ، إلى جانب أن سياسة وحنكة وتفوق عبقرية المنصور كانت لا تقارن مع سياسة وحنكة قائد الثورة العلوية في الحجاز ، محمد النفس الزكية ومن قام من شيوخ وزعماء قبائل الحجاز ، لهذا كانت النتيجة أن أرسل

المنصور جيشاً إلى الحجاز قضى على العلويين وثورتهم ، ثم ألحق الإيذاء والعقاب بكل من شاركهم من عرب الحجاز ، فكان هناك من وضع تحت الضرب والتعذيب ومن ضيق عليه بمصادرة أمواله وممتلكاته إلى غيرها من الأساليب التي سلكها الخليفة المنصور ورجاله ضد أهل الحجاز (١).

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي قابلها أهل ، الحجاز خصوصاً أهل المدينة ، أثناء مساندتهم لمحمد النفس الزكية ، ثم هزيمتهم على أيدي جيوش الخليفة المنصور ، فلم يكن الأمر يتوقف عند هذا الحد ، وإنما الخليفة نفسه أصدر ضدهم العديد من العقوبات ، فأمر بقطع العطاء عنهم (٢) ، ثم تجاوز ذلك إلى أن قطع الميرة والصادرات الغذائية التي كانت تأتي إليهم من بلاد الشام ومصر وغيرها ، أيضاً سعى إلى قفل الطرق البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز ، فأدى كل هذا إلى تدهور الحياة الاقتصادية عند الحجازيين ، فارتفعت الأسعار، وقلت، بل وانعدمت المواد الغذائية في أسواقهم ، وعم الاضطراب والخوف بينهم ، وهذا كله كان بسبب تأييدهم للعلويين عندما ثاروا في المدينة ضد الخليفة عام (١٤٥/٧٦٢م) (٣) .

ولكن جاء بعد الخليفة المنصور ولده الخليفة المهدي (١٥٨/٧٧٤ – ١٦٩/٧٨٥م) ، فلم يكن يقابل مثل تلك المشكلات والثورات التي قابلها سلفه من قبل (٤) ، وإنما على العكس من ذلك فقد وجد حكماً مهيئاً لأن يتخذ سياسة مغايرة لمن سبقه ، فلم تكن هناك قلاقل أو حروب عسكرية يسعى إلى

المساهمة فيها ، ولم يكن هناك ثوار يقوم بالتصدي لهم ، وإنما كان عليه أن يقوم ببعض المساهمات الحضارية التي يصون بها أوضاع دولته، وكان جانب من جوانب المساهمات التي اتخذها هو أن نظر إلى الحجاز، أرضاً وسكاناً ، فعمل على التقرب منهم عن طريق فرض العطاء لهم بعد أن قطعه والده عنهم، بل وإعطاء الأعطيات والهبات ، وكذلك أقام بعض المشاريع العمرانية، والإصلاحات الاجتماعية لهذا رأينا أن تكون أهداف هذا البحث مركزة على الأعمال التي قدمها المهدي للحجازيين خلال عهد خلافته.

فعندما تولى المهدي الخلافة أمر بإعادة العطاء إلى معظم أهل المدينة (٥)، بل ويروي لنا الزبير ابن بكار أن الخليفة المهدي ولى المغيرة بن خبيب توزيع العطاء على أهل المدينة ، ثم أعطاه ألف فريضة يفرضها لمن يشاء من أهل المدينة (٦)، وهذا التصرف من قبل الخليفة يعطينا الانطباع في أنه قد أعاد العطاء إلى الحجازيين الذين قُطع عنهم في عهد والده ، ثم من المحتمل أنه فرض العطاء لأشخاص لم يسبق أن كانوا مسجلين في ديوان العطاء ، والسبب الذي يجعلنا نقول بهذا القول هو تلك الألف فريضة التي أعطاها الخليفة إلى المغيرة ليوزعها على من أراد من أهل المدينة.

ولم يكن يتوقف الخليفة المهدي عند ما سبق ذكره ، وإنما أعطى بعض أهالي الحجاز الإقطاعات لزراعية ، فيُذكر أنه أقطع الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب مالاً من الضرائب بالحجاز ، كما تشير بعض المصادر إلى أنه أعطى المغيرة بن خبيب الزبيري

عيوناً وأرض زراعية ببعض نواحي المدينة (٧)، ثم إنه لم يقتصر في أعطياته على الأراضي الزراعية والعيون وما شابهها، وإنما كان أيضاً يدفع المبالغ الكثيرة لمن قد يأتيه في العراق من عرب الحجاز، فتذكر بعض الروايات أنه استقبل في إحدى المرات الحسين بن علي بن أبي طالب، فأكرمه، وأحسن استقباله، ثم أعطاه مبلغاً قدره أربعون ألف دينار (٨). ومثل هذه التصرفات من الخليفة المهدي ربما تكون عائدة إلى طبعه وحبه للخير، وربما تكون عائدة إلى علاقاته مع بعض رجال الحجاز كالمغيرة الزبيري، حيث يذكر أن علاقته به كانت قوية، ولكن لابد أن تصرفاته أيضاً مع بعض رجال العلويين على وجه الخصوص، كانت قائمة على مبدأ سياسي حيث فكر في أن يحتوي من كان يوجس منه خيفة منهم فيقربه ويعطيه الهدايا والأعطيات الطيبة، وذلك يظهر واضحاً فيما قدم لكل من الحسن بن إبراهيم والحسين بن علي العلويين (٩).

أيضاً من أعمال الخليفة المهدي الخيرية تجاه أهل الحجاز أنه ذهب لأداء فريضه الحج سنة (١٦٠/٧٧٦م)، فقام بتوزيع مبالغ كثيرة من المال على الحجازيين، إذ يصف لنا الطبري (١٠)، ما عمل فيذكر أنه أحضر معه من العراق ثلاثين مليون درهم، ومائة وخمسين ألف ثوب، وجاءه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومائة ألف دينار من اليمن وتم توزيعها في تلك السنة على أهل مكة والمدينة .

ومع ذكر هذه الأرقام عن الطبري ، فقد جاء بعده عدد من المؤرخين الذين اختلفوا في ذكر بعض الأرقام التي سبق ذكرها ، فنرى المقدسي يتفق مع الطبري في المبلغ وعدد الثياب التي جاء بها الخليفة من العراق، إلا أنه لم يذكر المال الذي أرسل إلى الخليفة من مصر واليمن مع أنه نوه عن توزيع مال من تلك المناطق دون أن يذكر مقداره (١١)، أما أبن كثير (١٢) والنهروالي (١٣)، فلم يكونا يختلفان مع الطبري فيما يتعلق بالمال الذي جاء من العراق ، ومصر واليمن ولكنهما ذكرا أن الثياب التي جاء بها الخليفة ووزعها في أرض الحجاز لم يكن عددها إلا مائة الف ثوب ، أما الذهبي (١٤)، وابن تغري بردي (١٥)، فلم يذكرا اي شئ أرسل من مصر ، وإنما أشارا إلى المبلغ الذي جاء للخليفة من اليمن أنه كان يقدر بأربعمائة الف دينار ، كذلك ابن خلدون (١٦)، والعصامي (١٧)، وافقا الطبري على أن المال الذي وصله من اليمن مقداره مائة ألف دينار ، إلا أن ابن خلدون أشار إلى أن المال الذي جاء به الخليفة من العراق لم يكن مقداره إلاّ ثلاثين ألف درهم ، في حين أن العصامي قال إن الخليفة المهدي أحضر معه من العراق مليون درهم.

ومن يطلع على هذه الآراء المختلفة بين المؤرخين بعد الطبري ، يجد أنهم جميعاً متفقين على مجيئ الخليفة المهدي إلى الحجاز وتوزيع الهبات والأعطيات على السكان في كل من مكة والمدينة ، ولم يبق إلا ذكر الأرقام ومقادير المال الذي تم توزيعه فإنه ليس بمشكلة أساسية وذلك لما قد يحدث

من الخطأ في تدوين الأرقام ، فمثلاً عندما نرى ابن خلدون يذكر أن المهدي لم يأت معه من العراق إلا بثلاثين ألف درهم فليس ببعيد أن قصده كما قصد الطبري أن المبلغ ثلاثين مليون درهم وهذا من السهل أن يقع فيه الكاتب أو الناسخ وذلك للتشابه والتقارب بين الألفاظ .

ولم تكن أعمال الخليفة المهدي مقتصرة على توزيع المال والثياب في سنة (١٦٠/٧٧٦م) وإنما بعض المصادر التاريخية المبكرة تذكر أنه في تلك السنة نفسها أمر بإزالة كسوة الكعبة التي كانت عليها لقدمها ، ثم طلى جدرانها بالمسك والعنبر ، ثم كساها كسوة جديدة مصنوعة من القباطي، والخز والديباج (١٨)، بل وأمر ببعض الأراضي والأملاك التي كان قد صادرها والده بأن ترد إلى أصحابها الأصليين (١٩) ، وأشار ببناء بيوت للعجزة والمرضى في مكة والمدينة ، وإعطاء العطايا والهبات إلى كل المرضى المجذومين (٢٠)، وأمر أيضاً بتصدير الحبوب وخصوصاً القمح من مصر إلى بلاد الحجاز بعد أن كان قد قطع عنهم أثناء ثورتهم مع محمد النفس الزكية في عهد والده (٢١) ، ولأن المهدي كان يدرك أن تصدير الحبوب من مصر إلى أهالي الحجاز لا يسد حاجتهم ، لهذا أمر بنهر الصلة من مدينة واسط من العراق بأن يعمر وتزرع الأراضي من حوله ثم يرسل خمسي الإنتاج من محصوله إلى أهل الحجاز ، وأن تكون هبة سارية المفعول لمدة خمسين سنة (٢٢)، ومن يلق نظرة على قائمة الخراج التي أوردها ابن قدامة، في كتابه الخراج ، عام (٢٠٤/٨١٩م) يجد أن مقادير محاصيل نهر الصلة

كانت ألف كر من الحنطة، و(٣١٢١) كر من الشعير و (٥٩٠٠٠) درهم وبهذا لو حاولنا معرفة ما كان يرسل إلى أهالي الحجاز وعلى ضوء السياسة التي رسمها المهدي فإننا نجد نصيبهم كالآتي (٢٣) :

١. ١٠٠٠ X $\frac{٢}{٥}$ = ٤٠٠ كر من الحنطة .

٢. ٣١٢١ X $\frac{٢}{٥}$ = ١٢٤٨,٤ كر من الشعير .

٣. ٥٩٠٠٠X $\frac{٢}{٥}$ = ٢٣٦٠٠ درهم .

وبإيجاد هذه النسبة فإن المقدار الذي كان يرسل إلى الحجاز لم يكن بقليل ، وإنما قد يكفي لعدد لا بأس به من أهالي الحجاز .

واستمرت أعمال الخليفة المهدي تجاه أهل الحجاز ، إذ لم تتوقف عند زيارته لمكة والمدينة في عام (١٦٠/٧٧٦م)، وإنما كرر الزيارة في عام (١٦٤/ ٧٨٠م)، وانفق مبالغ طائلة على أهل المدينة ، فيذكر لنا ابن بكار قصته مع أهل المدينة في تلك السنة في أنه عند وصوله إليها ، اجتمع بأعيان قريش وفقهاء وعلماء المدينة وأمر لهم بأعطيات، ثم أمر أحد أصحابه ويدعى المغيرة فأخذ تلك الأعطيات ووزعها على أن " أصاب مشيخة بني هاشم أكثرهم نال خمسة وستين دينار ، وأقلهم خمسة وأربعين دينارا، ومشيخة القرشيين أكثرهم خمسة وأربعين دينارا، وأقل القرشيين سبعة وعشرين دينارا ومشيخة الأنصار أكثرهم سبعة وعشرين دينارا، وأقل الأنصار سبعة عشر دينارا ، والعرب أكثر من الموالي. . . ومشيخة الموالي خمسة عشر دينارا (٢٤).

ومن هذا النص نستنتج أن الخليفة وزع تلك الأعطيات على مستوى القرابة من أهل بيته إذ كان بنو هاشم ثم القريشيون هم من الأوائل في الحصول على النصيب الأكبر من تلك التوزيعات ، ومع أننا لا نعلم المجموع الكلي الذي تم توزيعه إلا أنه بالتأكيد كان كثيراً جداً لأن ابن بكار نفسه يختم حديثه بقوله إن مجموع الذين استفادوا من تلك الأعطيات كان عددهم يزيد على ثمانين ألف شخص (٢٥) .

ومن جانب آخر يتضح لنا أن الخليفة المهدي كان يُعير أهل المدينة كل الإهتمام ، فلم يكن يكتفي بتلك المبالغ التي ذكر ابن بكار في أنه وزعها سنة (١٦٤/ ٧٨٠م)، وإنما هناك صورة أخرى يرويها لنا ابن قتيبة، فيذكر أنه في سنة (١٦٧/٧٨٣م)، تم الالتقاء بين الخليفة المهدي وإمام دار الهجرة مالك ابن أنس ، فكان الأخير قد أوصى الخليفة المهدي أن يكون جواداً كريماً على أهل الحجاز وخاصة أهل المدينة ، ثم ذكّره بالحاجة الماسة التي هم فيها من ضيق العيش ، مع تذكيره بأنهم أهل مدينة رسول الله ﷺ، فلم يكن رد الخليفة عليه إلا أن " قال صدقت فيهم وبررت ، وحضضت على الرشد ، فأنت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك ، فأمر له بخمسة أبيات مال ، البيت عندهم خمسمائة ألف وأمر مالكاً أن يختار من تلاميذه رجالاً يثق بهم ، ويعتمد عليهم يقسمونه على أهل المدينة (٢٦).

ومن يقف عند النصين اللذين ذكرهما كل من ابن بكار وابن قتيبة أثناء زيارة الخليفة المهدي للحجاز في عامي (١٦٤/٧٨٠م) و (١٦٧/٧٨٣م)،

يجد أن الأعطيات التي أعطاها الخليفة لم تكن إلا على أهل المدينة دون أن يظهر أي ذكر لأهالي المدن الأخرى في أرض الحجاز ، ولهذا فإن هناك أكثر من احتمال في أن المصادر الأولية أغفلت ذكر هباته وأعطياته تجاه أهل مكة والطائف وجدة وغيرها من المدن أو أنها لم تهمله لأنه لم يكن يعطيهم شيئاً وإنما أعطى أهل المدينة لأهداف سياسية ، وخصوصاً بعد تذكر المواقف التي وقفها أهل الحجاز في عهد والده ولأن من كان يترأس الثوارت في عهد محمد النفس الزكية هم سكان وقبائل المدينة ، ثم لوجود الإمام مالك الذي كان يكن له الخليفة المهدي كل تقدير واحترام ، كل هذه الأمور جعلت الخليفة يسلك سياسة الحنكة والدهاء ، وذلك بإعطاء الأعطيات السخية لأهل المدينة بصفتهم يشكلون عليه خطراً وقد يثورون ضده كما ثاروا مع محمد النفس الزكية ضد والده من قبله ، وبهذا رأى أنه من الأحسن شراء قلوبهم بتلك الأموال التي يوزعها عليهم وفعلاً هذا ما كان يتطلع إليه وقد نجح في سياسته ، فلم نجد أي مصدر تاريخي يذكر قيام أي حركة أو ثورة سياسية من قبل أهل المدينة في عهده .

ومن أعمال الخليفة المهدي الخيرة ، أن قام ببعض الإصلاحات العمرانية في كل من مكة والمدينة ، حتى إنه ليذكر أنه في سنة (١٦٠/٧٧٦م) أنه رأى المسجد الحرام لا يتسع للزوار والحجاج أثناء أداء فريضة الحج، فأمر قاضيه بمكة، محمد بن عبد الرحمن المخزومي بأن يشرف على توسعة المسجد وأن تكون بداية العمل في عام (١٦١/٧٧٧م)،

والنهاية لهذا المشروع في عام (١٦٤/٧٨٠م) (٢٧) ، إلا أن تلك التوسعة لم تكن كافية فأمر الخليفة المهدي بتوسعة ثانية بدأت في عام (١٦٧/٧٨٣م) وانتهت في عهد الخليفة الهادي عام (١٧٠/٧٨٦م) (٢٨) ولكن على ذكر هذه التوسعة الأخيرة فقد ورد بعض الاختلافات بين أراء المؤرخين في تحديد العام الذي أعطى الخليفة أمره في التوسعة الثانية، إذ يذكر الأزرقي(٢٩)، والفاسي(٣٠) أن الخليفة المهدي ذهب إلى مكة في حج عام(١٦٤/ ٧٨٠م) فرأى توسعة الحرم الأولى غير كافية، ثم إن هندسته المعمارية لم تكن ملائمة لأن الكعبة المشرفة لم تكن تتوسط صحن المسجد ، لهذا أعطى الأمر بأن تتم توسعته مرة ثانية ، إلا أن هذه لم يبدأ فيها بشكل عملي إلا في عام (١٦٧/٧٨٣م)، وأن تلك السنوات الثلاث بين إعطاء الأمر في عام (١٦٤/ ٧٨٠م) وبين (١٦٧/٧٨٣م)، لم تكن إلا تهيئة واستعداداً للبدء في العمل ، ولكن الفاكهي ذكر رأياً آخر حول العام الذي أعطي فيه أمر التوسعة الثانية بأنه كان في رمضان من عام (١٦٦/٧٨٢م) مع العلم أنه اتفق مع الأزرقي والفاسي على عام (١٦٧/٧٨٣م) بأنه كان بداية للعمل الحقيقي (٣١)، أما الأنصاري (٣٢)، فأختلف مع كل الآراء السابقة ذاكراً أن الخليفة ذهب للحج في عام (١٦٤/ ٧٨٠م) دون أن يذكر هل أعطى أوامر جديدة بالبدء في التوسعات الثانية موضحاً أن هذه التوسعة بدأت في عام (١٦٦/٧٨٢م)، وعلى ضوء هذا الخبر الذي زودنا به الأنصاري لا ندري هل رأى الخليفة التوسعة الأولى في عام (١٦٤/ ٧٨٠م) ثم

أعطى أوامره على ضوء ما رأى أم أنه جاء إلى مكة كما ذكر الفاكهي في عام(١٦٦/٧٨٢م) ثم أمر بالتوسعة والبدء في العمل في نفس العام (٣٣).

ومن النظر في خلال الآراء المتعددة السابقة ، يظهر لنا أنها أجمعت على أن عام (١٦٧/٧٨٣م) كان نقطة البداية الحقيقية للعمل ، إلا أن الأنصاري قد شذ عن آراء الآخرين بذكره أن البداية في عام (١٦٦/٧٨٢م)، ومهما كان الأمر فإن الخليفة بدون شك قد حج عام (١٦٤/ ٧٨٠م). ورأى التوسعة الأولى التي انتهت في نفس العام ثم أعطى الأمر بالاستعداد للتوسعة الثانية إلا أن بعض من كان يتشاور معهم من أصحابه ورجال الحجاز أخبروه أن التوسعة الثانية قد تحتاج إلى أموال طائلة وخصوصاً أنه كان يطمح إلى توسيع الحرم حتى يوسط الكعبة في صحن المسجد ، فلم يسمع لما قالوا وإنما عزم على تنفيذ ما كان يهدف إليه قائلاً " لا بد أن أوسعه حتى أوسط الكعبة . . . ولو أنفقت ما في بيوت الأموال (٣٤) " .

وقد امتدت إصلاحات الخليفة إلى المدينة ، فعمل على توسعة المسجد النبوي في عام (١٦٠/٧٧٦م) حين أعطى واليه على الحجاز جعفر بن سليمان العباسي الإشراف العام على تنفيذ تلك التوسعة ويصف لنا ابن النجار الخطوات التي اتبعها جعفر في تنفيذ رغبة الخليفة وذلك بذكر كتابة نقشها جعفر في صحن المسجد بعد الانتهاء من العمل كان قد ابتدأها بالبسملة والحمد ثم الدعاء للخليفة المهدي الذي تولى الإنفاق على ذلك المشروع الخيري ، ثم ذكر العام الذي تمت فيه بداية تنفيذ

التوسعة وذلك العام الذي انتهت فيه فيقول " وكان مبتدأ ما أمر به عبد الله المهدي، محمد أمير المؤمنين أكرمه الله من الزيادة في مسجد الرسول ﷺ في سنة اثنين وستين ومائة، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائة ، فأمير المؤمنين أصلحه الله يحمد الله على ما أذن له وأختصه به من عمارة مسجد رسول الله ﷺ(٣٥).

ومن إصلاحاته العامة أن قام بإنشاء بعض الحمامات والبرك العامة في كل مكان من مكة والمدينة حتى أن الحربي يصف لنا بعض الحمامات التي أمر بإصلاحها بأنه كانت ذات مدخلين أحدهما للرجال والآخر للنساء(٣٦)، ومن اهتماماته أيضاً أن قام بصيانة الطرق التجارية الموصلة من العراق إلى الحجاز ، فأنشأ محطات استراحة وزودها بالمياه والمساكن والحمامات، إلى جانب أنه عين عليها مسئولين من قبل الخلافة يقومون بالحفاظ عليها وحماية التجار والحجاج الذين يرتادونها من اعتداء اللصوص وقطاع الطرق ، بل وأنشأ لأول مرة بريداً منظماً يربط مابين المدن العراقية وأرض الحجاز واليمن مستخدماً البغال والجمال لتكون الوسيلة التي ينقل عليها الأعمال البريدية بين تلك الأنحاء(٣٧).

وبهذه الأعمال الإصلاحية نجد أن الخليفة كان لا يتوانى في تقديم المساعدات للحجازيين مالياً وعمرانياً فرأيناه يذهب بنفسه إلى المدن الحجازية وخصوصاً المدينة فيوزع الأموال الطائلة على أهلها ثم يزور المرضى والمجذومين فيعطيهم العطايا والهبات ، ثم يتجه إلى بناء المشاريع

فيوسع الحرمين المكي والمدني ، وأقام بعض المنشآت الأخرى كبناء البرك والحمامات في المدن نفسها ، وحسن الطرق التجارية وخصوصاً التي تربط بين الحجاز وعاصمة خلافته في العراق .

ومن هنا نستطيع القول إن سياسة الخليفة المهدي كانت مغايرة لسياسة والده من قبل ، فلم يكن يستخدم العنف ضد العلويين والحجازيين على حد سواء ، وإنما على العكس من ذلك فكان يتقرب إليهم خلال زيارته المتكررة لهم ، بل وعن طريق الهدايا ، والأعطيات والأعمال الخيرية التي كان يقدمها لهم ، وفي نظر الباحث أن المهدي كان ناجحاً في كسب ود أهل الحجاز وشراء قلوبهم بما كان يقدم لهم والدليل على ذلك أننا نجد المصادر لا تشير إلى حدوث أي ثورة أو اضطرا بات سياسية في الحجاز خلال عهده، في حين أننا لو قارنا عهود من جاء قبله وبعده نجد الحجازيين على رأس قائمة الثوار ضد الخلفاء (٣٨) ، وهذا الوضع يؤكد على سياسة اللين والمداهنة التي كان يسلكها الخليفة المهدي، والتي أثمرت بدون شك في انتشار الاستقرار والهدوء السياسي في البلاد بعكس ما كانت عليه في عهد الخليفة المنصور، أو عهد الخليفة الهادي الذي جاء إلى دفة خلافة بني العباسي بعد الخليفة المهدي (١٦٩/٧٨٥ – ١٧٠/٧٨٦م).

ولا ننكر أن الخليفة المهدي قد نفذ تلك الأعمال الخيرية المشار إليها في البحث من منطلق حبه للخير ورغبته في الحصول على الأجر من الله ، ثم معرفته الحقة إلى أن الخدمات التي كان يقدمها كانت لأرض وأهل

الحرمين ، إلا أنه أيضاً كان يسعى إلى هدف أعظم من ذلك كله وهو الهدف السياسي ، فكل ما قدم من أعمال حسنة أخمد بها غضب العلويين والحجازيين على العباسيين ، بل وأجّل ترتيباتهم وتنظيماتهم السياسية والعسكرية ضد الخلفاء العباسيين ، إلى جانب أنه نجح في كسب قلوبهم ، ثم نال السمعة والشرف بحفظ أرض الحرمين تحت لواء خلافته، بل وربما نال في عهده بعض السمعة الإعلامية على كل ما كان يقدم من أعمال طيبة تجاه الحرمين وأهله.

الهوامش والتعليقات

١- عن ما لحق بأهل الحجاز من جراء مساندتهم لثـورة محمـد الـنفس الزكيـة ، ومـا طبـق علـيهم الخليفـة المنصور ورجاله من عقوبات أنظر ، أبا جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تـحقيق محمد أبي الفضل إبـراهيم (القـاهرة ١٣٨٠ / ١٩٦٠م) جـ٧ ، ص٤٧١ ومـا بعـدها ، علـي بـن الحسـين المسـعودي ، مـروج الـذهب ومعـاون الجـوهر ، تحقيـق شـارل بـيلا (بـيروت ١٣٨٦ / ١٩٦٦م) جـ٤ ، ص١٣٩-١٥٥. Farug Umar " Samc Of The Abbasid – Husaynid Relation During The Early Abbasid Period, 132-193 .A .H / 750-809 A.D.U Arabica, Vol. XXII (1975), PP. 170 ff يبدو أن الخليفة المنصـور كان يصطنع من أهل الحجاز بعض الرجال الذين كانوا عوناً له علـى العلـويين ، ومـن كـان يسـاعدهم مـن عرب الحجاز ، لهذا كان يجزل لهم العطايا والهبات، بل ويقربهم إليه عندما كانوا يذهبون إلى العراق ، أو عندما كان الخليفة نفسه يذهب إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ، أنظر تفصـيلات أكثـر . عبـد الله الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق محمود شاكر (القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١م) جـ١ ، ص٣٠٣، نجم الدين محمد بن فهد ، إتحاف الوراء بأخبـار أم القـرى ، تحقيـق فهـيم شـلتوت (القـاهرة ١٤٠٤ / ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص١٧٧ ، قطب الدين النهروالي ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحـرام ، تحقيـق اف. وستينفلد (بيروت ١٩٦٤م) ص٩١

٢- الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٦٠٣ ، عن العطاء وتطوره في القرون الإسلامية المبكرة ، أنظـر صـالح أحمـد العلي " العطاء في الحجاز ، تطور تنظيمه في العهـود الإسـلامية الأولى " مجلـة المجمـع العلمـي العراقـي (١٣٩٠ / ١٩٧٠م) جـ٢ ، ص٣٧٠ وما بعدها .

٣- انظر تفصيلات أكثر ، الطبري ، تاريخ ، جـ٢٧ ، ص٦٠٣ ، حمد الجاسـر ، في شمـال غـرب الجزيـرة ، نصوص، مشاهدات ، انطباعـات (الريـــــــــــــــــــاض ، ١٣٩٠ / ١٩٧٠م) ص٢٠٩.

Umar " Same Aspects " PP. 171 ff, Jacab Lassner " Provincial Administration Under The Early Abbasids : Abu-Jafar al-Mansur and The Governors Of The Haramayn " Studia Islamica, Vol XLIX (1979) , PP. 39 ff , Fr. Buhl " Muhammad B. Abdallah " Encyclopaedia Of Islam, Vol. III , PP. 665 ff, A. S. Tritton " Notes On The Muslim System Of Pension Bulleton Of The School Of Oriental and African Studies, Vol. XVI (1954) PP. 170-2

٤- انظر في المصادر والمراجع التالية توضح الثورات السياسية التي ظهرت في عهد الخليفة المنصور، ثـم كيـف استطاع الخليفة القضاء عليها ، الطبري ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٦٠ ومـا بعـدها، أحمـد شـلبي ، موسـوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الخلافـة العباسـية، ط٦ (القـاهرة ، مكتبـة النهضـة المصـرية ، ١٩٧٨م) جــ٣ ، ص٨١ ومـا بعـدها. **Jacob Lassner, The Shapping Of The Abbasid Rule (Princeton, 1980) pp. 20 ff .**

٥- تاريخ ، جـ٧ ، ص ، ٦٠٣

٦- ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص ، ١٢٤ وما بعدها ، وقد أشار إلى هذه النقطة مصادر ومراجـع أخـرى ، أحمد بن علي البغدادي ، تاريخ بغداد ومدينة السلام (القاهرة ، ١٣٤٩/ ١٩٣١م) جــ١٣ ، ص ، ١٩٤، العلي " العطاء " ص ، ٦٠ وما بعدها **Tritton,"notes .." P :171**

٧- ابن بكار ' جمهرة ، جـ ١ ، ص ، ١٠٩ ، أبو عبد الله مصعب الزبيري كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة ، ١٩٥٣م) ، ص ، ٢٤٢ ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري . معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ، ١٣٦٤ / ١٩٤٥م) جـ١ ،ص١٦٦

٨- الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ، ٢٠٠

٩- ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو أن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب لم يتورع عن القيام بثورة ضد الخليفة الهادي ، الذي خلف الخليفة المهدي ، وذلك لأنه لم يجد الهادي على نمط السياسة التي كان عليها المهدي وإنما وجد الخليفة كان شديداً على العلويين لهذا ثار ضده في الحجاز عام (١٦٩/٧٨٥م)، وبهذا نستطيع القول بأن الخليفة الهادي كان تقريباً مثل الخليفة المنصور حيث كان كل واحد منهما شديداً في سياسته ضد العلويين في حين أن الخليفة المهدي كان قريباً في سياسته من الخليفة السفاح ، وذلك بحبهما للمهادنة وشراء قلوب الرجال الذين يخافون منهم بالمال وإعطاء العطايا والهبات . انظر بعض التفصيلات عن سياسة السفاح وما كان يقدمه للعلويين، الطبري ، تاريخ ، جـ ٧ ، ص ، ٤٦٠ وما بعدها ، أحمد بن يحيى البلاذري ، أنساب الأشراف تحقيق محمد المحمودي (بيروت، ١٣٩٧ / ١٩٧٧م) جـ ٣ ، ص ، ٨٠ـــ٨٢ ، أحمد بن محمد بن عبدربه ، كتاب العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ، ١٩٦٧م) ، جـ ٥ ، ص ، ٧٤ .

١٠- تاريخ ، جـ ٨ ، ص ، ١٣٣ .

١١- المطهر ابن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ (باريس ، ١٩٦١م) ص ، ٩٦ .

١٢- ابسماعيل بن علي أبو الفداء بن كثير ، البداية والنهاية (بيروت ، الرياض ، ١٩٦٦م) جـ ١٠ ، ص،١٣٢.

١٣- الإعلام ، ص ، ٩٩ .

١٤- شمس الدين محمد الذهبي ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير (القاهرة ، ١٣٦٩هـ) جـ ٦ ، ص ، ١٦٧ .

١٥- جمال الدين يوسف ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر، والقاهرة (القاهرة ، تاريخ النشر بدون) ، جـ٢ ، ص ، ٣٦ .

١٦- عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ٣ ص ، ٤٤٤ .

١٧- عبد الملك بن الحسين العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (القاهرة ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠م) جـ٣ ، ص ، ٣٦٥ .

١٨- الطبري ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ١٣٣ ، مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ليدن.١٨٦٩م) جـ٣ ، ص ، ٢٦٢ ، الذهبي ، تاريخ ، جـ٦ ، ص ١٦٧ ، العصامي، سمط، جـ٣، ص ، ٢٦٥.

١٩- الطبري ، تاريخ جـ٧ ، ص ، ٦٠٣ .

٢٠- المقدسي، البدء ، جـ٦ ، ص ، ٩٦ ، عز الدين أبو الحسن ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٣٨٥-١٣٨٧هـ) جـ٦ ، ص ، ٥٧ .

٢١- عبد الله الزبير ابن بكار ، أخبار الموفقيات (بغداد ، ١٣٩٢هـ) ص ، ٣٣٩ ، ابن كثير ، البداية ، جـ١٠، ص، ٢٦٢ ، الجاسر ، في شمال ، ص ، ٢٠٩ .

٢٢- أبو الفرج قدامه ، كتاب الخراج (ليدن ١٨٨٩م) ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

٢٣- قدامه ، المصدر نفسه ، والكر هو أكبر أحجام المكاثيل عند العرب ، وقد يعادل (١٦٥٠) غرام بالأوزان الحديثة، انظر محمد ابن منظور ، لسان العرب ، (بيروت ١٩٧٥م) جـ٥ ، ص ، ١٣٧ ، محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ط٣ (القاهرة ١٩٦٩م) ص ٣٥٥ ، ٣٥٧ .

٢٤- ابن بكار ، جمهرة ، جـ١ ، ص ، ١١٠-١١١ .

٢٥- المصدر نفسه .

٢٦ـ أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبه ، الإمامه والسياسة (بيروت ١٣٧٨ / ١٩٦٧م) جـ٢ ، ص ، ١٥١-١٥٢ .

٢٧ـ أبو الوليد محمد الأزرقي ، أخبار مكة ، تحقيق رشدي ملحس (مكه ، ١٤٠٣) جـ٢ ، ص ، ٧٤ ، أبو عبدالله محمد بن اسحاق الفاكهي ، كتاب أخبار مكه ، رسالة دكتوراه من جامعة اكستر ببريطانيا ، تحقيق فواز الدهاس (١٩٨٣م) ص ، ٣٢٢ ، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار بيت الله الحرام (بيروت ، تاريخ النشر بدون) ، جـ١، ص، ٢٢٥.

٢٨ـ الأزرقي ، أخبار ، جـ٢ ، ص ، ٨٠ـ٨١ ، الفاكهي ، أخبار ، ص ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، الطبري، تاريخ ، جـ٨ ، ص ، ١٦٥ .

٢٩ـ أخبار ، جـ٢ ، ص ، ٧٨ـ٨٠ .

٣٠ـ شفاء ، جـ١ ، ص ، ٢٢٥ .

٣١ـ الفاكهي ، أخبار ، ص ، ٣٢٦-٣٢٧ .

٣٢ـ عبد القادر محمد الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطرق مكة المعظمه (القاهرة، ١٣٨٤هـ) ص ، ٢١٧-٢١٧.

٣٣ـ المصدر نفسه .

٣٤ـ الأزرقي ، أخبار ، جـ٢ ، ص ، ٧٩ ، الفاكهي ، أخبار ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

٣٥ـ محب الله ابن محاسن البغدادي ابن النجار ، كتاب الدره الثمينه في أخبار المدينه (مكه ، تاريخ النشر بدون ص ٣٧٤-٣٧٥ .

٣٦ـ أبو اسحاق ابراهيم الحربي ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (الرياض ١٣٨٩ / ١٩٦٩م) ص، ٤٠٩ .

٣٧ـ انظر المصادر التالية : الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ، ١٣٦ ، ١٦٢ ، أبـو العبـاس أحمـد المقريـزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حـج مـن الخلفـاء والملـوك (القـاهرة ١٩٥٥م) ص ، ٤٥ ، ابـن تغـري بـروي . النجوم ، جـ٢ ، ص ، ٥١ .

٣٨ـ هناك العديد من الثورات والاضطرابات السياسية التي حدثت في الحجاز خلال عهـود بعـض خلفـاء بـني العبـاس الأوائـل أمثـال المنصـور والهـادي والمـأمون (١٩٨/٨١٣ – ٢١٨/٨٣٣م) . انظـر تفصـيلاً أكثـر. الطـبري، تـاريخ ، جـ٧ ، ص ، ٥٥٢ ومـا بعـدها ، جـ٨ ، ص ،١٩٣ – ٢٠٣ ، ٥٢٨ ومـا بعـدها، عبدالله بن سعد اليافعي ، كتاب مرآة الجنان وعبرات اليقظان (حيدر أبـاد ، ١٣٣٧/١٩١٨م) جـ١ ، ص، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٤١٨ . Lassner, The shapping , pp , 70ff, idem, "Provinicial Administration ... " pp. 41ff; umar , " Same Aspects ... " pp.170 ff

الدراسة السابعة

أهم الحرف والصناعات في الحجاز

خلال القرون الإسلامية الأربعة الأولى (*)

(*) بحث منشور في مجلة المنهل ، العدد (٤٩٣) مج (٥٣) (جمادى الأولى والآخرة / ١٤١٢هـ ١٩٩١م) ص ٨٢-٩٦ .

أهم الحرف والصناعات
في الحجاز
خلال القرون الأربعة الأولى

إن الحياة الحرفية والصناعية من أقل المواضيع التي ناقشها المؤرخون خلال العهود الإسلامية الأولى فعندما نريد معرفة أوضاع أي حرفة معينة خلال العصور الإسلامية المختلفة فربما لا نجد المعلومات الكافية لإعطائنا صورة واضحة عن هذا الجانب الحضاري ، إلى جانب أن الاقتصار على الكتب التاريخية البحتة لا يكفي لبحث مثل هذا الجانب ، ولابد من الاطلاع على مصادر أخرى متنوعة ككتب الأدب والجغرافيا والطبقات والتراجم وغيرها، ثم إن دراسة مثل هذه الجوانب قد يختلف من مكان الى آخر وذلك حسب أهمية المكان ومادون عنه من معلومات حفظته لنا المصادر الاولية فدراسة الحرف والصناعات فى العراق أو بلاد الشام ليست فى نفس المستوى لموضوع قد يدرس حول هذا الجانب في المنطقة الحجازية لإخراج بحث متكامل من جميع جوانبة ، في حين أن المناطق الحجازية قد ينقصها توافر المعلومات والسبب فى ذلك يعود الى درجة التدوين والتأليف إذ إنة كان قليلاً عن الحجاز إذا ما قارناه مع غيره من أجزاء العالم الإسلامي وخصوصاً تلك المناطق التي كانت تحيط، أو تقرب من مراكز الخلافة سواء في الشام او العراق او بلاد مصر وغيرها من المدن الحضارية في الدول الإسلامية.

ولكن مع قلة المادة التي نعترف بها جميعا حول المدن الحجارية فلم أكن آيساً في أن لاأجد بعض المعلومات التي تدل على وجود حرف وصناعات متعددة عند أهالي الحجاز خلال العهود الإسلامية المبكرة ، ولهذا فقد جمعت انواعا مختلفة من المصادر الأولية، حصلت عن طريقها على بعض الحقائق حول عدد من الحرف والصناعات المتواجدة عند الحجازيين والتي ستكون موضوع هذا البحث ، علما أني لم أشمل كل الحرف والصناعات الموجودة عندهم، ولكن ركزت على أهمها وأكثرها نشاطا ، وسوف تناقش على النحو الاتي:

دباغة الجلود وخرازتها، النجارة، النسيج والخياطة والصباغة، التعدين والحدادة، الصياغة، ثم حرف أخرى متنوعة.

أولا: دباغة الجلود وخرازتها :

إن احتراف دباغة الجلود وصناعتها قد عرفت في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية في عصور مبكرة قبل الإسلام فلم يكن استخدامها والتجارة فيها على نطاق المستوى المحلي الاقليمي فقط، وإنما كانت سلعة عالمية يتاجر فيها تجار شبة الجزيرة ، وخصوصا الحجازين ،الى انحاء بعيدة ومتعددة من العالم (١). وقد افادتنا بعض المصادر الإسلامية المبكرة عن المدن الحجازية التي كانت ذات شهرة عالمية في هذه الحرفة، فيذكر الهمداني (٢) والبكري (٣) أن مدينة الطائف كانت المدينة الرئيسة في دباغة وتصنيع وتجارة الجلود الجيدة النوعية. كذلك الادريسي (٤) وابن المجاور (٥)،

وياقوت الحموي(٦) وقد وافقوا الهمداني والبكري على ماذكرا ثم أضافوا أن سلعة الجلود المدبوغة في الطائف كانت من السلع الإساسية التي يعتمد عليها المجتمع الطائفي وذلك بترويجها والتجارة فيها ليس في شبه الجزيرة فحسب، ولكن في أماكن عديدة من العالم.

الأ أن الطائف لم تكن هي الوحيدة في الحجاز التي تمارس فيها مهنة دباغة الجلود وإنما وجد في مكة وجدة والمدينة من يزاول هذه الحرفة، لكنها لم تكن في مستوى النوعية وكثرة الانتاج التي كانت في مدينة الطائف (٧)، كما أن هذه المدن نفسها لم تكن في مستوى واحد من حيث الجودة والانتاج للجلود المدبوغة وتاتي مكة في المرتبة الثانية بعد الطائف كما كان هناك عدد من الحرفيين يعملون في دباغة الجلود فيها، الا انها ايضا تعتبر السوق المركزي لترويج وتصدير انتاج اهالي الطائف من الجلود المدبوغة الجاهزة، ثم إن بعض الطائفين انفسهم قد يذهبون الى مكة للاستقرار بها ومزاولة حرفة الدباغة الا ان مثل هذا الانتقال من الطائف الى مكة لم يؤثر على سمعة الطائف في ان تتصدر المنطقة الحجازية في مزاولة هذه الحرفة (٨).

وبما ان أي حرفة أو صناعة تحتاج الى عوامل مساعدة ومواد اولية، فان دباغة الجلود تحتاج الى الجو الملائم للدباغة، كأن يكون جافاً وذا هواء معتدل ، ثم يستلزم وجود المادة الاولية للدباغة وهي جلود الحيونات الصالحة لمزاولة حرفة الدباغة ثم المواد والمحتويات التي تضاف الى الجلود أثناء دباغتها، وعادة تكون من اوراق ولحاء بعض الاشجار المخصصة لمثل هذه

المهنة. واذا كانت هذه اللوازم التي يحتاج اليها من يحترف مهنة الدباغة فإنه لحسن الحظ انها كانت متوفرة في الحجاز وخصوصا في الطائف ومايحيط بها، فهي ذات جو عليل جدا لممارسة الدباغة، ثم إن الحيونات والأشجار الضرورية للدباغة كانت موجودة وبكثرة ليس في الطائف وضواحيها وإنما في أماكن عديدة من أرض الحجاز(٩)، ولهذا فلم يكون هناك أي عقبة لمزاولة مهنة الدباغة في الطائف وغيرها من المدن الحجازية.

ولكن نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية ربما كانت غير واسعة ونشيطة حتى تستهلك جميع جلود الحيوانات التي كانت موجوده في المنطقة والدليل على ذلك أننا نجد عدداً من المصادر تذكر نشاط استيراد الجلود غير المدبوغة من غير مناطق الحجاز حتى يتم دباغتها في كل مكان من مكة والطائف.، وكانت المدن اليمنية وكذلك المدن العراقية وبلاد فارس وخرسان من أنشط البلاد التي تصدر هذه السلعة الى الحجاز حيث يتم دباغتها هناك ثم تصديرها مرة ثانية الى أنحاء العالم(١٠).

اما المواد الاساسية التي تضاف الى الجلود اثناء دباغتها ،والتي يمكن الحصول عليها من بعض الاشجار والنباتات، فنجد كلاً من الدينوري(١١)، وابن سيده(١٢) يذكران قائمة بأسماء الأشجار والنباتات التي تستخدم أورقها في حرفة ودباغة الجلود ، ولم يكونا يكتفيان بذكر الأسماء فقط لهذه الأشجار إنما استطردا في وصف كل شجر أو نبات ونوعية الجلد الذي يتم دبغه مع التوضيح لبعض الأشجار المهمة والتي تكون أكثر صلاحية من

غيرها في دباغة الجلود وإعطاء صفات جيدة كالنعومة واللون للجلد المدبوغ، ومن يطلع على أسماء الأشجار والنباتات التي ذكرها كل من الدينوري وابن سيدة ، فإنه سيجدها جميعا في شبه الجزيرة العربية وخصوصا أراضي الحجاز مع العلم أن أهم وأحسن الاشجار التي تستخدم والمتواجدة بوفرة في المناطق الحجازية هي أشجار القرظ (١٣) التي لاتزال تغطي أجزاء واسعة من أودية وجبال الحجاز، والتي كانت من أهم المواد الاساسية التي يعتمد عليها العاملون في مهنة الدباغة، اذ كانوا يذهبون هم بانفسهم لجمعها من أماكنها واحضارها إلى الأماكن التي تمارس فيها المهنة، أو انه كان هناك من هو متخصص في جمع الأخشاب والأشجار المتنوعة ومن ضمنها شجر واوراق القرظ الذي يحضر إلي الأسواق والأماكن المتخصصة في بيعها فيتصل الدباغون بهؤلاء المهنيين ويشترون منهم مايحتاجون لكي يمارسوا حرفتهم في الدباغة (١٤).

وحيث ان المصادر الأولية اكدت على نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية خلال العهود الإسلامية الأولى إلاّ انه لايزال لدينا بعض الغموض عن الطرق المتبعة والخطوات التي تتخذ أثناء عملية الدباغة، ثم أننا لاندري هل كان يعمل الدباغون في كل من مكة والطائف وغيرها على شكل نقابات وجماعات يتعاونون لمزاولة هذه الحرفة، أم انهم فقط كانوا يعملون على شكل أفراد أو أسر مستقلة بعضهم عن الآخر، مع العلم ان الدينوري وابن سيدة في فصليهما اللذين خصصاهما للدباغة زودانا

بمعلومات قيمة على بعض الخطوات التي تتبع أثناء الدباغة وزيادة على ذلك فقد ذكرا الأشجار وبعض الأدوات التي يستخدمها الدباغون أثناء مزاولة أعمالهم (١٥).

ومع وجود هذا كله فالنقص لايزال واضحا وخصوصا في الطرق التكتكية لممارسة هذه الحرفةثم مدى ثقلها وعلاقتها بالأسواق والحرف الأخرى، ثم أيضا التحديد والتعريف بالأماكن التي كانت تقام فيها المدابغ، علما أن عملية الدباغة قد تسبب مخلفات قذرة، وكذلك رائحة غير طيبة فلهذا لاندري عن العاملين في هذه الحرفة وكذلك القائمين على الحفاظ على نظافة المدن هل كانوا يحتاطون لمثل هذه الأمور أم لا.

وطالما ان حرفة الدباغة تمارس بشكل جيد في مناطق الحجاز، لهذا لابد ان يكون هناك حرفة الخرازة التي هي في الأساس تابعة لمهنة الدباغة فبعد عملية الدبغ تاتي صناعة هذه الجلود المدبوغة وتشكيلها على نمط ادوات مختلفة، وقد يكون هناك من فئة الدباغين من يجيد حرفتي الدباغة والخرازة معا، او ان الخرازين المتخصصين يقومون بالاتصال بالدباغين والتعاون معهم لكي يحولوا أنتاجهم إلى أدوات اكثر صلاحية للاستعمال، فتروي لنا بعض المصادر عن تواجد الخرازين وبكثرة في المدن الحجازية، وخصوصا في مكة حتى انهم صاروا من كثرتهم يسيطرون على اماكن اصبحت خاصة بهم، بل وعرفت بأسواق أو أزقة الخرازين في اماكن متعددة من مكة (١٦)، في حين ان مصعب بن الزبيري يتحدث عن هؤلاء الحرفين في

المدينة بمثل الصورة التي تحدثت المصادر عن مكة (١٧)، ولكن الشئ الغريب ان المصادر ركزت على تواجد الخرازين بكثرة في كل من المدينة ومكة، في حين ان الطائف قد امتازت بشهرتها في الدباغة للجلود إلاّ انه لايذكر عنها شئ كثير في مهنة الخرازة ، وهذا أمر يجعلنا نتساءل هل كان أرسال كل الجلود المدبوغة في الطائف الى المدن الكبرى كالمدينة ومكة حيث يتم صناعتها ثم تصديرها ؟ أم ان الطائف كانت قد اهتمت بحرفة الخرازة إلاّ ان شهرتها في الدباغة كانت أكبر لهذا ركزا المؤرخون على حرفة الدباغة أكثر من غيرها ؟ وهاذان الاحتمالان ربما كانا واردين، فالطائف كانت تصدر انتاجها من الدباغة ليس الى المدن الحجازية فقط ولكن إلى أنحاء عديدة من العالم، ثم إنه لابد ان يكون قد عمل الطائفيون على تصنيع الجلود وخرازتها على أشكال مختلفة(١٨).

ثانيا : النجارة:-

إن حرفة النجارة ذات أهمية كبيرة عرفتها المجتمعات منذ القدم ومن يطلع على تاريخ شبه الجزيرة بشكل عام وتاريخ الحجاز بشكل خاص، يجد ان سكان هذه المناطق قد عرفوا مهنة النجارة، وان هناك من كان يعالج الأدوات الخشبية عن طريق النجارة على المستوين الفردي والجماعي ولأهداف تجارية عامة وكذلك لاستخدامات شخصية خاصة فعند ئذ يتم انتاج أدوات خشبية متنوعة في الأشكال والأغراض (١٩).

ولتواجد مهنة النجارة في أي مكان فانه يتطلب لها بعض المقومات الأساسية التي تستند عليها، ومن اهم هذه المقومات توافر الأيدي الفنية العاملة ثم توافر المواد الأولية لصناعة الأخشاب التي تتمثل في الخشب نفسة الذي يتوافر في الأشجار الصالحة لمزاولة هذه الحرفة.

ومن حسن الحظ فان هذه المقومات الأساسية تتوفر في منطقةالحجاز، فتروي لنا عدد من المصادر وجود النجارين في كل من مكة والمدينة، و أن مزاولتهم لمهنة النجارة لم تكن قاصرة على سد الحاجة الخاصة للفرد، وانما كانوا يمارسونها على أنها حرفة تجارية يسعون من وراء مزاولتها الى الكسب وسد الحاجة في وقت واحد ثم ان الأماكن التي كانوا يتخذونها للعمل لم تكن قاصرة على البيوت فقط وانما كان لبعضهم أجزاء خاصه بهم في الأسواق وبعض الأماكن الأخرى في كل من مكة والمدينة(٢٠)، ومع ان المؤرخين الأوائل يخبروننا بتواجد من يزاول النجارة في المدن الحجازية، إلاّ انهم لم يفصحوا عن مستوى اولئك النجارين في أعمالهم التي ينتجونها، ولاعن الطرق التي كانوا يتبعون أثناء مزاولتهم حرفتهم، بل ولا كمية انتاجهم هل كان يكفي حاجة المجتمع الحجازي، وهل كان يصدر منه شيء الى خارج الحجاز؟ كل هذه النقاط لم تكن توضح الاّ ان بعض الروايات تذكر ان علية القوم وأغنياء المجتمع الحجازي، وكذلك الأمراء والخلفاء في عهد بني أمية وبني العباس كانوا لايقصرون على ما يتم انتاجه عن طريق النجارين المقيمين في الحجاز، وانما كانوا

يقومون بجلب بعض النجارين المهرة من بلاد الشام، والعراق وبلاد فارس لكي ينفذوا لهم بعض الأشكال الخشبية المعقده التركيب في بيوتهم وبساتينهم وغيرها من العقارات ، بل وفي المساجد والمشاريع العمرانية التي تم تنفيذها خلال القرون الاسلامية المبكرة (٢١). وقد يكون سبب استيراد الأيدي الفنية لهذا المهنه ناتجا عن عدم وجود نجارين بين المجتمع الحجازي يستطيعون تنفيذ الأعمال الخشبية المعقدة التي قد يطلبها أصحاب الأعمال. ثم كون الروايات تذكر وجود نجارين مقيمين بين المجتمع الحجازي والذين أغلبهم من طبقات الموالى والعبيد وآخرين تم جلبهم من خارج شبه الجزيرة ، الا ان المصادر اغفلت الحديث عن ماحدث من اتصال بين الفريقين وهل هناك نوع من الاحتكاك وتبادل الحبرات علما بانه إذا كان الأفراد القادمون استطاعوا عمل اشكال جيدة ومعقدة التركيب، فليس ببعيد ان يكون استفاد منهم بعض النجارين المقيمين في المدن الحجازية، إلاّ ان هذا الاحتمال وان كان قويا فليس عندنا من البراهين والدلائل مايجعلنا نجزم بحدوثه.

اما المواد الخشبية التي تتمثل في الأشجار والتي تعتبر عنصرا اساسيا في مهنة النجارة فكانت هي أيضا متوفرة في أرض الحجاز، ومما سبق وان ذكرنا في عنصر الدباغة من ان الدينوري قد اخبرنا بعدد من أصناف الأشجار المتواجدة في الحجاز والصالحة للاستخدام في حرفة الدباغة فهو هنا أيضاً يذكر لنا اعداداً كثيرة من الأشجار الصالحة لحرفة النجارة

مبينا مميزات كل شجرة من حيث الصفات الحسنه لاعطاء أدوات خشبية جيدة(٢٢)، الى جانب مصادر أخرى توضح بشكل دقيق بعض الأماكن المليئة بالأشجار الصالحة لمهنة النجارة والواقعة في المناطق المحيطة بكل من مكة والمدينه والطائف وغيرها من مناطق الحجاز الأخرى(٢٣).

إلاّ ان اغلب هذه المصادر اجمعت على ان أحسن أنواع الأشجار في أعمال النجارة تتمثل في شجر الغرب والتالب والعتم والشوحط والنشم والاثل والطلح وهذه الأنواع كلها توجد ولا تزال في منطقة الحجاز حيث يستطيع النجارون ان ينتجوا من هذه الأشجار أشكالا خشبية متنوعة ومتعددة الأغراض(٢٤).

ولاهمية وجود الأخشاب للنجارين في الحجاز فانه كان هناك من هو متخصص في جلب الأخشاب من الجبال والأدوية المحيطة بالمدن الحجازية حيث كان يتم احضارها إلى الأسواق وبيعها لأصحاب هذه الحرف حتى يذكر انه كان بمكة والمدينة أسواق خاصة لبيع الأخشاب المتنوعة(٢٥). ولم يكن الاقتصار على الأخشاب المحلية وانما كان هناك بعض الأخشاب المستوردة من الهند وبلاد فارس أمثال خشب الساج والأبنوس وغيرها، حيث كان ياتي بها الأغنياء وعلية القوم في المجتمع الحجازي، وكذلك الخلفاء والأمراء لكي يستخدموها في مشاريع عمرانية متعددة في كل من مكة والمدينة والطائف (٢٦).

ثالثا : النسيج والخياطة والصياغة :

إن حرفة النسيج والخياطة والصياغة متكامله: في عملها فلا يمكن ممارسة الخياطة او الصياغة دون ان تتوافر المنسوجات التي على ضوئها يتم للخياطين والصياغين ممارسة اعمالهم وكل هذه الحرف وجدت عند العرب في شبه الجزيرة منذ العصور القديمة واستمرت تمارس في بلاد الحجاز وغيرها خلال العصور الإسلامية المختلفة(٢٧).

١- النسيج :

تتحدث بعض المصادر عن وجود حرفة النسيج في منطقة الحجاز فيذكر الأزرقي (٢٨) على ان النساجين في مكة كانوا متواجدين بكثرة في البيوت والأسواق حتى إنه صار لهم أماكن ودكاكين تعرف بأسم مهنتهم كسوق أو زقاق النسيج أو النساجين، ثم انه كان عليهم مشرف أو رئيس عام يتابع حركة عملهم ويطلق عليه أمير الحاكة أو النساجين (٢٩)، ومع ان الازرقي يحدثنا بتواجد هؤلاء الحرفيين في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، إلاّ انه لم يوضح لنا دور هذا الأمير الذي ذكر انه مشرف على العاملين في هذه المهنة، من الذي عينة اميراً ؟ ثم ماهي الأعمال التي كان يقوم بها تجاه من يشرف عليهم؟ مع العلم ايضاً انه لم يذكر المستوى الذي وصل إلية الناسجون في مكة وهل كان انتاجهم كافيا لسد حاجة المجتمع؟ كل هذه الاسئلة لاتزال

غامضة وتحتاج الى توضيح فمن ناحية الأمير الذي ذكر اننا نجد بعض المصادر الاخرى تذكر أسماء بعض الأشخاص الذين كانت لديهم محلات للنسيج، وقد يعمل فيها عدد من العمال الذين غالبيتهم من العبيد والموالي، ويكون عليهم مشرف عام يقوم بمتابعة أعمالهم وتزويد هم بالمواد الأساسية في عمل المنسوجات(٣٠)، وفي أغلب الظن ان هذا الأمير الذي قصده الأزرقى كان من ملاك محلات النسيج أنفسهم، والسبب الذي يجعلنا نستبعد ان يكون هذا الأمير عين من قبل خلفاء أو أمراء بني اميه وبني العباس، هو انه لم يكن في منطقة الحجاز محلات للنسيج تحت إشراف الخلافة وسلطاتها، وانما كانت على العكس من بعض المدن في الشام ومصر وبلاد فارس، حيث كانت هناك محلات للنسيج والطرز مهمتها بالدرجة الأولى انتاج منتوجات وشعارات تستخدم لأغراض رسمية للخلفاء وموظفيهم (٣١).

اما المستوي الذي وصل اليه النساجون في مكة أو غيرها من مدن الحجاز وكذلك نسبة انتاجهم فلا اعتقد ان مستواهم كان عالياً، كما وان نسبة انتاجهم قد تكون قليلة أو ضئيلة، والسبب في ذلك ان المصادر الأولية بشكل عام لم تكن تذكر مستوى راقيا للنساجين بالمنطقة الحجازية، ولاتلك الكمية الكافية التي تسد حاجة المجتمع، وانما كانت تتحدث عن المنسوجات التي يتم

تصديرها من المدن اليمنيه، والعراقية، والفارسية، وبلاد الشام ومصر وغيرها، وكيف كانت أسواق الحجاز تستقبل الأنواع العديدة من المنسوجات ويتم نفاذها على يدي الحجازين الذين كانوا تواقين لشراء تلك المنسوجات المستوردة (٣٢). وهذا التصدير والاقبال من قبل أهل الحجاز يدل على ان مستوى منتوجات النسيج في الحجاز لم تكن كافية ولا جيدة المستوى.

٢. الخياطة :

تتوفر المنسوجات في المدن الحجازية. إما عن طريق الاستيراد من الخارج وإما من الانتاج المحلي، وقد وجدت أيضا حرفة الخياطة التي تعتمد بالدرجة الاولى على توفير الأقمشة والمنسوجات التي تستخدم في هذه الحرفة..

وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود مهنيين في كل من مكة والمدينة يقومون باحضار الاقمشة وبيعها إلى الخياطين للاستمرار في ممارسة مهنتهم، علما ان أولئك الحرفيين لم يكونوا من أهل الحجاز فقط، وانما كانوا ياتون الى أسواق الحجاز من اماكن عديدة داخل وخارج شبه الجزيرة، الى جانب انه كان في مكة والمدينة من كان يقيم بشكل دائم ، ويمارس تجارة البيع والشراء للاقمشة بانواعها حتى أصبح لهم اماكن معروفة باسم مهنتهم كأسواق القماشين أو البزازين (٣٣).

وطالما وجدت الأقمشة في المدن الحجازية، فلم يكن هناك مشكلة للخياطين الذين كانوا يشتغلون في الأسواق فيدفعون إليهم القماش لتفصيله مقابل أجرة معلومة، كما كانوا أحيانا أخرى يستاجرون للعمل وتفصيل الثياب في بيوت الأثرياء وعلية القوم من المجتمع الحجازي (٣٤). إلى جانب وجود خياطين بدائين لم يكن لديهم الدراية بفن الخياطة وتفصيل الملابس، إلاّ انهم قد يسدون حاجتهم في الخياطة على مستوى واسع فليسوا الا من طبقة الموالى والعبيد حتى انه ليذكر ان غالبية الحرفين في هذه المهنه من هذه الفئات(٣٥).

ومن المعروف ان طبقات الموالى والعبيد لم يكونوا من سكان الحجاز الأصلين وانما قدموا إلى الحجاز خلال الفتوحات الإسلامية المبكرة من مناطق متعددة ومتباينة في ثقافاتها وحضارتها، وهذا مما لا شك فيه انهم قد عملوا في الحرف والمهن أمثال الخياطة وغيرها وبالتالي احدثوا أنواعا من التجديد والتطوير في الحرف التي اصبحوا يعملون فيها مستفيدين من خلفياتهم ومعارفهم التي اكتسبوها من أوطانهم الأصلية(٣٦).

وطالما اننا لاننكر وجود العاملين في مهنة الخياطة إلاّ انه لايزال لدينا النقص واضحاً في معرفة المستوى الذي وصلوا إليه من حيث أخراج تصاميم ونماذج جيدة، ثم النسبة في الانتاج هل كانت

كافية لخياطة مايسد حاجة المجتمع الحجازي ، وربما انه لايكفي لان المصادر تشير إلى أن علية القوم من الحجازيين خلال القرون الإسلامية الأولى كانو يعتمدون اعتماداً كبيراً على استيراد أنواع عديدة من الألبسة من البلاد الأكثر انتاجا من الحجاز، إلى جانب ان خلفاء بني أمية وبني العباس وكذلك أمراؤهم كانوا يذهبون الى الحجاز فيتصلون بالامراء، والشيوخ والاعيان فيهدونهم الألبسة المتنوعة والجاهزه في تفصيلها وخياطتها(٣٧)، ومثل هذه الملبوسات سواء كانت عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا لابد ان تكون قد اثرت في مستوى الانتاج في الحجاز لانه بدون شك لن يستورد إلى اسواق الحجاز ولن يهدى إلاّ نوعية جيدة من الألبسة والتي ربما لايقدر الخياطون في الحجاز العمل مثلها، علماً أن هناك مصادر عديدة تذكر عدداً من الألبسة التي كانت تلبس في الحجاز ولكن لم تذكر هل صنعت محليا أم انه تم استيرادها من خارج الحجاز(٣٨).

٣- الصباغة:

إن حرفة الصباغة قد تسبق عملية الخياطة وأحيانا أخرى قد تليها وعملية التقديم أو التاخير تعود إلى الأهمية في مايراد نسجه وخياطته ثم صبغه أو العكس، إلا انه بتوفر كل من حرفتي النسيج والخياطة لابد أن تكون قد وجدت حرفة الصباغة كذلك. ولو أننا

نجد الدكتور صالح العلي (٣٩) يشير في إحدى مقالاته أنه بعد ان بذل جهدا في مصادر عديدة محاولا ان يجد إشارة تدل على وجود مكان للصباغين في المدن الحجازية الا انه لم يوفق في ذلك وانني كذلك؛ اوافق الدكتور العلي لانه بعد البحث والتقصي قابلت النتيجة نفسها التي قابلها فلم أجد إشارة تدل على وجود مكان للصباغين في المدن الحجازية وذلك بعكس مالاحظناه حول عدد من الحرف الأخرى (٤٠) الا ان عدم وجود مكان معين يسمى بحرفة الصباغة أو الصباغين لا يعني انه لم يكن هناك من يمارس هذه الحرفه، وانما هو على العكس من ذلك فلا بد ان تكون قد وجدت خلال القرون الإسلامية المبكرة والدلائل على ذلك عديدة من أهمها:

أ. ان عددا من المصادر ذكرت العديد من الأشخاص الذين كانوا يرتدون ألبسة ذات ألوان متعددة كالأزرق والأحمر والأصفر وغيرها وهذه الألبسةلا يمكن ان تكون قد وردت كلها من خارج الحجاز، وانما لابد ان تكون بعضها صبغت في أراضي الحجاز (٤١)، وذلك ان من يطلع على كتاب الدينوري الذي مر ذكره في الصفحات السابقة يجده قد ناقش في فصل مستقل بالصباغة الأشجار والنباتات التي تستخدم في الصباغة لإعطاء ألواناً متعددة مع ذكر أماكنها في منطقة الحجاز وغيرها من المناطق الأخرى في شبه الجزيرة (٤٢). كما أن

المعاجم العربية الأخرى كاللسان لابن منظور(٤٣) والتاج للزبيدي (٤٤) وفقة اللغة للثعالبي (٤٥) قد اشارت إلى بعض الألبسة الملونه والأشجار المتعددة والمستخدمة في حرفة الصباغة والتي كانت معروفة عند الحجازيين.

ب. وهناك مصادر أخرى تشير إلى بعض المواد المستخدمة في الأصباغ مثل مادة العصفر (٤٦) والزعفران والنيل والورس "(٤٧) ولايدع (٤٨) والتي عرفها أهل الحجاز فاستخدمها بعضهم بل بيعت في أسواق مكة والمدينة علما ان بعضها يتم استيراده من داخل وخارج شبة الجزيرة على حد سواء(٤٩).

رابعاً: التعدين والحدادة :

قد يظهر لنا أن المصادر لم تتحدث بشكل واسع عن حرفة التعدين والحدادة، وبشكل دقيق عن منطقة الحجاز، الا ان كتاب الهمداني(٥٠) يعتبر من أفضل المصادر التي وصلتنا فذكر لنا بعض المعادن المشهورة في شبه الجزيرة، وكان مما اشار إلية في بلاد الحجاز معدن بني سليم الذي كان يقع في بلاد بني سليم وكانت هذه القبيلة هي التي تشرف، عليه ويذكر عنه انه كان معدن ذهب على وجه التحديد وقد كان يستخدم قبل الإسلام وخلال العهود الإسلامية المبكرة، حتى انه ليذكر عنه انه كان له شأن عظيم خلال العصر الأموي، فترى بعض المصادر بانه كان عليه في سنة (١٢٨هـ/٧٤٥م) أمير يدعى عبدالله بن كثير، (٥١) إلاّ انه من الغريب اننا قد

بحثنا عن هذا الشخص فلم نجد له أي ترجمة في أي مصدر كان، ولهذا فننا لانعرف كيف تم تنصيبه على ذلك المعدن هل كان من قبل الخلافة الاموية التي كانت تحكم العالم الإسلامي في ذلك الوقت، أم كان عن طريق قبيلة بني سليم التي كانت في حقيقة الأمر تتولى الحفاظ والسيطرة على ذلك المعدن، ومع انناالانعرف من ولاه على هذا المعدن، إلاّ ان أقوى الاحتمالات انه ولي من قبل الخلافة الأموية وممثليها في الحجاز، والسبب الذي جعلنا نرجح هذا الاحتمال هو ان المعادن كانت ملكاً لأصحابها وليس للسلطة الإدارية أو الخلافة في تلك العهود إلاّ ان تحصل على نصيب الزكاة من المعادن، ولهذا فليس ببعيد ان عينت الخلافة الأموية هذا الأمير لكي يشرف على المعدن فيحافظ على سير العمل، وبالتالي يضمن نسبة الزكاة التي سوف تذهب إلى بيت مال المسلمين.

ومن يتتبع العمل في معدن بني سليم بعد ولاية عبدالله بن كثير قد لايجد المعلومات الكافية التي تصور مسيرة العمل والانتاج به إلاّ انه بدون شك لابد ان يكون قد استمر في انتاجه خلال العهد الأول من العصر العباسي، وذلك لما امتاز به الخلفاء الأوائل من بني العباس من حنكة ودراية في سياسة الأمور، غير ان الوضع لم يدم طويلا وذلك لما قد جرى من الصراعات السياسية في بلاط الخلافة العباسية بعد موت هارون الرشيد، ثم بعد سيطر الأتراك على بلاط الخلافة في عهد الخليفة المعتصم، فتذكر الروايات التاريخية ان ماحدث من قلاقل سياسية في أرض العراق أثر بالتالي

على احوال القبائل في الحجاز، ومن تلك القبائل قبيلة بني سليم التي اشتركت في حروب ونزاعات مع القبائل الأخرى، وهذا مما أثر على معدن بني سليم وأنتاجه في أن بدأت القبائل العربية تغير عليه فتنهب انتاجه وتصيبه بالإيذاء والدمار (٥٢).

ومن المعادن المشهورة أيضا في منطقة الحجاز معدن القبلية(٥٣)، وهي أرض ومعادن قطعها الرسول ﷺ لبلال بن الحارث المزني، وكان هذا المعدن كثير الانتاج خلال القرنين الأولين من الإسلام ثم أن ملكيته لم تخرج من ورثة بلال بن الحارث (٥٤)، الا أن الشيء الذي لا يزال غامضاً حول هذا المعدن هو كمية الانتاج الذي كان يخرج منه، ثم هل كان علية وال معين كما رأينا عبدالله بن كثير على معادن بني سليم في آخر عهد بني أمية؟

ومعادن أخرى قد ورد ذكرها في أماكن متعددة من الحجاز مثل معدن الأحسن على حدود الحجاز من جهة نجد، وكذلك معادن في ينبع وجبل رضوى بين مكة والمدينة (٥٥)، الا ان هذه المعادن لم يرد عنها الا اشارات في بعض المصادر المبكرة دون ان توضح من كان يمتلكها وما المعادن التي كانت تستخرج منها.

اما حرفة الحدادة التي تعتمد بالدرجة الأولى على الأيدي الفنية التي تصنع الحديد وكذلك على المواد الأولية من الخامات الحديدية التي بتوافرها يستطيع صانع الحديد ان يمارس مهنتة، فقد عرفت عند العرب من قبل الإسلام، إلاّ أن الكتاني(٥٦) يروي لنا قصة تواجد صناعة الحديد في

شبه الجزيرة، وأنها راجعة إلي أن الرسول ﷺ ، لما فتح خيبر سبى ثلاثين عبداً، كانوا صناعاً وحدادين، ثم جعلهم يعلمون المسلمين في المدينة حرفة صناعة الحديد. ومافعلة الرسول ﷺ ليس ببعيد ان يكون حصل إلاّ ان القول إن صناعة الحديد لم توجد إلاّ في تلك الفترة التي غزى الرسول ﷺ فيها خيبر، فهذا أمر قد لايصدق لان الحديد قد عرف عند عرب شبه الجزيرة منذ العهود السابقة لظهور الإسلام، بل قد استخدمت الأدوات الحديدة المستوردة والمصنعة محلياً في أغراض عدة ولأهداف متنوعة.

وقد ذكرت المصادر في القرن الثاني والثالث الهجريين نشاط الحدادين في أسواق مكة والمدينة، وكيف كانوا يزاولون حرفتهم لصناعة أدوات حديديه متعددة الأشكال ومختلفة في الاستخدام، بل واشارت إلى ان غالبية الأيدي العامله في هذه الحرفة كانت من طبقتي الموالي والعبيد، في حين أن العرب كانوا ينتظرون إلى هذه المهنة وغيرها من المهن نظرة أزدراء واحتقار(٥٧)، علما بان هذا التصرف كان لايتفق مع الشريعة الإسلامية التي تنادي بان يتعلم المسلم حرفة أو مهنة يكسب من ورائها الرزق الحلال .

ومن يتفحص الدراسات الأثرية التي اجرتها جامعة الملك سعود في مدينة الربذة يجد انه قد عثر على عدد من الآلات والأدوات الحديدية التي تعود إلى القرون الثلاثة الإسلامية الأولى، ثم أن أغلبها كان قد صنع محلياً في منطقة الحجاز (٥٨).

ومع ان الحدادين كانوا متواجدين في أرض الحجاز إلاّ انه لم يكن هناك معادن حديدية تسد حاجة هؤلاء الحرفين، ولذا كان هناك حركة تصدير الحديد من مناطق خارج وداخل شبه الجزيرة أمثال اليمامة واليمن وبلاد فارس والهند وغيرها(٥٩).

خامساً: الصياغة:

ومن الحرف التي عرفها أهل الحجاز الصياغة فيروى لنا الطبري (٦٠) وجود اليهود في المدينة قبل ظهور الإسلام، وكيف كانوا يمارسون هذه المهنة بنشاط، ثم عند هجرة الرسول إلى المدينة وتصادمه مع فئات اليهود هناك، وآخيراً قرر اخراجهم من المدينة والاستيلاء على آلاتهم وأدواتهم التي كانوا يستخدمونها في منهة الصياغة . ومن هذه الرواية نستطيع استنتاج عدة نقاط هي :

١. ممارسة حرفة الصياغة بين عرب الحجاز علماً، بان اليهود كانوا أصحاب الشان في مزاولة هذه المهنة، إلاّ انه ليس ببعيد ان يكون مارسها بقية السكان من أهل المدينة، لانها عرفت لديهم منذ القدم فليس بغريب ان يزاولوها.

٢. ادراك الرسول ﷺ أهمية الحرف بشكل عام، لذا نراة يبقى على ادواتهم بعد طرد اليهود، وهذا مما يساعد المسلمين في استخدامها ومزاولة هذه المهنة، إلى جانب أنه بهذا التصرف الذي فعله الرسول ﷺ لم يكن إلاّ إيعازاً لتطوير وتحسين

حرفة الصياغة، كما رأينا في فصل التعدين والحدادة يترك الحدادين الذين سباهم من خيبر يمارسون مهنة الحدادة بين أهالي المدينة. ثم أن العمل الذي فعله الرسول ﷺ ربما يكون له أبعاد في أن ازالة الاحساس الذي كان ولا يزال عند بعض العرب بأن العمل في هذه المهن أمثال الحدادة والصباغة عمل حقير ولا يعمل فيه إلاّ الموالى والعبيد.

ومما لا شك فية ان العمل في حرفة الصياغة قد تطور في العهود التالية لعصر الرسول ﷺ، اذا يذكر لنا السمهودي والعصامي(٦١) نقلا عن ابن زباله الذي عاش في المدينة خلال القرن الثاني الهجري أنه كان في احدى ضواحي المدينة مايقارب ثلثمائة صائغ يمارسون مهنة الصياغة، وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، إلاّ أنه على أية حال يدل على سعة ونشاط مزاولة هذه الحرفة في المدينة ولم تكن المدينة وحدها هي المشهورة بالصاغة الذين يمارسون مهنة الصياغة، ولكنهم وجدوا في أماكن متعددة من أسواق المدينة ومكة معا، فكانوا يجلسون في حوانيتهم بالأسواق لمارسة عملهم وصناعة الحلى من الذهب والفضة كالأساور والخلاخيل والخواتم والأقراط التي تستخدمها النساء ويتزين بها(٦٢).

ولم يكن جلب المواد الأساسية لحرفة الصياغة صعباً، وذلك لتوفر المعادن في الحجاز كمعدني بني سليم والقبلية فكانت تنتج بالدرجة الأولى الذهب ثم الفضة، ولذا فان انتاج تلك المعادن لابد أن يذهب منه بعض الشئ للصاغة في الأسواق وغيرها حتى يمارسوا مهنتهم. ثم أن هناك مصدراً آخر، إذ تذكر بعض المصادر أنه كان بين أهل الحجاز عدد من الأغنياء وعليه القوم يحصلون على المجوهرات والأدوات الذهبية والفضية أما عن طريق التجارة من خارج الحجاز، أو أن بعض خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا عندما يذهبون إلى الحجاز في أيام الحج يقومون بتوزيع بعض الهدايا والكساوي على بعض أفراد المجتمع، والتي كان من ضمنها بعض المجوهرات وما شابهها (٦٣) ويتوافر مثل هذه المجوهرات أما عن طريق التجارة أو الهداية، لابد أن يحافظ عليها فتصان ويصلح ما خرب منها، وهذا العمل لا يقوم به إلاّ الصاغة الذين هم أصحاب الحرفة.

سادساً: صناعات اخرى:

ومن الحرف والصناعات التي كانت موجودة عند الحجازين صناعة الفخار إذ تروي بعض الكتب التاريخية أنه كان في بعض مدن الحجاز أماكن خاصة، يمارس فيها صناعة الفخار، ثم انه كان هناك مناطق

معينة فى كل من مكة والطائف يجلب منها المواد الأساسية كالطين وغيره لصناعة الأواني الفخارية(٦٤).

وحرفة البناء ونقش الأحجار كانت متوافرة في المدن الحجازية، حتى انه كان هناك من يجيد فن النقش على الحجارة فيذكر السمهودي(٦٥) انه كان لبني حرام في المدينة غلام رومي ينقل الحجارة وينقشها؛ ومن يطالع التوسعات المعمارية التي حدثت فى الحرم المكي والحرم النبوي خلال القرون الإسلامية الأولى، يجد أنه كان هناك من يجيد حرفة البناء والنقش علماً ان من يقوم بهذه الحرفة لم يكن من أهل الحجاز فقط؛ وإنما كان يستقدم بعض البنائين والنقاشين والمخططين والمهندسين المهرة الذين يقومون بتنفيذ بعض المشاريع التي يراد عملها ، فيذكرأن الخليفتين الوليد بن عبد الملك الأموي، والمهدي العباسي كانا قد استقدما عدداً من هؤلاء الحرفين من مصر والشام والعراق أثناء توسيعاتهما للحرم المكي والمدني(٦٦).

كذلك صناعة الخصف والحبال كانت من المهن التي أمتهنها المجتمع الحجازي، فكانو يستخدمون أوراق الأشجار، وسعف النخل في عمل بعض الأثاث المنزلي، كما أن صناعة الحبال والخيوط المتنوعة كانت معروفة ويمارسها بعض السكان، ومن يلقي نظرة على كتاب النبات للدينوري(٦٧)، يجد أنه أفراد باباً في صناعة الحبال، موضحاً نوعية الحبال التى كانت تصنع، ذاكرا الأشجار التي تستخدم لاستخراج المواد الأساسية

لعمل أنواع متعددة من الحبال، مع التركيز على شجر الخزم الذي يوجد بكثرة في جبال وأودية الحجاز، والذي يعد من افضل أنواع الأشجار في إستخراج نوعية جيدة من الحبال.

وقد لاتكون صناعة الحبال من الأشجار فقط، وإنما كانت تستخدم جلود الحيوانات كالجمال والأبقار في انتاج أنواع جيدة من الحبال والتي يقوم على صنعها بعض المهرة من الرجال والشباب في المجتمع الحجازي.

ولم تكن الحرف التي عرفها أهل الحجاز قاصرة على ماسبق ذكره وإن ما تم ذكره في هذه المقالة يعتبر من أهم الحرف عند الحجازين، علما ان من يطالع كتاب الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي ملحس يجد انه قد ذكر في الفهارس أعداداً كثيرة من الحرف التي كانت معروفة عند أهل الحجاز، والتي كانت تمارسها بعض الأيدي العاملة الفنية، حتى صارت هذه الفئات الحرفية لاتعرف إلاّ باسم الحرفة التي تزاولها أمثال: الخبازين والفسالين والطباخين وغيرهم.

الهوامش والتعليقات

١- الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، تحقيق ، حسن حسني عبد الوهاب (بيروت ١٩٦٦) ص ٣٤ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٨ (بيروت ١٩٧١م) ص ، ٥٣٧ ، ٥٨٧ .

٢- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد الأكوع الحوالي (الرياض ١٣٩٤/ ١٩٧٤م) .

٣- جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك (الكويت ، ١٣٩٧/١٩٧٧) ص ٢٧ ، ١٢٢ .

٤- جزيرة العرب من نزهة المشتاق للأدريسي، تحقيق ابراهيم شوكت، مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ٢١ (١٩٧١م) ص ٢٦ .

٥- صفة بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى تاريخ المستبصر ، جـ١ (ليدن ١٩٥١م) ص ٢٥ .

٦- معجم البلدان جـ ٤ (بيروت ، ١٣٧٦/١٩٥٧م) ص ٩ .

٧- ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت ١٣٧٦/١٩٥٧م) جـ٥ ص ٥٠٠ ، ٥٢٢ الأرزقي ، أخبار مكه ، تحقيق رشدي ملحس ، ط٤ ، جـ٢ (مكه ، ١٤٠٣/١٩٨٣م) ص ٢٦٣ ، الهمداني ، صفة ، ص ٣٢٦، ابن المجاور تاريخ ، جـ١ ص ١٣ ، ٢٥ ، ٩٧ .

٨- ابن سعد ، الطبقات ، جـ٥ص ٥٢٢ ، الأرزقي ، المصدر السابق، الهمداني ، صفة ، ص ، ٢٦٠ ، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٩٧٧م) ص ٧٩

H. Iammens "Taif" EI(1) , Vol. 1V, P. 621

٩- الجاحظ ، التبصر ، ص٣٤ ، الهمداني ، صفة ، ٢٦٠ ، ٣٦٣ عرام السلمي ، كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، ١٣٧٤/١٩٥٥م) ص، ٤٠٣، ٤٣١، المقدسي، أحسن، ص٧٩.

١٠ـ انظر المصادر الآتية ، ابن خرذاذبه ، كتاب المسالك والممالك، تحقيق، دي غوي (ليدن، ١٨٨٩/١٣٠٦م) ص، ٣٥ ، الأصفهاني ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، وصالح أحمد العلي (الرياض،١٣٨٨/ ١٩٦٨م) ابن قدام ، كتاب الخراج ، دي غوي (ليدن ، ١٨٨٩م) ص ، ابن المجاور، تاريخ ، جـ١، ص ، ١٣ ، ٢٥ ،٩٧.

١١ـ كتاب النبات ، الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس ، تحقيق بي ، ليون (فيسبادن، ١٩٧٤/١٣٩٤م) ص ، ١٠٤ – ١٢١ .

١٢ـ كتاب المخصص ، جـ٤ (بولاق ، ١٨٩٨/١٣١٦م) ص ، ١٠٤-١١٦ .

١٣ـ القرظ: نوع من الأشجار التي تنبت في الجبال والأدوية وله سيقان كبيرة وأوراق تشبه ورق التفاح . الدينوري ، النبات ، جـ٣ ، ص ، ١٠٥ ، ابن سيده ، المخصص ، جـ٤ ،ص ، ١٠٥ ، الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، حققه مجموعة من العلماء ، جـ ٢٠ (الكويت ، ٣ / ١٩٨٣م) ص،٢٥٦.

١٤ـ الدينوري ، النبات ، جـ٣ ، ص١٠٥ ، عرام ، أسماء جبال ، ص ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٥ ، ص ٤٣٧ ، ٥٢٢ ، ابن المجاور ، تاريخ ، جـ١ ، ص ، ٢٥ ، ٣٢ .

١٥ـ الدينوري ، النبات ، جـ٣ ، ص ، ١٠٤ـ١٢١ ، ابن سيده ، المخصص ، جـ٤ ، ص ١٠٤ـ١١٦ .

١٦ـ الأرزقي ، أخبار ، جـ٢ ، ص ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، الفاكهي ، كتاب أخبار مكه ، رسالة دكتوراه بجامعة اكستر ، تحقيق فواز الدهاس (١٩٨٣م) ص ، ٣٢٣ ، ٣٥٨ ، الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، جـ٣ (القاهرة، ١٩٦٣/١٣٨٣م) ص ، ٣٤٦ .

١٧ـ مصعب الزبيري ، كتاب نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة،١٩٥٣م) ص ، ١٧٨ .

١٨ـ الجاحظ ، التبصر ، ص ٣٤ ، الهمداني ، صفه ، ص ، ٢٦٠ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٢٨٩ الإدريسي "جزيرة العرب " ص٢٦ ابن المجاور، تاريخ ، جـ١ ص ١٣ ، ٩٧ ، ٩٨ .

١٩- الأرزقي ، أخبار ، جـ١ ، ص ١٥٧ – ١٥٨ ، ابن رسته ، الأعلاق النفسية، تحقيق دي غـوي (ليـدن، ١٨٩١م) ص ٢١٥ ، جواد علي ، المفصل ، جـ٧ ، ص ٥٤٢ ، ٥٥٢ .

٢٠- الأرزقي ، أخبار ، جـ٢. ص ٢٤٣ ، الحربي ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر (الرياض ، ١٣٨٩/١٩٦٩م) ص ٤٥١ ، ابـن رسـته ، الأعـلاق ، ص ، ٢٢١٥ الأصـفهاني ، الأغاني ، جــ١٦، ص ، ١٤٩ ، ابـن عبـد ربـه ، العقـد الفريـد ، تحقيـق أحمـد أمـين وآخـرين ، جــ٦ (القاهرة، ١٩٦٧) ، ص ٤٣٣ .

٢١- الأرزقي ، أخبار ، جـ٢ ، ص ٦٠ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٠٣ ، الفاسـي، شـفاء الغـرام بأخبـار البلـد الحـرام ، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء جـ٢(بيروت ، بدون تاريخ) ص ٣٤٦، ابن فهـد، أتحـاف الـورى بأخبار أم القري ، تحقيق فهيم شلتوت جـ٢(القاهرة ١٤٠٤/١٩٨٣م) ص ١٩٤ ، ٢٠٦ ، طـاهر العميـد " التوسعات القديمـة والحديثـة في عمـارة المسجد الحـرام " مجلـة كليـة الآداب ببغـداد، جــ١٤ (١٩٧٠-١٩٧١م) ص ٥٢١ .

٢٢- انظر الدينوري ، كتـاب النبـات ، تحقيـق محمـد حميـد الله ، جــ٢ (القـاهرة ، ١٩٨٣م) انظـر أيضـاً:

Al.Dinawari's Book of Plants (Kitab Al.Nabat) : an annotated English translation of the extant alphabetical partion by A.Y. Breslin, Unpublished master's thesis, university of Arizon ,1986.

٢٣- عرام ، أسماء ، ص ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ، القزويني، آثـار الـبلاد وأخبـار العبـاد (بيروت ، حوالي ١٩٧٥م) ص ، ٨٦ ، ٨٩ ، صالح أحمد العلي "منازل الطريق بين المدينه ومكه " مجلـة الداره ، مجلد ١٣ ، جـ١(١٣٩٧/١٩٧٧م) ، ص ٣٥ .

٢٤- انظر التعريفات ومدى الأهمية لهذه الأنواع من الأشجار في عرام ، أسماء ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ابن منظور لسان العرب ، جـ١ (بيروت١٩٧٥م) ص ٢٢٢ ، جـ٧ ص٣٢٨ ، جـ ١١ ص ١٠ ، الزبيدي ، تاج ، جـ٢ ، ص ٥٥ ، جـ ١٩ ، ص ٤٠١-٤٠٢ .

٢٥- ابن سعد الطبقات جـ٥ ، ص ٤٣٧ ، الأرزقي ، أخبار ، جـ ص ٢٣٢ ، الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٦، ص ١٤٩ ، جـ١٦ ، ص ١٤٩ ، جـ١٩ ، ص ١٦٥ .

٢٦- الدينوري ، النبات ، ج٢ ، ص ٢٥ ، الأرزقي ، جـ٢ ، ص ٢٤٣ ، الحربي ، ص ٣٥٤ ، ٣٨٩ ، ابن رسته ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥١ ، ١٣٤ ، الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٦ ، ص ١٤٩ ، المقدسي ، ص٧٦،٧١.

٢٧- ابن خلدون، المقدمه، جـ٢ (بيروت ١٩٧٠م) وهي مصورة من طبعة (باريس، عام ١٨٥٨م)،ص،٦٦٨، ٦٧٠، عبد الحي الكتاني، كتاب التراتيب الإدارية، جـ٢ (بيروت، بدون تاريخ) ص ٥٨، ٩١،٦٠.

٢٨- أخبار ، جـ ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٩٦ .

٢٩- المصدر نفسه .

٣٠- ابن سعد ، الطبقات ، جـ٥ ، ٤٣٧ ، الأصفهاني، الأغاني ، جـ١ ، ص ٦٥،٧٨ ، جـ٥ ، ص ١١٤ .

٣١- انظر ، الوشي ، كتاب الموشي ، (ليدن ، ١٨٨٦م) ص ،١٦٧.

M. Ahsan . Social life undr the Abbasids (London 1979) p.68. A.Grohmann "Tiraz" EL(1) . Vol .IV p. 785-6

٣٢- ابن سعد ، ج ٥ ، ص ، ١٦١ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ، ج ٧ (القاهرة، ١٩٦٠م) ص ، ٥٥١ ، ٧ ، ٥ ، صالح العلي ، الأنسجة في القرنين الأول والثاني " مجلة العرب ، ج ٤ ، ١٣٨١/ ١٩٦١م) ص ، ٥٨٥ – ٥٩٠، صالح العلي "الألبسة العربية في القرن الأول الهجري " مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٨ ، ١٣٨٥/ ١٩٦٦م) ص، ٤١ وما بعدها .

Ahsan. <u>Social</u> . p . 29 – 30

٣٣ـ الأزرقي ، <u>أخبار</u> ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ـ ٢٦٠ ، الفاكي ، <u>كتاب المنتقي في أخبار أم القرى</u>، تحقيق وستينفلد (ليبزج ، ١٨٥٩م) ص ، ١٤ – ١٥ ، الكتاني <u>التراتيب</u> ، ح ٢ ، ص ، ٣٢ .

٣٤ـ الأزرقي ، أخبار ، ج ٢ ص ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، الفاسي ، <u>شفاء</u>، ج ١، ص، ٢٣٨.

٣٥ـ مالك، <u>المدونة الكبرى</u> ، ج ١٦ (القاهرة ، ١٣٢٣هـ) ص، ٣ ، ابن خلدون ، <u>المقدمة</u> ، ٢ ، ص، ٣٠٩ – ٣١٠ .

٣٦ـ انظر، ابن خلدون، <u>المقدمة</u> ، ج ٢ ، ص ، ٣٠٩ ، صالح العلي " الألبسة العربية " ص ، ٤٣ .

٣٧ـ الطبري ، <u>تاريخ</u> ، ج ٧ ، ص ، ٥٥١، ٥٥٧، ج ٨ ، ص ١٣٣ ، صالح العلي " الأنسجة " ص ٥٨٥ وما بعدها .

Ahsan, <u>Social life</u> – p . 29 ff

٣٨ـ ابن سعد " <u>الطبقات</u> ، ج ٥ ص ٢١٧، الطبري ، <u>تاريخ</u> ، ج ٧ ، ص ، ٥٧٧، ٥٨٢ ، الاصفهاني ، <u>الأغاني</u>، ح ٦ ، ص ، ٢٩١ ، ج ١٩ ، ١٤٦، ١٦٤.

٣٩ـ " الوان الملابس العربية في العهود الاسلامية الاولى " <u>مجلة المجمع العلمي العراقي</u> جـ ٢٦ ، ١٣٩٥/ ١٩٧٥م ص ، ١٠٦.

٤٠ـ انظر كتاب الازرقي وفي الجزء الخاص بالفهرس من الجزء الثاني فقد اشار إلى عدد من الحرف التي كانت معروفة في مكة باسم الحرفيين ، فمثلاً قد نجد سوق الحدادين ، والدقاقين وغيرها من الحرف العديدة .

٤١ـ مالك ، <u>المدونة</u> ، ج ١٠ ، ص، ١٦٩، ج ١١، ٣٤، الفاكهي، <u>كتاب اخبار مكة</u> ، ص ، ١١٩ – ١٢ ، الطبري ، <u>تاريخ</u> ، ج ٢٧ ص ٥٧٧ ، ٥٨٢ ، الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٦ ، ص ٢٩١ .

٤٢ـ الدينوري ، كتاب النبات ، ج ٣ ، ص ١٦٥ – ١٨٤.

٤٣- ج ٣ ، ص ، ٤٠٦، ج٤ ص، ٧٤ ، ٣٢٤ ، ج ٥ ، ص ، ١٧٦.

٤٤- ج ٩ ، ص ، ٢٨٦، ج ١١ ، ص ٤٢٨، ج ١٣ ص ، ٧٤ ج ١٤ ، ص ١٢٥، ج ١٧ ، ص ، ٨ .

٤٥- (بيروت ، ١٩٧٣م) ص ، ٥٠ — ٥٦ ، ١٥٤ - ١٥٩ .

٤٦- العصفر : نبات يوجد في بعض أجزاء شبه الجزيرة كاليمن وغيرها إلى جانب استيراده من أماكن متعددة في العالم الاسلامي كمصر وبلاد فارس ، وعندما يستخدم في الصباغة يعطي اللون الأصفر ، الدينوري ، النبات ، ج ٢ ، ص ١٣٩.

٤٧- الورس: شجرة تنبت في بلاد اليمن وتستخدم في الصبغ وتعطي اللون الأصفر المائل إلى الحمرة ، الهمداني، صفة ، ص ٢١٤ — ٢١٥ الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٢ ، ص ، ٢٨١ .

٤٨- الايداع : شجر كبير ذو أوراق تشبه أوراق العنب ويوجد بكثرة في بلاد الحجاز ويستخدم في الصباغة معطياً اللون الأحمر ، الدينوري ، النبات ، ج ١ ، ص ، ٥٧ — ٥٨ ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، عرام ، اسماء، ص ، ٣٩٩ — ٤٠٠.

٤٩- ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ١٨٠ ، ١٨٩ ، مالك ، المدونة ، ج ١٠ ص ١٦٩ ، الاصفهاني ، الاغاني، ج ٢ ، ص ٢٨١ ، الهمداني ، صفة ، ص ، ٢١٤ عرام ، اسماء ، ص ، ٣٩٩.

٥٠- كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء (ابسلا ، ١٩٦٨م) ص ، ١٣٨ ومابعدها.

See . D.M.Dunlop "Sources of Gold and Silver in Islam according to al. Hamdani (10 th century a.d.) " Studia Islamic vol . V111 (1957) p. 29ff.

٥١- الحربي ، المناسك ، ص ٣٣٥ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٣ ، ص ، ٢٢٧ — ٢٢٨.

٥٢- الطبري ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ، ١٢٩، الحربي ، المناسك ، ص ، ٣٣٥.

٥٣ـ معدن القبلية: يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة وعلى بعد حوالي خمسة كيلو مترات . أبو عبيد ، كتاب الأموال ، تحقيق ، محمد هراس (القاهرة ، ١٣٨٨هـ) ص ، ٣٨٧ ملاحظة رقم (٢) .

٥٤ـ أبو عبيد، المصدر السابق ، ص ، ٣٨٧ ، ٤٧٠ ، البلاذري ، فتوح البلدان (بيروت ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م) ص، ٢٢ ، ٢٧ .

٥٥ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم ن ص ، ١٠١ ، الاصفهاني ، بلاد ، ص ، ١٥٩ يا قوت ، معجم ، ح ٢، ص ، ٢٣٤ .

٥٦ـ التراتيب ، ج ٢ ، ص ،٧٥ .

٥٧ـ الأزرقي ، أخبار ، ج ٢ ص ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ مالك ، المدونة ، ج ١٢ ، ص ، ٤٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج٧ ، ص ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٤٠ .

s. AL- Rashid . AL- Rabadhah (Riyadh. 1986) p.1- 14.

٥٨ـ الربذة: تقع في الجنوب الشرقي من المدينة ، وهي . تبعد عنها حوالي مائتي كيلا، وتعتبر من أنشط المحطات على طريق مكة المكرمة خلال القرون الإسلامية الأولى. انظر حمد الجاسر " الربذة تحديد موقعها " مجلة العرب ، ج١ - ٢ (١٣٩٥ / ١٩٧٥ م) ص ، ١-٣ .

٥٩ـ ابن الفقية ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ،دي غوي (ليدن ، ١٣٠٢ / ١٨٨٥م ص ، ٢٥٤ ، الازدي، تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبه (القاهرة ، ١٣٨٧هـ) ص ، ٤٩ ، صالح العلي. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة خلال القرن الاول الهجري (بغداد ، ١٩٥٣ م) ص١٩.

٦٠ـ تاريخ ، ج٢ ، ص ، ٤٨١ .

٦١ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ج٤ (القاهرة ، ١٩٥٤م) ، ص ، ١٢٣٠ ، سمط النجوم العوالي في انباء الأوائل والتوالي ج٣ (القاهرة ، ١٣٨٠هـ) ، ص ، ٩٢.

٦٢- مالك ، المدونة ، ج ١١ ، ص ، ٣٤ ، ج ١٢ ، ص ٤٢ ، ابن سعد، الطبقات ، ج ٥ ، ص ، ٤٩٠ .

٦٣- انظر ، ابن بكار ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق محمود شاكر ، ج ١ (القاهرة ، ١٣٨١هـ) ، ص، ١١٣، ١١٤ ، مؤلف مجهول، العيون والحدائق ، تحقيق دي غوي ج ٣ (ليدن ، ١٨٦٩م) ، ص ٢٩١، ابن فهد ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٦٤- الازرقي ، أخبار ، ج ٢ ، ص ، ٢٥٥ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٥ ص ، ٦٥ .

٦٥- وفاء ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

٦٦- انظر ، الأزرقي ، أخبار ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، الفاكهي، أخبار ، ص ، ٣٢٦ ، الحربي ، المناسك ، ص، ٣٨٩ - ٣٩١ ، ابن فهد ، اتحاف ، ج ٢ ص ٢٢٤ .

٦٧- ج ٣ ص ، ٢٣١ - ٢٥٦.

الدراسة الثامنة

الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز

خلال القرون الإسلامية الأولى

(ق١ – ق٨هـ / ق٧ ق١٤م)[*]

[*] بحث منشور في مجلة العرب، (ج ٧ - ٨) (س / ٢٦) (محرم وصفر ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٤٤٧ – ٤٦٢.

الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الاسلامية الاولى

(ق١ - ق٨هـ / ق٧ ، ق١٤م)

عند دراسة النشاط الأقتصادي والتجاري في إقليم ما، يجب على الباحث أن يولي اهتماما خاصا بدراسة الطرق البرية والبحرية التي تربط الإقليم موضع الدراسة بالاقاليم الأخرى التي يتبادل معها علاقته التجارية، وبالتالي يتعرف على شبكة الطرق الرئيسة والحركة عليها، ومدى تاثيرها على التجارة الداخلية والخارجية. وحيث أن منطقة الحجاز تربطها العديد من الطرق مع أجزاء عديدة من العالم، إلى جانب أن لها بعض الموانى الواقعة على البحر الأحمر، والتي كانت تتميز بنشاط تجاري واسع على مر العصور الإسلامية، لهذا فان الحديث في هذا البحث سيكون مركزاً على الطرق البرية والبحرية التي تربط مدن الحجاز مع غيرها من أطراف العالم الإسلامي خلال القرون الإسلامية المبكرة لنرى مدى أهميتها ونشاطها في تلك العصور.

ولمعرفة الطرق الداخلية التي تصل ما بين المدن الحجازية بعضها البعض، فقد ذكرت بعض المصادر المتقدمة تلك الطرق بشيءٍ من الإطالة (خاصة البرية) التي تربط مكة بالمدينة(١)، ومكة بالطائف(٢)، إلاّ انه من الواضح ان هذه المصادر قد اسهبت في ذكر المحطات الواقعة على تلك

الطرق، فذكرت باطناب المسافات مابين كل محطة وأخرى مشيرة إلى أطوالها بالأميال أو الفراسخ، وأحياناً بالكيلو مترات دون أن تشير إلى أهميتها ومدى استخدامها في النشاط التجاري؛ بل ولم توضح ما إذا كان عليها بعض المرافق كأماكن الاستراحة ومحطات التموين والحمامات وغيرها التي يستخدمها المسافرون والتجار الذين يمرون عند انتقالهم من مدينة إلى أخرى.

والذي لاشك فية أن الطرق التي كانت تربط بين المدن الحجازية قبل ظهور الإسلام وخلال العصور الإسلامية المتعاقبة كانت تستخدم لنقل الحجاج والزوار الوافدين الى المدن الحجازية، وكذلك التجاروالعلماء وغيرهم ممن يأتون إلى مكة والمدينة وغيرها، لكن الغريب في الأمر الذي يجده الباحث والدارس على حد سواء هو إغفال المصادر المبكرة للطرق التي تربط المدن الحجازية (كمكة، والمدينة ، والطائف، وجده) مع المناطق المجاورة في أرض الحجاز نفسها، وهذا الاهمال لم يكن ناتجاً من عدم وجود طرق تربط المدن بالقرى والأرياف، وانما يرجع إلى عدم تدوينها في مصنفات المؤلفين، وبالتالي أدى إلى هذا الأغفال، في حين أننا نجد بعض الجغرفيين المسلمين لم يألوا جهدا في أن يتحدثوا عن الطرق البرية التي تربط المدن الحجازية مع جهات العالم الأخرى، كما سيأتي ذكره فيما بعد، ثم أن ذكرهم للطرق الداخلية في أرض الحجازالتي تربط المدن ببعضها ليس إلاّ إستمرار لحديثهم عن الطرق البرية الأتية من خارج الحجاز والواصلة إلى

كل من مكة والمدينة. ومع هذا فأن الباحث يعتقد أن عدم الأشارة إلى الطرق الفرعية ما بين المدن والقرى والبوادي لا يعني أنه لم تكن هناك طرق ودروب تصل بين مراكز العمران في الحجاز، فهذه الطرق والدروب كانت ذات شأن وكانت الحركة عليها مستمرة طوال العام. ويرى الباحث ان الادلة على ذلك يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- ان الخلافة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين أو في عهد الدولة الأموية وبعد انتقال مركز الخلافة إلى الشام أو في عهد الدولة العباسية وانتقال الخلافة الى العراق كان ينظر الى مكة والمدينة على أنهما المركز الإداري الرئيسي، في حين أن المناطق الريفية في الحجاز كانت تحت سيطرة الإمارة العامة في المدن الكبرى، والتي كانت تقوم بارسال الجنود والموظفين والإداريين للحفاظ على الأمن والاستقرار في المدن الصغيرة والقرى التي تقع خارج الاطار الجغرافي لكل من مكة والمدينة. ووجود مثل هذا الأتصال الإداري بين المدن والمناطق الأخرى في الحجاز، فأنه لابد أن يكون هناك طرق تصل الأطراف بعضها بعض ليسهل الاتصال والذهاب والاياب بين المراكز الإدارية العامة وغيرها من القرى والأرياف(٣).

٢- المطلع على المصادر الأساسية يجد ان منطقة الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة كانت قد تعرضت للعديد من الثورات والحروب مثل حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق (١١/٦٣٢-١٣/٦٣٤)، وثورة

أهل المدينة في عهد الدولة الأموية خلال خلافة يزيد بن معاوية (٦٠/٦٨٣/٦٨٠م) وكذلك ثورة العلويين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦/٧٥٢ ـ ١٥٨/٧٧٤م)، وثورة عبد الله بن الزبير التي توسعت حتى شملت منطقة الحجاز كلها وكادت تقضي على الدولة الأموية(٤)، وكل هذه الحركات والثورات السياسية امتدت من المدن إلى البوادي، وبالتالي كان الاهتمام بضرورة العمل على ايجاد طرق تصل بين الحواضر والبوادي لتستطيع القوات العسكرية الوصول إليها واخمادها بسرعة وكذلك لتموين الجيوش من ميرة وتزويدها بالمعدات الحربية.

٣- ماتتمتع به المدن الرئيسة في الحجاز وخصوصا مكة والمدينة من أسواق تجارية، وما تتمتع بة من مكانة روحية عند المسلمين، اذ ياتي إليها الحجاج من مختلف بقاع العالم الإسلامي لاداء الحج والعمرة، أو للتجارة، فكان لابد من وجود طرق فرعية تزود بها البوادي الحواضر بما تنتجه، ثم ليتصل أهالي الأرياف والقرى بالأسواق المركزية في مكة والمدينة وكذلك ليؤدوا فروضهم الدينية من حج وعمرة (٥).

٤- الى جانب مايتطلبه النظام المالي في الدولة الإسلامية الذي يحتم على الوالي في أي إقليم ان يرسل جباة الزكاة التي تؤخذ على المواشي والمحاصيل الزراعية في القرى والأرياف خارج محيط المدن ،

لهذا فإن الخلفاء والأمراء كانوا يحرصون على تامين طرق تصل المراكز الإدارية بالأطراف المتعددة في الحجاز ليتم جباية أموال الزكاة وإرسالها إلى بيت المسلمين.

أما الطرق البرية التي تربط الحجاز مع غيرها من أجزاء العالم الإسلامي فهي كثيرة يمكن شرحها كما وردت في الخارطة المرفقة بهذا البحث.

فهناك الطرق التي تربط اليمن بالحجاز وهي قديمة ترجع إلى ماقبل ظهور الإسلام، إلاّ انها كانت أكثر وضوحا واكثر نشاطا في القرون الإسلامية المبكرة، وجاء ذكرها في كتب الجغرافيين الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثالث والرابع للهجرة. فذكروا أن هناك طريقين بريين تربطان اليمن بالحجاز، وهذان الطريقان ينطلقان من مدينة صنعاء اليمانية، أحدهما يتجه بمحاذاة البحر الأحمر إلى أن يصل مكة المكرمة، والآخر يتجه نحو الداخل مروراً بمدينة نجران عبر الأودية والهضاب حتى يصل إلى الطائف ثم مكة (٦)، ولكن يبدو في ضوء الكتب التاريخية العديدة ان طرق اليمن / مكة عبر الأراضي الداخلية، كانت أكثر استخداما من قبل التجار والعساكر وموظفي الدولة، وذلك لما يتوافر بها من محطات للاستراحة، ومصادر المياه، وما تنتجة الأرض من زراعات يقتات منها المارة(٧).

اما الطرق بين مكة واليمامة (من أرض نجد) فهي تتفرع عند اليمامة إلى طريقين أحدهما إلى بلاد البحرين نحو الجهة الشرقية، والاخر يبقى مستمرا إلى ان ينتهى في عمان الواقعه في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية(٨)، ومن عمان يتجه الطريق نحو الجنوب الغربي، بمحاذة ساحل البحر حتى يصل إلى مدينة صنعاء في اليمن، ثم يتصل باحد الطريقين سابقي الذكر، والذي يربط اليمن بمكة (٩)، وجميع الطرق السابقة شرحها تربط أطراف شبة الجزيرة بعضها ببعض، ولم يكن ذلك الاتصال تجاريا فحسب، بل كان إلى جانب ذلك إتصالا سياسياً وأدارياً، ومن يلقي نظرة على الأوضاع الإدارية في الحجاز ، ولأطراف الأخرى في شبه الجزيرة، كاليمن واليمامة والبحرين، يجدها كانت في بعض الأحيان تقع تحت إدارة واحدة خلال القرنين الأولين للدولة الإسلامية، وغالباً ما كانت المدينة في الحجاز هي المقر الرئيسي للإدارة، ولكن بتواجد مثل هذا الرابط الإداري، فلابد ان تكون هناك طرق برية نشطة تستخدم لسير موظفي الدولة، وكذلك للتجارة وزيارة الاماكن المقدسة، وهي تربط مابين تلك الأطراف والحجاز(١٠).

وعند مقارنة اليمن والبحرين وعمان في علاقتها التجارية مع الحجاز نجد ان الأولى كانت ذات صلة تجارية جيدة مع الحجاز وخصوصا في العصر الأموي وبداية العهد العباسي، وذلكن عندما أصبحت الخلافة العباسية في العراق بدلا من بلاد الشام، صارت أرض البحرين وعمان أكثر

نشاط في مستوها التجاري مع الأطراف الشرقية من العالم الاسلامي كالعراق وبلاد فارس والهند والصين وغيرها في حين ان الاتصال بين الحجاز واليمن لم يكن بالمستوى الذي علية في القرن الأول من الإسلام(١١).

وتتصل مكة بالعراق بطريق بري، فقد أتصلت بغداد والكوفة في العراق بمكة والمدينة في الحجاز، وهذه الطرق كانت من أهم الممرات التجارية، خصوصاً أثناء عهد بني العباس فكانت مهيأة بجميع وسائل الراحة، وذلك بعد ما قام الخلفاء العباسيون ببناء محطات للاستراحة عليها، ثم زودوها بالماء وما يحتاج إليه المسافر من أماكن للنوم والجلوس وغيرها بل وولي بعض خلفاء بني العباس عليها بعض المراقبين الذين يعملون على حراستها وحمايتها، بل وصيانتها واصلاح ما يخرب منها. وهذه الطرق تنطلق من بغداد إلى الكوفة ثم تسير عبر محطات تجارية تكبر وتصغر حسب اهميتها، ويعد منتصف الطريق بالنسبة للذاهب من العراق إلى الحجاز، تتفرع إلى فرعين في محطة تسمى معدن النقرة (انظر الخارطة رقم(١))، ويتجة أحد الفروع من هذه المحطة إلى المدينه والآخر يستمر الى مكة(١٢).

ومن أرض العراق هناك طريق آخر يصل بين مكة والبصرة، وهذا الطريق لايقل في أهميتها عن طريق الكوفة / مكة، وقد تعرض عدد من الجغرافين الأوائل لهذه الطريق ذاكرين مستوي نشاطها، وعدد محطاتها، ومابها من امكانيات للمسافر عليها، ويعد الحربي أفضل من تعرض لوصف

هذه حيث افاض في الحديث عن محطاتها ومستوى نشاطها التجاري (١٣). وكانت هذه الطريق أيضا تتفرع في محطة النباج إلى فرعين أحدهما يستمر على طولة إلى مكة والآخر يلتقي مع طريق الكوفة / مكة في محطة معدن النقرة، ثم يسلك احد الطريقين السابقي الذكر، والتي تصل إلى مكة أو المدينة(١٤).

كذلك كان يخرج من البصرة طريق يتجة الى الجنوب حتى اليمامة ومن هناك يتصل بطريق البصرة في منطقة ضرية ومنها الى مكة(١٥).

وتلك الطرق التي تربط مدن العراق بالحجاز، لم تكن تتوقف في البصرة، أو الكوفة أو بغداد، وانما كانت تربط أجزاء بلاد الشرق الإسلامي جميعاً مع المدن الحجازية، فنجد الحجاج والتجار كانوا ياتون من خرسان وفارس وبلاد ماوراء النهرين عبر طرق عديدة إلى البصرة أو الكوفة ثم يواصلون السير اما براً واما بحراً حتى يصلوا الى المدن الحجازية(١٦).

اما الطرق البرية التي كانت تربط أجزاء غرب العالم الإسلامي كالاندلس وشمال أفريقيا مع البلاد الحجازية فكانت تسلك ايضا العديد من الممرات في تلك الأجزاء حتى تتجمع في محطة ايلة على الطرف الشمالي لخليج العقبة، ثم تتفرع إلى طريقين احدهما تسلك الأراضي الداخلية حتى تصل إلى المدينة المنورة، والأخرى تتجه بمحاذاة ساحل البحر

الأحمر حتى ميناء الجار على البحر الأحمر، ومن هناك يبقي مستمراً إلى جدة ثم مكة أو يتجة شرقاً من ميناء الجار إلى المدينة(١٧).

وطريق بري أخرى يربط بلاد الشام بالحجاز، ويسلك الاتجاة الذي يخرج من دمشق ليلتقي بالطريق الذي ياتي من الأندلس وشمال أفريقيا ومصر في محطة أيلة ثم يواصل السير في احدى الطريقين اللذين يربطان ما بين تلك الجهات والمدن الحجازية، (في حين أن هناك طريق آخر داخلي يخرج من دمشق حتى يلتقي بالطريق الذاهب من أيلة إلى المدينة في محطة تسمى وادي القرى، والتي كانت من أشهر المحطات التجارية خلال القرون الإسلامية المبكرة (١٨) (انظر الخارطة المرفقة رقم(١))

وجميع الطرق البرية، السابقة الذكر، لم تكن في مستوى واحد من حيث الخدمة والأمن خلال العهود الإسلامية الأولى ، وخصوصاً بعد أن انتقلت دار الخلافة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ، ثم إلى العراق في عهد بني العباس، فعندما كانت الخلافة في بيت بني أمية، ومقر عاصمتهم أرض الشام، كانوا حريصين كل الحرص على ان تكون الطرق البرية التي تربط مابين الحجاز وبلاد الشام بل والأجزاء الغربية من العالم الإسلامي نشطة وتحت حماية جيدة، وكان خلفاء بني أمية يبذلون الأموال والجهود في سبيل صيانتها واصلاحها، ولتكون هذه الطرق حلقة الاتصال بين المدن المقدسة في الحجاز وعاصمة الخلافة سريعة ونشطة(١٩).

لكن عندما أنتقلت الخلافة إلى بني العباس، ثم أتخاذهم من بغداد عاصمة لهم، أصبحت الطرق البرية ما بين بلاد العراق والأجزاء الشرقية من الدولة الإسلامية أقوى في نشاطها واتصالها بالحجاز من تلك الطرق التي ترط مكة والمدينة بالأجزاء الغربية من الدولة الإسلامية، وذلك لما كان يبذله خلفاء بني العباس من جهود في إصلاح الطرق التي تربط العراق بالحجاز، والدارس لبعض المصادر التاريخية المبكرة وكذلك بعض المراجع الحديثة يلاحظ ماكان يبذلة العباسيون وخاصة في العصر العباسي الأول من الجهود والأموال الطائلة في تحسين وتسهيل المواصلات البرية مابين المدن العراقية والمدن الحجازية (٢٠)

لكن الأهتمام الذي كانت تلقاه طرق العراق / الحجاز، لم يدم طويلاً، لأنه بعد أن ضعف خلفاء بني العباس في العصور المتأخر، وبعد أن تسلط على الخلفاء والخلافة في العراق عناصر غير عربية، كالأتراك، والبويهيين، والسلاجقة وغيرهم، مما نتج عنه إصابة الطرق الحجازية العراقية بالأهمال؛ واستعادت الطرق التي كانت تربط شمال أفريقيا بمصر ومن ثم بالحجاز قوتها، وذلك عندما سيطرت الدولة الفاطمية على مصر، وخصوصاً في القرن الرابع والخامس الهجريين، (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ثم امتد نفوذها إلى السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز، وتوليها إمارة الحج التي كانت ترسل من مصر إلى مكة، وهذه الميزات التي كانت قد حصلت عليها الدولة الفاطمية لم تكن إلاّ سبباً قوياً في تحسين

وصيانة الطرق البرية التي تربط الحجاز بعاصمة الدولة الفاطمية في القاهرة (٢١). ولكنه مع وجود هذا التحول من الشرق إلى الغرب أو العكس والاهتمام بصيانة وحماية الطرق البرية بصفة عامة، فأنه لم يكن يمنع التدهور في حركة الطرق بين عواصم الدولة الإسلامية والمدن الحجازية، وهذا التدهور والانهيار يعود أساساً إلى ضعف الخلافة العباسية، ووقوع الصراعات السياسية في الدولة الإسلامية، وكذلك انقسام العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة ومتصارعة فيما بينها، وهذه الأسباب كلها كان لها أثر في جميع جوانب الحياة سواء سياسية، أو اقتصادية أو اجتماعية أو ادارية وغيرها. وانعكس بدوره على الطرق التي تربط بين أجزاء الدولة.

وكما أنه كانت هناك شبكة خطوط برية، فأن منطقة الحجاز لم تخلو من خطوط بحريه تصل منها أو أليها، وربما لا تقل أهمية عن الطرق البرية، وتعود في أهميتها ونشاطها لوقعها على البحر الأحمر الذي يربط الشرق بالغرب، حيث كان هناك طريق بحري يأتي من الصين عبر البحر الصيني، ثم يمر من المحيط الهندي عبر البحر العربي، وخليج فارس حتى يصل إلى البحر المتوسط، ثم يواصل السير حتى جنوب وغرب أوربا، وهذا الطريق يربط الشرق بالغرب ماراً بموانى الحجاز التي تقع على البحر الأحمر، ومن أهم تلك الموانى خلال القرون الإسلامية الأولى ميناء جدة والجار (٢٢).

وميناء جدة يقع على البحر الأحمر، ويبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً، وقد تحدث عدد من المؤرخين عن أول من أستخدم جدة ميناء، فأشاروا إلى أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان (٣٣/٦٤٣ ـ ٣٥/٦٥٦) كان قد ذهب للحج عام(٢٦هـ/٦٤٦م)، وبعد الفراغ من حجه زار مدينة جدة فرآها ملائمة لأن تكون ميناء رئيساً لمكة بدلاً من ميناء الشعبية، الذي كان الميناء المستخدم قبل زيارته لجدة(٢٣). وقد تعرضت العديد من المصادر والمراجع للوقت الذي بدأت تعرف جدة فيه كميناء، فمنهم من ذكر استخدامها ميناء قبل ظهور الإسلام، وآخرون قالو أنها لم تشتهر إلا بعد تلك الفترة التي أمر فيها الخليفة عثمان بن عفان بأن تكون الميناء الرئيسي في عام (٢٦هـ/٦٤٦م)، وقد ذكر حوتنق (Hawting) وجهات النظر المتعددة حول بداية استخدام هذا الميناء في مقالة حول مينائي جدة الشعيبة (٢٤). ثم خرج في نهاية مقالته، بأنه حتى لو كانت جدة قد عرفت واستخدمت ميناء قبل الإسلام فان الطرق التجارية البحرية عند عرب الحجاز لم تكن ذات أهمية كبيرة لا في العصور السابقة للإسلام ولا حتى في العقود الأولى من عصر التاريخ الإسلامي(٢٥).

ويتفق الباحث مع حوتنق فيما يتعلق بالعهد السابق للإسلام وحتى أثناء عهد الرسول ﷺ وكذلك عهد الخلفاء الراشدين، لكنه بعد انتشار الإسلام إلى أماكن عديدة من العالم ، حدث نوع من التطور والتغير على أحوال الحجازيين وغيرهم من سكان شبه الجزيرة، إذ أنهم لم يعودا

يقتصرون على الطرق البرية، ولكن امتد نشاطهم إلى ركوب البحر وتحسين الموانى التجارية ، وهكذا أصبحت جدة من أهم الموانى العالمية التي تربط الشرق بالغرب، فهذا المقدسي يتحدث عن ميناء جدة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فيشير إلى أنه كان يربط ما بين أسواق مصر والمغرب العربي، وهذه الأجزاء المتفرقة كان يأتي منها السلع المتنوعة عبر البحر الأحمر حتى تصل إلى ميناء جدة لتتم المتاجرة فيها بمكة والطائف وغيرها من المدن الحجازية، وخاصة أثناء موسم الحج. ويشير أيضا كل من ناصر خسروا(٢٧) والإدريسي(٢٨) إلى ما ذكره المقدسي، إلاّ أنهما يذكران أن السلع التي كانت تأتي إلى أسواق جدة، لم تكن مقتصرة على الأقاليم التي أشار إليها المقدسي فقط، ولكنها كانت تستقبل السلع من جميع أنحاء العالم، ويضيف كل من الفاكهي(٢٩) والحميري (٣٠) إلى أن أغلب السلع الآتية إلى جدة كانت ترسل إلى أسواق مكة والطائف، وكذلك المدينة، وبهذا فأن ميناء جدة كان مركز تموين لمكة وغيرها من المدن الحجازية.

والتجار الذين كانو يرتادون طريق البحر حتى ميناء جدة كانوا من المسلمين وغير المسلمين، فتذكر لنا وثائق الجنيزة (٣١) إن التجارة في بلاد الأندلس وشمال أفريقيا خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعده كانوا يذهبون بسلعهم المختلفة إلى أسواق مصر وبلاد الشام فإذا لم يجدوا أسواقاً نشطة ركبوا البحر حتى ميناء جدة ليحضروا موسم الحج ويبيعوا ما لديهم من سلع (٣٢)، في حين أن مراجع أخرى تذكر نشاط

الطـرق البحريـة الـتي تصـل الأنـدلس بشـمال أفريقيـا ومنهـا إلى المـدن الحجازية، وهذا النشاط التجاري بين تلك الأطراف يعود إلى العقود الأولى من الإسلام، ثم أن التجار الذين كانوا ينقلون السلع مابين الأجزاء الغربية والشرقية من الدولة الإسلامية كانوا خليطاً من التجار المسلمين وغير المسلمين(٣٣) فابن خرداذبه (٣٤)، خلال القرن الثالث الهجري، (التاسع الميلادي) يذكر أن هناك جاليات يهودية تسمى الراذانيه تقوم بنقل السلع التجارية ما بين الهند والصين، شرقاً وشمال أفريقيا والأندلس وأوريا غرباً، متخذين أثناء مرورهم طريق البحر الأحمر وميناء جدة الذي كان من أبرز محطاتهم التجارية والتي كانوا ينزلوا بها ويتبادلون السلع التجارية مع الحجازيين.

والطريق البحري المار بميناء جدة، كان يستخدمه التجار العرب سواء في شبه الجزيرة أو خارجها من مناطق العالم الإسلامي، كذلك كان الأفراد والموظفون والخلفاء في كل من الشام والعراق، يرسلون البضائع والأدوات التي يحتاج إليها أهل الحجاز عن طريق البحر، فيذكر أن بعض خلفاء بني أميه وبني العباس قد استخدموا ميناء جدة لإرسال أدوات البناء إلى الحجاز أثناء أجراء بعض الإصلاحيات العمرانية في المسجد الحرام وإنشاء بعض المرافق المعمارية الأخرى(٣٥).

أما ميناء الجار فيقع إلى الشمال من ميناء جده، ويبعد عن المدينة نحو مائه وسبعين كيلو، ويعتبر الميناء الرئيسي للمدينة، وقد يعود

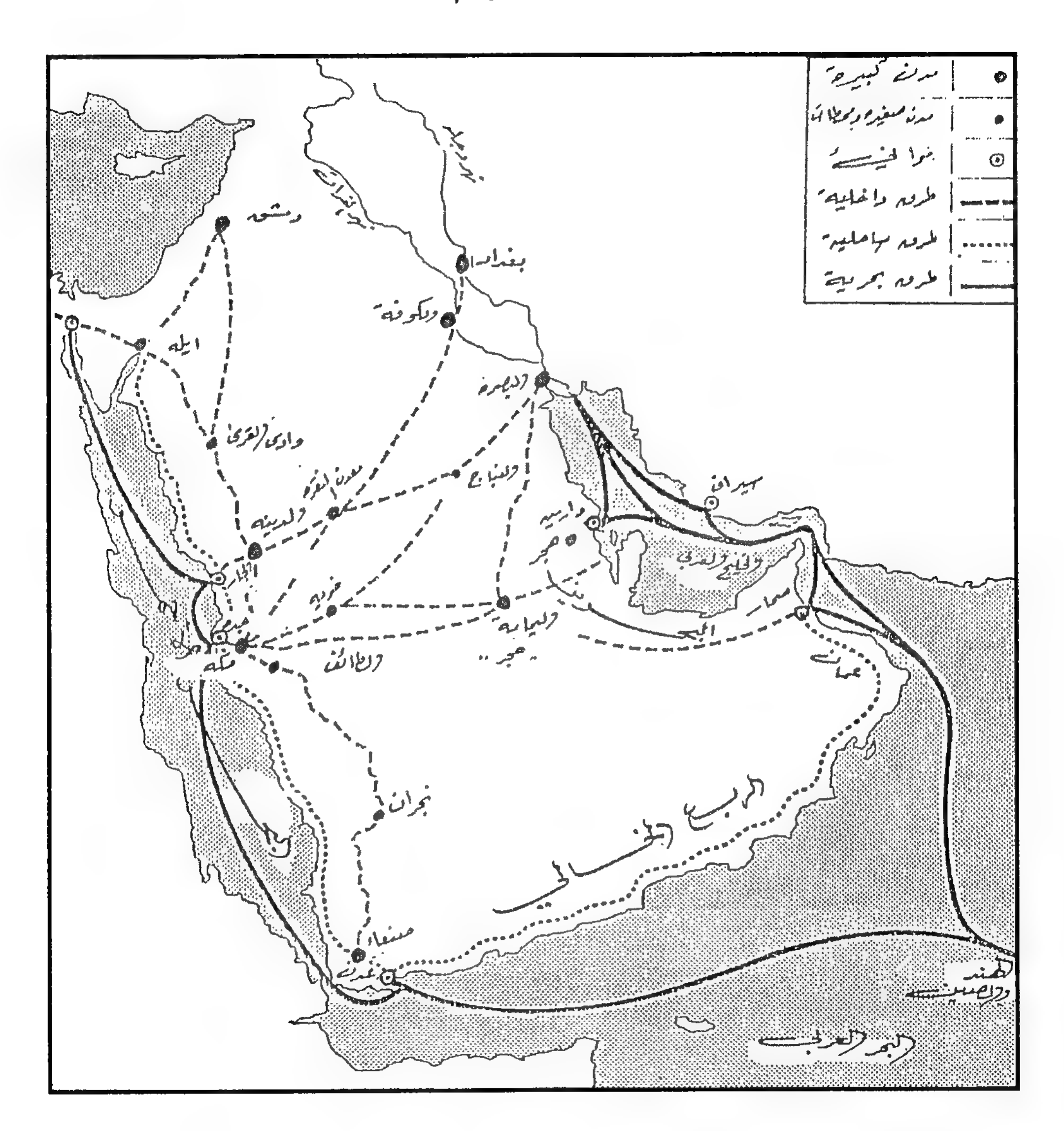
استخدامه كميناء إلى ما قبل الإسلام إلاّ إن شهرته لم تظهر واضحة إلاّ في أثناء العصور الإسلامية المبكرة، فيذكر البلاذري (٣٦) واليعقوبي (٣٧) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد استخدمه في استيراد الحبوب من مصر إلى الحجاز، ثم تبع كل من البلاذري واليعقوبي عدد من الجغرافين المسلمين الأوائل مشيرين إلى أهمية ميناء الجار ونشاطه والطريق البحري عبر البحر الأحمر بشكل عام، فابن خرداذبة ذكر عن ميناء الجار مثلما ذكر عن ميناء جدة، وكيف كان يستخدمه التجار اليهود الراذانية، كمحطة من محطاتهم التجارية التي ينزلون بها في طريقهم من الشرق إلى الغرب، وباستراحتهم في هذه المحطة كانوا أيضا يتاجرون مع أهل الجار وأهل المناطق المجاورة لهذا الميناء(٣٨)، ويشير كل من عرام السلمي (٣٩) والبكري(٤٠) وياقوت الحموي (٤١)، إلى إن السفن التجارية كانت تأتي إلى ميناء الجار من الحبشة، ومصر، والبحرين، والصين، وهي محملة بأنواع السلع التجارية لكي تصدر إلى المدن الحجازية عن طريق هذا الميناء. ويتحدث أيضاً المقدسي عن ميناء الجار، بأنه كان نقطة ارتكاز للتجار القادمين من الشرق والغرب، وكان فيه من الأسواق ما يجعله يستقبل كل السلع الواردة إلية، وخصوصاً ما كان يأتي عن طريق مصر من الحبوب والمواد الغذائية المتنوعة(٤٢). إلاّ أن ابن بكار أكثر وضوحاً في الإشارة إلى الأهمية الجيدة التي كان يشغلها ميناء الجار التجاري، فيذكر أنه كان هناك ممثلون لتجار المدينة يقومون بمراقبة أوضاع النشاط التجاري في ذلك الميناء وبالتالي يزودون التجار

المقيمين في المدينة بحركة العمل التجاري وكذلك بالمواد والسلع التجارية التي يحتاجون إليها(٤٣)، وهذا العمل أن دل على شيء فإنما يدل على النشاط التجاري الجيد في هذا الميناء، والذي عن طريقة يستطيع التجار في الحجاز معرفة الحركة التجارية ليس في الأقليم الإسلامية القريبة من الحجاز، ولكن يستطيعون أيضاً معرفة ما في الهند والصين والأندلس والمغرب العربي وغيرها من أقاليم العالم الأخرى(٤٤).

ولأهمية مينائي الجار وجدة فقد كان الخلفاء الراشدون والأمويون يهتمون بصيانة هذين الميناءين، بل وجلب الحبوب والمواد الغذائية من مصر وبلاد الشام عن طريق كل من جدة والجار، إلاّ أن ذلك الاتصال بين مناطق متعددة من العالم وبين أرض الحجاز عبر الطريق البحري، لم يستمر بالمستوى نفسه في عهد الدولة العباسية، وذلك بسبب انتقال الخلافة من الشام إلى بلاد العراق، إذ انه بعد هذا الانتقال، وبعد أن أصبحت بغداد العاصمة بدلا من دمشق صار النشاط التجاري أقوى وأكثر أهمية في الخليج العربي الذي يربط عاصمة الخلافة العباسية في العراق بكل من الهند والصين وغيرهما دون أن يعطي أي أهمية للطريق البحري الذي كان يأتي عبر البحر الأحمر، والذي كان عليه مينائي جدة والجار، كما أن الأمر لم يتوقف عند عدم الاهتمام لدي بني العباس فقط، بل بعض خلفائهم قد استخدم القوة في القضاء على طريق البحر الأحمر وأغلق بعض موانيه، فتشير المصادر الأولية إلى أن الخليفة أبا جعفر المنصور

العباسي أمر باغلاق ميناء الجار وقطع المساعدات التي كانت ترسل من مصر متمثلة في الحبوب والأطعمة عن طريق الجار، وهذا العمل الذي قام به الخليفة المنصور ليس إلاّ عقاباً لأهالي الحجاز (وخاصة أهل المدينة) الذين ساعدوا الثوار العلويين بقيادة محمد النفس الزكية الذي كان يتطلع ويعمل جاهداً إلى انتزاع الخلافة من بني العباس(٤٥) إلاّ إن السياسة التي سلكها المنصور لم تستمر طويلا، لأن الخليفة المهدي (١٥٨/٧٧٤- ١٦٩/٧٨٥م)، الذي تولى بعد والده المنصور، أعاد فتح ميناء الجار كما أعاد الطريق التجاري القديم إلى ما كان عليه، ولكن أوضاع ميناء الجار لم تتحسن خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة، (الثامن والتاسع الميلاديين) لعدم استتباب الأمن والأستقرار بين القبائل الحجازية، مما ساعد على أعمال السلب والنهب التي تعرض لها الميناء، إلى جانب ظهور ميناء ينبع وبدأ استخدامه كميناء للمدينة المنورة، مما أدى إلى انهيار وخراب ميناء الجار، في حين أن ميناء جدة وأن أصابه بعض الركود، خلال العصر العباسي الثاني بسبب الصراعات والثورات المتعددة، إلاّ إن ذلك لم يكن يؤدي إلى اختفائه، كما حدث لميناء الجار، كما أنه ما لبث أن استعاد نشاطه في القرون الوسطى من عصر الإسلام(٤٦).

الخارطة رقم (١)



الطرق البرية والبحرية الموصلة إلى الحجاز

الحواشي والتعليقات

١ــ ابن حرداذبة ، كتاب المسالك والممالك (ليدن ، ١٣٠٦ / ١٨٨٩م) ص ، ١٢٩ — ١٣١ ، اليعقوبي، كتاب البلدان (ليدن ، ١٨٩٢) ص ، ٣١٣ – ٣١٤ ، الحربي ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (الرياض، ١٣٨٩ / ١٩٦٩ م) ص ، ٤٢٥ – ٤٦٨ .

٢ــ ابن خرداذبه ، ص ١٣٤ ، الحربي ، ص ٦٥٣، ابن رسته، الاعلاق النفيسة ، (ليدن ، ١٨٩١م) ص ، ١٨٣ — ١٨٤ ، ابن قدامة، الخراج (ليدن ، ١٨٨٩م) ص ، ١٨٧ — ١٨٨.

٣ــ الحربي ، المناسك ، ص ٦٥٥ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، (القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٧١ م) ص، ٥٣٩.

٤ــ الحربي ، ص ، ٦٤٣ ، ٦٥٣ ، الطبري ، تاريخ ، ج٧ ، ص ، ٥٥٢ وما بعدها ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٣ (بيروت ، ١٩٦٨ م) ص ، ٧١،

H.A.R. Gibb. Art . " Abdallah idn al _ Zubayr" EI(2) . Vol. I. P.57

٥ــ انظر بعض المصادر التي تشير إلى وجود اتصال تجاري ما بين البوادي والمدن الحجازية في كتاب الأزرقي،أخبار مكة، ج٢ (مكة ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م) ص ، ٢٣٩. ابن جبير ، رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٨٥٢م) ص ، ١٢٠، ١٣٢ ابن المجاور ، بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى تاريخ المستبصر ، ج ١ (ليدن ١٩٥١ــ ١٩٥٤م) ص ٢٦ــ ٢٧ ، السمهودي ، وفاء الوفاد باخبار دار المصطفى ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٥٤ــ ١٩٥٥م) ص ، ٧٥٤ .

٦ــ الحربي ، المناسك ، ص ١٣٤ــ ١٣٦ ، ٦٤٦ ، الهمداني، صفة جزيرة العرب (الرياض ، ١٣٩٤/ ١٩٧٤م) ص ٣٣٨ — ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ابن قدامة ، الخراج ، ص ١٩٢ــ ١٩٣ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ، ١٨٧٧م) ص ، ١١١ــ ١١٢.

٧ـ انظر الزبيري ، كتاب نسب قريش (القاهرة ، ١٩٥٣م) ص ، ٢٤٢ ، ابن بكار ، جمرة نسب قريش ، ج ١ (القاهرة ، ١٣٨١/ ١٩٦١م) ص ، ١٣٠ — ١٣١. الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ٥٤١ ، قدامة ، ص ، ١٩٠ — ١٩٢ ، الحربي ، ٦٤٣ـ ٦٤٥، الهمداني ، صفة ، ٣٣٨ـ ٣٤٠.

٨ـ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (ليدن ، ١٣٠٢/ ١٨٨٥م) ص ، ٣٠ الحربي ، المناسك ، ص ، ٦٢٠ — ٦٢٢، الهمداني ، صفة ، ٢٨١ — ٢٨٢.

A. AL –Wuhaybi . The Northern Hijaz in the writing of the Arab Geogrophers. 800 – 1150 (Beirut. 1973) p. 91

٩ـ ابن خرداذبة ، ص ، ١٤٧ـ ١٤٨، قدامه ، ص ، ١٩٢.

١٠ـ انظر المصادر الأتية التي تشير إلى الصلات القوية بين تلك الأطرف مع منطقة الحجاز الأزرقي، أخبار ، ج ٢، ص ١٧٠ ، وكيع ، أخبار القضاء ، ج ١ (القاهرة ، ٣٦٦/ ١٩٤٧م) ص ، ٢٠٠،الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص، ٤٥٨ ، ٤٦٨، ج ٨ ، ص ، ٢٧٢، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ (بيروت ، ١٣٨٥/ ١٩٦٥م) ص ، ٤٤٥، ٤٥٤ ، ابن فهد ، اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ٢ (القاهرة ، ١٤٠٤/ ١٩٨٣م) ص ، ١٦٦، ١٧١.

١١ـ اليعقوبي، البلدان، ص ، ٣٣٧، الطبري ، تاريخ ج ٧ ، ص ، ٦١٧، الأصطخري ، كتاب مسالك الممالك (ليدن، ١٨٧٠م) ص ، ٢٥، المقدسي، أحسن ، ص ، ٨٢، ١٠٥، ١١٩ـ ١٢٠.

١٢ـ الحربي ، المناسك ، ص ، ٥٤٥ـ ٥٤٦، ابن رسته، الاعلاق ، ص ، ١٧٤ـ ١٧٧، اليعقوبي، البلدان ص، ٣١١، قدامة، الخراج ، ص ، ١٨٥– ١٨٧.

Saad al . Rashid . Darb Zubaydah : the Pilgrim from Kufa to Mecca (Riyadh. 1980) p . 21ff

١٣ـ الحربي ، المناسك ، ص ، ٥٧٢ وما بعدها .

١٤ـ ابن رسته، الأعلاق ، ص ، ١٨١ ـ ١٨٢، الحربي، المناسك، ص، ٥٨٧، ٦٠٥ قدامه، الخراج، ص، ١٩٠.

١٥ـ ابن خرداذبه ، المسالك ، ص ، ١٥١، ابن رسته ، الاعلاق ، ١٨٢، ١٨٤.

١٦ـ أنظر، ابن المجادر ، تاريخ ، ج ١ ، ص ، ١٣.

S.M. Imamuddin" Commercial Relation of Spain with Iraq . Persia . khurasan . China and India in the 10the Centuary a.c. " Islamic Culture. Vol. xxxv(1961) p. 177- 9

١٧ـ ابن خرداذبه ، المسالك ، ص ، ١٤٩، ابن رسته ، ١٨٣، الحربي ، المناسك ، ص ، ٦٤٩– ٦٥٠، قدامه الخراج، ص، ١٩٠.

١٨ـ انظر، ابن رسته ، الأعلاق ، ص ، ١٨٣، ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٥٠ .

Al. Wuhaybi . the Northern Hijaz . p315

١٩ـ الحربي ، المناسك ، ص ، ٦٤٣، ٦٤٧، ٦٤٩، ٦٥٣ المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (القاهرة ، ١٩٥٥م) ص ، ٣٠، صالح أحمد العلي " طرق المواصلات القديمة في بلاد العرب " مجلة العرب. ج ١١ (الرياض ، ١٣٨٨/ ١٩٦٨م) ، ٩٧٢.

٢٠ـ انظر، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ، ٥٧٧، ج ٩ ، ص ، ١٢٩– ١٣٠ ابن فهد، اتحاف ، ج ٢ ، ص، ١٨٧، ٣٠٠، عبد الجبار الجومرد ، هارون الرشيد ، دراسة تاريخية ، اجتماعية ، سياسية ، ج ١ (بيروت،١٩٥٦م) ص، ٣٨– ٣٩.

٢١ـ انظر ، ابن خرداذبة، المسالك ، ص ، ١٥٣– ١٥٤، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ج ٢١ (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ، ٢٣٨– ٢٣٩، ٦٠٨، وما بعدها ، سيدة اسماعيل كاشف ، "البحر الاحمر والفتح

العربي" البحر الأحمر في التاريخ والسياسية ، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث ، مارس ، ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ، ٩٣ـ١٠٤.

٢٢ـ انظر عرام السلمي، أسماء جبال تهامة (القاهرة،١٣٩٤/١٩٧٤م)، ص، ٣٩٨، اليعقوبي، البلدان، ص، ٣١٧.

S.M.Ahmad " Commercial relation of India with the Arab world (1000 B.C ub to Moderntimes " Islamic Culture . Vol . XXXVIII(1964) PP. 141-155. R. Hartmann (rev. P.A. Marr) "Djudda " EI(2) . Vol .II. P.572. S.D. Goitein " Letters and Documents on the Indian trade in the Medieval times " Islamic Culture, Vol . XXXVII (1963) p. 191. 196-7.

٢٣ـ الفاسي ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، ج١ (بيروت ، بدون تاريخ) ص ، ٨٧، ٨٨، النهراولي، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام (بيروت ، ١٩٦٤م) ، والشعيبة كانت الميناء المستخدم من قبل ظهور الاسلام، وهي تبعد عن مكة جهة الجنوب بحوالي خمسة وثمانين كيلاً ، انظر حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، نصوص، مشاهدات، انطباعات (الرياض ، ١٣٩٠/ ١٩٧٠م) ، ص ، ١٦٧ـ ١٦٨.

٢٤ـ انظر:

G.R . Hawting . "The Origin of Jedda and the Prpblem of al. Shuayba "Arabica . Vol . XXXI (1984) PP. 318-326.

٢٥ـ Ibid. p.326.

٢٦ـ أحسن التقاسيم ، ص ، ٧٩، ٩٧.

٢٧ـ رحلة ناصر خسرو القبادياني ، ترجمة احمد خالد البدلي (الرياض ، (١٤٠٣ـ١٩٨٣م) ص ، ٣٥.

٢٨ــ "جزيرة العرب من نزهة المشتاق " تحقيق إبراهيم شوكت"، مجلة المجمع العربي العراقي ، ج ٢١ (١٩٧١م) ص، ٢٠ .

٢٩ــ تاريخ مكة ، في كتاب المنتقي في اخبار أم القرى (ليبزج ١٨٥٩م) ص ، ٢٦ .

٣٠ــ كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار (بيروت ١٨٥٩م) ص ، ١٥٧.

٣١ــ وثائق الجنيزة (The Geniza Documents) هي مجموعة من الوثائق التي عثر عليها في حجرة مظلمة في سينا جوج (معبد اليهود) بالفسطاط على مقربه من القاهرة ، أيضا مجموعة وثائق اخرى وجدت في مقبرة البساتين على مقربة من مدينة القاهرة ، وقد وجد هذه الوثائق بعض الأساتذة الغربيين الذين نقلوها إلى الجامعات الغربية ، ولم يكن نقلها وجمعها في مكان واحد، وإنما تناثرت في أكثر من مكان ، وقد يزيد عددها على عشرة الآف وثيقة في أماكن متعددة من العالم الغربي. انظر عن هذه الوثائق عند حسنين محمد ربيع ، وثائق الجنيزة وأهميتها لدارسة التاريخ الاقتصادي " دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، ج ٢ ، الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، (الرياض ، ١٣٩٧/ ١٩٧٩م) ص ، ١٣٢.

S.D. Goitein. Studies in Islamic History and Instiution (leodon . 1966) p. 279- 280. idem " The Cairo Geniza as Asource of the History of Muslim civilization" Studia Islamica Vol.III (1955) pp. 75ff.

٣٢ــ ربيع " وثائق الجنيزة " ص ، ١٣٥، S.D.Goitein . A Mediterranean society . Vol I. (Berkeley . 1967) p. 214.

٣٣ــ محمد زغروت، (العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين " مجلة الدارة، مج١١ ، ج ١ (١٤٠٥م ١٩٨٥م) ص ، ١١٣– ١٢٨.

٣٤ـ المسالك، ص، ١٥٣-١٥٤.

٣٥ـ انظر الأزوقي، أخبار ، ج ٢ ، ص ، ٧٦ ، ٨٠ ، الفاكهي ، كتاب أخبار مكة ، رسالة دكتورة ، بجامعة أكستر، تحقيق فواز الدهاس (١٩٨٣م) ص ٣٢٣، ٣٢٧ ، طاهر العميد " التوسعات القديمة والحديثة في عمارة المسجد الحرام " مجلة كلية الآداب ببغداد ، ج ١٤ (١٩٧٠– ١٩٧١ م) ص ، ٥٠٨ ومابعدها .

٣٦ـ فتوح البلدان ، (بيروت ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م) ص ، ٢١٧ — ٢١٨ .

٣٧ـ تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ (ليدن ، ١٨٨٣م) ص ، ١٧٧.

٣٨ـ ابن خرداذبة، المسالك ، ص ، ١٥٣– ١٥٤ .

٣٩ـ أسماء ، ص ، ٣٩٨ـ ٣٩٩.

٤٠ـ معجم ما استعجم ، ج ٢ (القاهرة ١٣٦٤/ ١٩٤٥م) ص ، ٣٣٥ .

٤١ـ معجم البلدان ، ج ٢ (بيروت ، ١٣٧٤/ ١٩٥٥م) ص ، ٩٢– ٩٣.

٤٢ـ المقدسي ، أحسن ، ص ، ٩٧.

٤٣ـ ابن بكار ، أخبار الموفقيات ، (بغداد ١٣٩٢/ ١٩٧٢م) ص ، ١٤٦، والجمهرة ، ج١ ، ص ، ٤٨٧، اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ، ١٧٧.

٤٤ـ للمزيد انظر: ابن بكار ، جمهرة ، ج ١ ، ص ، ٤٨٧.

٤٥ـ أنظر ابن بكار ، أخبار ، ص ، ٣٣٩ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ، ٦٠٣.

J.Lassner. The Shapping of Abbasid Rule (Princeton. 1980) P. 70 - 72. F. Omar. Some Aspects of the Abbasid - Husaynid Relations during the Early Abbasid Period 132-193. A.H. 750-809 A.D. "Arabica. Vol. XXXII(1975) P.170ff.

٤٦ـ أنظر الطبري ، تاريخ ، ج٧ ، ص ، ٦٠٣، ج٩ ، ص ، ١٢٩ـ ١٣٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٢ (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص ، ٢٦٢.

S.Ameer Ali. Ashort History of The Saracens . (London . 1899) P. 229.

R. Hartmann " Djudda" (rev. P.A. Marr) . EI(2) . Vol .II. P.571-3.

الدراسة التاسعة

صور من الصلات الحضارية بين مكة المكرمة وبلاد السراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة

(ق١ – ق١٠هـ / ق٧ ق١٦م)[*]

(*) قدمت محاضرة في نادي مكة الثقافي الأدبي في ٢٠/١٠/١٤٢٣هـ الموافق ٢٤/١٢/٢٠٠٢م .

أولاً: مقدمة:

صاحب المعالي أ.د. راشد الراجحي

رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي،

أصحاب الفضيلة، أصحاب السعادة، الإخوة الحضور.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعد

أشكر القائمين على إدارة هذا النادي العريق لإتاحتهم الفرصة لي للالتقاء بهذه الشخصيات النيرة في بلدكم المبارك (مكة المكرمة) التي شرفها الله تعالى بأن جعلها موضعاً للبيت العتيق قبلة المسلمين، ومهداً لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين، رسولنا محمد الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفيها بُشر الرسول الكريم بنبوته وأُمر بالدعوة للرسالة السماوية الخاتمة. وشهدت أرضها نزول جزء كبير من وحي السماء عليه ﷺ(١).

أيها الحفل الكريم :

موضوع حديثنا اليوم يدور حول الصلات الحضارية بين مكة المكرمة وبلاد السراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، وهو موضوع جَدُّ طويل ومتشعب ، ولذا سوف أحاول في خلال هذه الأمسية الثقافية تسليط بعض الأضواء عليه ، وأبدأ بذكر السبب في اختياري لمثل هذا الموضوع ليكون محور محاضرتنا اليوم ، ويكمن السبب في إحساسي ، بصفتي باحثاً ، انصراف المؤرخين المحدثين عن التطرق إليه والغوص في تفاصيله ودقائقه ، على الرغم مما يعكسه هذا الموضوع من أهمية تاريخية وحضارية بالغة ، حيث يُبرز لنا تاريخ وحضارة مجتمعين مختلفين في كثير من مناحي الحياة ومناشطها لا سيما الناحية الجغرافية والموارد الاقتصادية ، مما جعلهما في حاجة إلى التواصل الدائم والمستمر فيما بينهما .

ثانياً التعريف ببلاد السراة :

وقبل أن أدخل في صلب موضوع هذه المحاضرة ، أود التوقف قليلاً للتعريف بما المقصود من التعبير (ببلاد السراة) الوارد في عنوان محاضرتنا هذه الليلة .. فنقول : المقصود بها تلك المنطقة الممتدة من قرب الطائف ومكة المكرمة شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً . وهذه المنطقة لا تشمل كل بلاد السراة المشار إليها في كتب التراث ، والتي قد تمتد شمالاً إلى المدينة المنورة أو بلاد الشام، وجنوباً إلى حواضر اليمن الكبرى. وبين هذا وذاك ،

سنركز في موضوعنا هذا على واسطة العقد أي قلب ذلك الإقليم ووسطه، فنقول سراة الشيء في اللغة أعلاه وظهره ووسطه ، ويذكر عن بلاد السراة أنها سلسلة الجبال المتصلة المشرفة على عرفة والتي تمتد إلى حواضر اليمن(٢). ويشير بعض الجغرافيين المسلمين القدماء إلى أن تلك الجبال الممتدة من حواضر الحجاز الكبرى إلى حواضر اليمن يطلق عليها جبال السروات ، وربما أطلق عليها الحجاز ، لأنها تحجز بين تهامة في الغرب ونجد في الشرق(٣). ويبدو أن حدود جبال السروات أو الحجاز صارت مثار جدل واختلاف عند الجغرافيين المسلمين . والذي يهمنا في هذا الصدد أن بلاد السراة المعنية هنا ، عرفت باسم السروات ، ومفردها سراة ، وبهذه المنطقة سروات كثيرة . أي قمم . من أشهرها سراة الطائف ، يليها نحو الجنوب سراة فهم وعدوان ، ثم سراة بني سعد وبالحارث ، ثم سراة بني مالك بجيلة ، فسراة غامد وزهران ، ثم سراة خثعم وشمران وبلقرن ، فسراة الحجر ، يليها سراة عسير التي كان يطلق عليها قديماً (سراة عنز) ، ثم سراة قحطان ، وتعرف قديماً (بسراة جنب) (٤) ، وتمتد أطرافها الجنوبية إلى بلاد نجران.

وهذه السروات يسكنها عديد من القبائل والعشائر والأفخاذ ، وبالتالي كانت وما زالت تنسب كل سراة إلى القبيلة أو العشيرة التي تقطنها ، وإن كان معظم سكان تلك السروات يسكنون في المرتفعات أو السروات التي تفصل بين الأجزاء التهامية والنجدية ، إلا أن بعض الأفخاذ والعشائر

كانت ترحل عن مواطنها في السروات (٥) ، وتنزل الأغوار التهامية في الغرب أو الأجزاء النجدية في الشرق .

ولذلك فإن بلاد السروات يغلب عليها كثرة وارتفاع الجبال والهضاب، وتعدد الأودية التي تتجه إلى الغرب فتصب في البحر الأحمر ، أو تنحدر شرقاً تجاه هضبة نجد كما أنها تميزت بثراء غطائها النباتي الطبيعي ، وتنوع موارد الثروة الحيوانية بها ، علاوة على كثرة مزارعها ومراعيها وكل ذلك مميزات عديدة لتلك البلاد جعلتها تختلف اختلافاً ظاهراً على سبيل المثال عن أرض مكة المكرمة التي عُرفت على مر السنين بندرة غطائها النباتي وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها (٦) ، ولكن لكونها بلداً حراماً فقد جعلها سوقاً تجارياً عالمياً يفد إليها الحجيج والتجار من كل مكان ، وهذا الاختلاف بين المنطقتين جعل الصلات نشطة بين أهليها على مر العصور التاريخية سواء في الفترة الجاهلية أو العصور الإسلامية على اختلافها (٧) .

ثالثاً الصلات الحضارية بين أهل مكة المكرمة وبلاد السراة في عصر الرسالة :

أ- موقف أهل السراة من الدعوة الإسلامية :

نجد أن القرآن الكريم يشير إلى تلك الصلات من خلال سورة قريش التي تتحدث عن رحلة تجار مكة الموسمية خلال فصل الشتاء إلى أرض اليمن ، وكان أولئك التجار بدون شك يسلكون في رحلتهم الطرق التجارية

التي تربط بين مكة واليمن وبعضها كان يتخلل الأجزاء الشرقية من أرض السروات (٨). ولكن بعد مجيء الرسول ﷺ وظهوره في مكة المكرمة يدعو الناس إلى عبادة الله وحده أدى إلى أن تتصدى له قبيلة قريش وتحاربه بكل الوسائل ، وتحرض جميع القبائل في شبه الجزيرة على عدائه ومحاربته، وسكان السراة بما فيهم أهل الطائف الذين لم يكونوا بمعزل عن سير الأحداث، أثناء مرحلة الدعوة المكية ، وإنما كانوا على صلة سياسية وحضارية بأهل مكة ومن جاورها (٩) ، ولكن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو : ماذا كان موقف السرويين أثناء تلك الفترة ؟ والواقع أن موقفهم كان سلبياً من الدعوة الإسلامية ، لأن قبيلة قريش في نظرهم كانت المثل الذي يقتدى به ، ولذا انساقوا وراء قريش في عدائها للرسول ﷺ في مكة المكرمة(١٠) ، ولم نستطع العثور على دليل واحد يشير إلى أن أهل السراة وقفوا موقفاً إيجابياً من الرسول ﷺ ودعوته في المرحلة المكية ، اللهم إلا بعض حالات فردية تمثلت في شخصيات سروية تجاوزت الطوق الذي ضربته قريش حول الرسول ﷺ ومن آمن معه في مكة المكرمة ، ومن تلك الشخصيات التي حفظتها لنا بعض كتب التراث الإسلامي الطفيل بن عمرو الدوسي الزهراني ، وضماد الأزدي (رضي الله عنهما) من أزد شنؤة بسراة عنز(١١). وقد فصلت بعض كتب التراث الإسلامي قصة لقائهما بالرسول ﷺ وإسلامهما على يديه ثم رجوعهما إلى أوطانهم لدعوة أهلها إلى الإسلام(١٢).

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وقبل السنة الثامنة للهجرة بقيت بلاد السراة تعيش كما كان القرشيون في ضلال وعبادة للأوثان على الرغم من أن معظم أهل هذه البلاد قد سمعوا عن الإسلام وعن ظهور الرسول ﷺ سواء من القرشيين الذين يمرون ببلادهم في طريقهم إلى اليمن كما أسلفنا القول ، أو من السرويين ذاتهم الذين كانوا ينزلون بتجارتهم لأرض الحجاز ، كما تسامعوا أيضاً بأمر الدعوة الإسلامية من مصادر أخرى منها السرايا التي أرسلها الرسول ﷺ إلى بعض المواضع الجنوبية من مكة والطائف ، فتشير بعض كتب السيّر إلى تلك السرايا ومنها السرية التي أرسلها الرسول ﷺ في شهر شعبان من السنة السابعة للهجرة إلى منطقة تربة جنوبي الطائف (١٣) ، وجعل على قيادتها الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت تضم من صحابة رسول الله ثلاثين رجلاً، فذهبوا إلى بلاد تربة فوجدوا العشائر قد تفرقت من مواطنها ، فعادوا إلى المدينة (١٤) . ولم تذكر الروايات الطريق التي سلكها عمر بن الخطاب للوصول إلى تربة جنوبي الطائف ، حيث كانت أغلب البلاد جنوبي المدينة حتى تربة مأهولة بالمشركين المعادين للرسول ﷺ ، ولكن ليس ببعيد أنه كانت هناك طرق مطروقة بين بلاد تهامة والسراة من جهة والمدينة المنورة من جهة أخرى ، لأن المصادر تذكر قدوم أول طلائع المسلمين من بلاد السراة في شكل جماعات ، وذلك بعد رجوع الطفيل ابن عمر الدوسي من مكة إلى قومه ، فبقي يدعوهم إلى الإسلام حتى السنة السابعة للهجرة .

ب- دخول أهل السراة في الإسلام وصلاتهم بالمدينة المنورة :

وفي السنة السابعة للهجرة خرج الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه من سراة غامد وزهران ومعه ثمانون بيتاً من دوس فقدموا على الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم (١٥) . وخروج مثل هذه الأعداد الكبيرة من بلاد السراة مروراً ببلاد الطائف ومكة المكرمة قبل فتحها ، يُعدّ دليلاً على وجود طرق تربط بين تهامة والسراة وبين المدينة المنورة، ثم إن أهل الطائف ومكة ، وبخاصة منذ السنة السابعة للهجرة (١٦) ، ربما غدوا عاجزين عن قطع الطريق الواصل بين بلاد اليمن والسراة وبين عاصمة الإسلام في المدينة ، هذا بالإضافة إلى أن قوة المسلمين أصبحت مرهوبة الجانب ليس في المدينة وما حولها فحسب ، وإنما في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية .

وبعد معركة حنين ، وحصار الطائف في السنة الثامنة للهجرة علَت كلمة الإسلام الأمر الذي أدى إلى انهيار الشرك في بلاد تهامة والسراة وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية . إذ تبع ذلك قدوم وفد من ثقيف على الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، وتبعته وفود أخرى من حواضر تهامة والسراة وبلاد اليمن (١٧) . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل دخل سكان السراة وتهامة في الإسلام زرافات أو وحدانا ؟ وهل قام ممن دخل في الإسلام من أهل السراة بنشر الإسلام بينهم ؟ وهل بقي بعضهم على وثنيته تأخذه العزة بالإثم ؟

الواقع أن أهل تهامة والسراة لم يدخلوا في الإسلام بشكل جماعي ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من القبائل التي دخلت الإسلام بعد فتح مكة المكرمة . ويمكننا القول إن دخولهم الإسلام كان ما بين السنتين السابعة والعاشرة للهجرة . فبعد فتح مكة المكرمة ثم بعد معركة حنين ومحاصرة أهل الطائف ، بادر بعض السرويين بالدخول في الإسلام ، الأمر الذي أدى إلى استعانة الرسول ﷺ بهم وغيرهم من الداخلين في الإسلام على محاربة من بقي على عقائد الوثنية. وتذكر بعض المصادر أن الرسول ﷺ أرسل الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه مع بعض رجاله بعد معركة حنين في السنة الثامنة من الهجرة لمحاربة من بقي على الوثنية في بلاد غامد ودوس وأوصاهم بهدم صنم عمر بن حممة الدوسي ، الذي يعرف بذي الكفين ، فلم يكن على الطفيل إلا أن يطيع أمر الرسول ﷺ ويطلب من الرسول الوصية ، فقال ﷺ للطفيل ((افش السلام ، وابذل الطعام ، واستحي من الله كما يستحي الرجل ذو الهيئة من أهله(١٨) ، إذا أسأت فأحسن ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين))(١٩) . ثم خرج الطفيل بمن معه فحارب بعض المشركين في بلاد دوس وما حولها ، ثم هدم صنم " ذا الكفين"، وجعل يحشو النار في جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك

ميلادنا أقدم من ميلادك

أنا حشوت النار في فؤادك

وبعد ذلك رجع الطفيل ومن معه من قومه ، وكان عددهم أربعمائة رجل ، فقابلوا الرسول ﷺ بالطائف(٢٠). ويذكر ابن الجوزي أن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قدم على الرسول ﷺ ببعض قومه بعد فتح مكة المكرمة ، فأسلموا وحسن إسلامهم . ثم رأّسَ الرسول ﷺ جريراً على صحبه وطلب منهم هدم صنم ذي الخلصة في بلاد خثعم ، فلبى ما أمر به الرسول ﷺ (٢١) . ويشير ابن سعد في رواية أخرى عن جرير بن عبدالله بأنه قدم على الرسول ﷺ في السنة العاشرة ومعه مائة وخمسون رجلاً من بجيلة فرحب به الرسول ﷺ ومن معه ، ثم قال له بايعني ((على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان، وتنصح المسلمين ، وتطيع الوالي ، وإن كان عبداً حبشياً " ، فقال : جرير (نعم) فبايعه الرسول ﷺ)) ، ثم سأله الرسول ﷺ عن أحوال ما وراءه في بلاد السراة ، فقال : ((يا رسول الله ، قد أظهر الله الإسلام ، وأظهر الآذان في مساجدهم وساحاتهم ، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد (٢٢) ، قال : ((فما فعل ذو الخلصة ؟ " قال " هو على حاله ، قد بقي والله مريح منه إن شاء الله)) (٢٣) .. فبعثه الرسول ﷺ إلى هدمه وعقد له لواء ومعه مائتان من قومه ، فذهب جرير ومن معه فهدموه ، ثم رجعوا إلى الرسول ﷺ فقال : ((يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد هدمته ، وأخذت ما عليه ، وأحرقته بالنار وتركته كما يسوء من يهوى هواه ، وما صدنا عنه أحد)) فسر الرسول ﷺ وبرّك على جرير وقومه (٢٤) .

وتؤكد هذه الروايات أن الإسلام قد انتشر بين سكان بلاد السراة ، وأن مواطن الشرك وعبادة الأصنام أخذت في الزوال ، وينهض دليلاً قوياً على تواصل العلاقات بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد السراة ، ما ذكرته المصادر التاريخية الإسلامية بإسهاب عن الوفود القادمة من بلاد السراة مارة بمكة المكرمة في طريقها نحو المدينة لإشهار إسلامها بين يدي الرسول ﷺ ، وقد استطعنا حصر ما يقرب من عشرين وفداً قدمت من بلاد تهامة والسراة ، الواقعة بين أرض الحجاز واليمن ، إلى المدينة المنورة ، ثم عادت تلك الوفود جميعها تعمل على نشر الإسلام بين سكان مواطنها الأصلية (٢٥) .

رابعاً الصلات بين مكة المكرمة وبلاد السراة في عصر الخلافة الراشدة والعصرين الأموي والعباسي :

ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وأصبحت جميع بلاد السراة تدين بالإسلام ، بل صار بها بعض ولاة الرسول ﷺ الذين يقومون على إقامة وحفظ شعائر الإسلام في هذه البلاد . ومنذ عصر الرسول ﷺ ومكة المكرمة أصبحت إحدى ولايات الدولة الإسلامية التي عين عليها الرسول ﷺ أميراً من قبله ، وهكذا استمرت مكة المكرمة إحدى الولايات الهامة في شبه الجزيرة العربية خلال عهود الخلفاء الراشدين ، وخلفاء الدولتين الأموية والعباسية ، وبمراجعتنا كتب التاريخ الحولية وكذلك

كتب التراجم ، والكتب المحلية لتاريخ مكة المكرمة نجد أن والي مكة المكرمة كان يعين من قبل الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس ، ومهمته لم تكن محصورة على إمارة مكة وإنما في أغلب الأحيان تمتد إلى الطائف وبلاد السراة ، وأحياناً أخرى تشمل بلاد اليمن واليمامة ، وذلك حسب نفوذ وقوة الأمير المعين على مكة المكرمة (٢٦) . ونجد أن المصادر التاريخية تشير إلى أن والي مكة كان نادراً ما يذهب إلى بلاد السراة ، ولكن يصل جنوباً إلى بلدة الطائف ، ثم ينيب عنه من يتولى شؤون الحياة الإدارية والسياسية في بلاد السراة ، وغالباً ما كان أعيان وشيوخ القبائل هم الذين يسوسون الأمور الإدارية والسياسية في أوطانهم ، وقد يعترفون اسمياً بوالي مكة المكرمة فيدفعون الزكاة للجباة الذين يرسلهم ، وأحياناً قد تنتشر الفوضى في الحجاز وفي بلاد السراة فلا يدفعون ما هو مفروض عليهم وقد انتشر ذلك إثر ضعف الدولة العباسية في عصرها الثاني فأصبح ولاء كل عشيرة أو قبيلة إلى شيخها (٢٧) ، يؤكد ذلك الرحالة المسلمون الذين وفدوا على شبه الجزيرة العربية وذكروا أرض السروات فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجري ومنهم ناصر خسرو (٢٨) ، وابن جبير (٢٩) ، وابن المجاور (٣٠) حيث أوردوا في مدوناتهم أن بلاد السرو في عصورهم تتكون من قبائل وفخوذ من العرب يُحكمون من قبل مشايخهم (٣١) ، ويورد لنا ابن المجاور عدة تفصيلات دقيقة ينوه فيها عن طبيعة هذا الحكم فيذكر أنه يحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ذو عقل وفطنة ، فإذا حكم

بأمر لا يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم ، ثم يقول: ((وجميع من في هذه الأعمال - يقصد بلاد السراة - لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون خراجاً ، ولا يسلمون قطعة ، وكل واحد منهم مع هوى نفسه..))(٣٢) .

خامساً أثر ضعف الخلافة الإسلامية على العلاقات بين مكة المكرمة وبلادة السراة:

وهذه الهيمنة والاستبداد من قبل شيوخ القبائل على أفراد قبائلهم ، لم تنشط وتقوى شوكتهم إلا منذ بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي عندما بدأت تضعف السلطة المركزية بمقر الخلافة الإسلامية في بغداد أثناء عصر الخلافة العباسية ، وبداية هذا الضعف سار يمتد إلى الولايات الإسلامية ، ومكة المكرمة إحدى الولايات الهامة التي أصبح أمراؤها غير قادرين على حفظ الأمن وضبط الأحوال الإدارية لا في مكة المكرمة نفسها ولا في بلاد السروات التابعة إدارياً لوالي مكة (٣٣) . ومن يستقرئ تاريخ بني العباس منذ القرن الثالث الهجري يجد أن كثيراً من الأمصار الإسلامية بدأت تستقل اسمياً أو فعلياً عن مركز الخلافة وذلك بظهور بعض الأمراء الطامعين الذين عملوا على إقامة دويلات إسلامية يتولون إدارتها هم وذراريهم من بعدهم ، وبلاد السراة ربما لم تتوافر لديها المؤهلات التي تساعد على ظهور من يستقل بأمرها عن الدولة الإسلامية، كما فعل آل زياد في اليمن ، أو آل طاهر في بلاد فارس،

أو إبراهيم بن الأغلب والرستميون في بلاد المغرب (٣٤) ، وإنما سادتهم الحروب والفوضى والفتن ، وذلك ما ذكره ابن المجاور عندما قال ((لا يزال القتال دأبهم - يقصد أهل السراة - فيتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طول الدهر على هذا الفن ...)) (٣٥) .

بقيت مكة المكرمة مهمة من الناحية الدينية لأهل السراة ، لكن لم تعد المكانة السياسية ذات أهمية كبيرة للسرويين ، وذلك لما ساد العالم من صراعات سياسية وعقدية ، فالخلافة العباسية أصبحت تتراجع وتتدهور منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، والخلافة الفاطمية أيضاً ظهرت في مصر وأصبحت تنافس خلفاء بني العباس وتسعى للسيطرة على الحرمين الشريفين ، وهكذا تعاقبت الظروف السياسية في العالم حتى ظهرت طبقات الهواشم في مكة المكرمة وصار همهم الكبير هو ما يدور من أحداث في مكة المكرمة خلال مواسم الحج(٣٦) ، وكذلك ما نتج من أحداث سياسية مختلفة في العالم الإسلامي ، وكيف أثرت وتأثرت بلاد مكة بتلك الأحداث ، وبالتالي فقد صارت الصلات السياسية والإدارية بين كل من أهل مكة وبلاد السراة شبه معدومة ، اللهم إلا أمثلة يسيرة بين بعض العشائر أو القبائل السروية التي كانت على صلات ببعض أمراء مكة الهاشميين الذين كانوا أحياناً يطلبون منهم العون والمدد المادي والمعنوي للصمود في وجه بعض الأحداث السياسية أو العسكرية المحلية التي كانت تحدث في مكة(٣٧). وكتب التاريخ المحلي لمكة المكرمة تحوي البعض من تلك الأمثلة(٣٨).

أما الصلات التجارية بين المجتمعين المكي والسروي ، فقد استمرت مزدهرة على مر فترات التاريخ سواء في أوقات الضعف السياسي أو القوة ، ساعد على ذلك عدة عوامل منها كون مكة المكرمة أحد الأسواق المعروفة عالمياً في منطقة الشرق الأدنى ، وكذلك ما تميزت به بلاد السراة من وفرة وغنى في خيراتها ، وتنوع ما تنتجه أراضيها ، وحاجة السرويين إلى أسواق مكة لتصدير وبيع ما يفيض عن حاجتهم ، واستيراد ما يتوافر بأسواقها مما يحتاجون إليه لتسيير حياتهم وسُبل معيشتهم (٣٩) .

ويؤكد ما ذهبنا إليه ، ما ورد في مصنفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل مثل : الهمداني ، وابن خرداذبة ، وابن الفقيه ، وقدامة ، وابن حوقل والاصطخري وغيرهم حيث يشيرون في مواضع عديدة من مدوناتهم إلى تنوع المزروعات والمحاصيل النباتية والزراعية في بلاد السراة حتى إنها كانت تفيض عن حاجاتهم وتصدر إلى أسواق عديدة في شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة أسواق الطائف ومكة المكرمة (٤٠) ، كما أفاضت مصادر أخرى الحديث عن الثروة الحيوانية وتنوعها بأرض السراة والتي كان كثير منها يصدر إلى أسواق الحجاز (٤١) .

وتتابع المصادر على اختلافها الحديث عن عمق العلاقات الاقتصادية والتجارية القائمة بين سكان السراة وأهل الحجاز ، وبخاصة مكة المكرمة فيذكر لنا ابن حبيب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) (٤٢) أن التهاميين والسرويين كانوا يرتادون بسلعهم أسواق مكة ، لا سيما السلع

الغذائية ، فيجدون حسن الاستقبال والترحاب من المكيين ، وبخاصة تجارهم ، وذلك لجودة ما جلبوا من سلع قيمة (٤٣) . كما يشير الأزرقي أيضاً وهو من أهل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) إلى تعيين مكان محدد في أسواق مكة كانت ترتاده عير أهل تهامة والسراة فتقيم به مدة إقامتها وممارستها التجارة في مكة (٤٤) . ويأتي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فيذكر نشاط السرويين التجاري في مكة ، وما يجلبون معهم من حبوب وسلع متنوعة يقايضونها بما يفيض بأسواق مكة من سلع لا تتوفر ببلادهم (٤٥) . كما يورد ابن جبير تفصيلات أخرى دقيقة عن تجار بلاد السروات الوافدين إلى مكة المكرمة ، ومعاملاتهم التجارية مع المكيين (٤٦) ، مما ينهض دليلاً على تواصل هذا النشاط التجاري بين الطرفين ، والدور المهم الذي قام به أهل السروات في تزويد الحجازيين وأسواقهم بما ينقصهم من السلع الضرورية فيقول : ((إن قبائل تعرف بالسرو أو السراة ، أهل جبال حصينة يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها ، ويجلبون السمن ، والعسل ، والزبيب ، واللوز فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ، ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر ، فيرغدون معايش أهل البلد ، والمجاورين فيه ، وينفقون ويدخرون ، وترخص الأسعار ، وتعم المرافق ، فيعد منها الناس ما

يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش)) (٤٧) .

ويضيف ابن جبير قائلاً : ((ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل ، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان ، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ، ويبايعونهم به ويشارونهم ، ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ، ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم ، وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم)) (٤٨) .

ويؤكد ابن بطوطة في رحلته على ما ذكره ابن جبير (٤٩) ، فيقول : ((وأهل الجهات الموالية لمكة ، مثل بجيلة ، وزهران ، وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون إلى مكة الحبوب ، والسمن ، والعسل ، والزبيب ، والزيت ، واللوز فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها ، وتعمهم المرافق)) (٥٠) ، ويضيف ابن المجاور إلى ما سبق قوله : ((فإذا دخلوا مكة ملؤوها خبزاً من الحنطة ، والشعير ، والسويق ، والسمن ، والعسل ، والذرة ، والدخن واللوز والزبيب ، وما شابه ذلك ، وكذلك يقول أهل مكة : حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب ، والسرو أمنا نكسب منهم القوت)) (٥١) .

وقد ظل هذا النشاط التجاري متواصلاً إلى عهد قريب فكنا نرى أهل تهامة والسراة يسوقون مواشيهم ويحملون بعض سلعهم إلى أسواق مكة في

مواسم الحج كي يبيعوها هناك ويستبدلوا بأثمانها سلعاً أخرى تفيدهم في حياتهم اليومية ، كالألبسة المختلفة ، وأدوات الزينة والطعام وما شابهها (٥٢) .

سادساً التواصل الفكري بين مكة المكرمة وبلاد السراة :

كذلك لا تخلو مجتمعات مكة المكرمة وبلاد السراة من بعض الصلات الحضارية المتمثلة في التواصل العلمي والفكري ، لأن مكة أساساً مدينة دينية منذ القدم ، ثم زادت شهرتها الدينية بعد دخول أهلها في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة ، وبالتالي فقد صارت محطاً لرجال كثير من العلماء والفقهاء والأدباء الذين كانوا يفدون إليها لقضاء مناسك الحج والعمرة ثم البقاء بها للعلم والتعلم (٥٣) . وبلاد السراة المجاورة لأرض مكة من الجنوب لم تكن في نفس المستوى العلمي والفكري الذي عرفته مكة خلال العهود الإسلامية المبكرة والوسيطة ، وإن كانت لا تخلو من بعض الملامح العلمية الفكرية ، ومن ثم كانت في حاجة إلى الثراء الفكري والعلمي الذي اشتهرت به مكة المكرمة ، وأفضل من صور لنا المجتمع السروي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (يرحمه الله) (٥٤) . حيث أورد لنا بعض المعلومات عن الحياة العلمية والفكرية في بلاد السراة الممتدة من نجران جنوباً حتى الطائف شمالاً ، ويشير إلى الجانب اللغوي عند سكان تلك البلاد في عصره ،

ثم يقارنه بالجوانب اللغوية الأخرى عند أهل اليمن والكثير من مناطق شبه الجزيرة العربية (٥٥). ويخلص إلى أن أهل السراة أكثر فصاحة في القول ، وسلامة في اللغة حيث يقول : ((... الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد، فبني الحارث مما اتصل ببلد شاكر من نجران الى أرض يام ، فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسامة فعنز ، فخثعم فهلال فعامر بن ربيعة، فسراة الحجر (بلاد بللحمر ، وبللسمر ، وبنو شهر ، وبنو عمرو) فدوس، فغامد ، فشكر ، ففهم ، فثقيف ، فبجيلة ، فبني علي ، غير أن أسافل سروات هذه القبائل ما بين سروات خولان والطائف دون أعاليها في الفصاحة...))(٥٦) .

ورغم ما ذكره الهمداني من معلومات جيدة عن رقي المستوى اللغوي لأهل تهامة والسراة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ، إلاّ أنه للأسف لم يدون لنا شيئاً يذكر عن نشاطهم العلمي والفكري في بلادهم بصفته عالماً يمنياً كان يمر عبر بلادهم ذاهباً آيباً ما بين صنعاء ومكة المكرمة ، ولكن في اعتقادنا أنهم لم يصلوا إلى المستوى اللغوي الذي ذكرهم به إلاّ ولديهم نشاط علمي وفكري ، ونجزم أنه كان بينهم علماء وفقهاء وقضاة وشعراء وغيرهم من أرباب العلم ودليلنا على ذلك نشاط الثقافة الإسلامية في بلادهم منذ عهد الرسول ﷺ فكان أهل البلاد يفدون على الرسول الكريم في المدينة المنورة ليتعلموا ويتفقهوا على يديه ثم يعودون إلى أوطانهم ليعلموا أهلها ما تعلموا من

شرائع الإسلام ، بل كان الرسول ﷺ شديد الحرص على إرسال بعض كبار صحابته (رضوان الله عليهم) إلى أهل تهامة والسراة واليمن ليفقهوهم ويعلموهم شرائع الدين . وجاء من بعد الرسول ﷺ الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) فساروا على نهجه في إرسال العلماء والفقهاء والولاة والقضاة ورجال الحسبة إلى كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية، وبالتالي فبلاد تهامة والسراة لا بد أنها نالت قسطاً من الحياة العلمية والفكرية في عهد الخلفاء الراشدين ، وفي عهد دولتي بني أمية وبني العباس، ولو أن المصادر التاريخية المبكرة لا توضح لنا ذلك ، والسبب هو عدم اهتمام المؤلفين الأوائل بالكتابة عن الأجزاء النائية والبعيدة عن المراكز الحضارية الكبيرة في العالم الإسلامي ، ومنطقة السراة وتهامة إحدى هذه الديار النائية والمعزولة. ورغم هذا القصور من جانب الهمداني ، إلاّ أنه يُعد أفضل من أشار إلى أحوال السراة في عصره (٥٧) ، حيث ذكر ظهور بعض الشعراء والأدباء أيضاً ببلاد تهامة والسراة وأورد أن بعضهم كانوا يذهبون إلى حواضر الحجاز الكبرى ليلتقوا ببعض الأدباء والشعراء هناك فيتسامرون ويتبارون معهم في قرض الشعر ، ومن أبرز الشعراء الذين عرفناهم من الهمداني الشاعر أبو الحياش الحجري الذي ينتسب إلى الحجر بن الهنو ببلاد سراة الحجر والذي ورد ذكره أثناء تجمع بعض الشعراء من نجد والحجاز والسراة في مكة المكرمة ، وكان أبو الحياش يمثل أهل السراة ، عندما طغى على الناس القحط وقلة الأمطار ، فأنشد الشعراء قصائد شعرية ليتوسلوا

فيها إلى الله جل جلاله طالبين الرحمة والغيث، وقد ذكر الهمداني بعض تلك القصائد التي قالها الشعراء المختلفون في مكة المكرمة(٥٨). وأورد القصيدة التي قالها أبو الحياش، فقال في مطلعها :

رب ما خاب من دعاك ولا يحـ   ـجب يا ذا الجلال عنك الدعاءُ

لم يخب للنبي يعقوب يا ذا الـ   ـعرش فيما دعا لديك الرجاءُ

رب أنت الذي رددت عليـــــه   بصراً كان قد محاه البكـــاءُ (٥٩)

ثم جاء إلى وصف الأرض التي عمها القحط فكان أغلب ما ذكر مواطن ببلاد تهامة والسراة، فقال :

رحمة منك هب لنا إننا نحــ   ـن لك ـ الله ـ أعبدٌ وإمـــاءُ

ان هاتا لأزمة عمت النــــا   س ومستهمُ لها البأســـاءُ

ولكم ثم كم سقيت لنـــا الأر   ض غيوثاً أتت بها الأنــواءُ

سقيت برهة قرى خلب منــــ   ـها فجازان تلك فالصبيـــاءُ

فقرى بيش، فالدويمات فالـــبر   ك فحلي ممطورة غينـــاءُ

ومن الطود فالزتامات خضـــر   رويت فالتنومة الزهـــراءُ

فقرى الحجر جهوة الزرع والضرع   فأشجانها الحنا فالجبـــاء

فجبال السراة فالفرع الوســـــ   ـطي حكين الجنات فالحيفاءُ

فالذرى من سراة غامد فالنمـــ   ـر فأجبال دوسها طخيـــاءُ

فقرى الدارتين أرض علــــى   سهلها والجبال منها المـــاءُ

فقنونا فأرض دوقة فالليـــــ   ـث فعشم السرين فالســراءُ (٦٠)

ويستنتج القارئ الكريم من قراءته لهذه الأبيات حرص الشاعر أبي الحياش على ذكر أسماء بعض الأماكن والمواقع في بلاده (أرض تهامة والسراة) وقد حاول عد بعضها مثل : تنومة ، والجهوة ، والأشجان ، التي تقع ببلاد بني شهر (أرض رجال الحجر) وهي مسقط رأس الشاعر، كذلك ذكر مواقع أخرى عديدة في تهامة والسراة ، مثل بيش ، والبرك، وحلي ، وجازان ، وصبياء ، وقنونا ، ودوقة ، والليث ، وعشم ، والسرين ، وسراة غامد وغيرها . وذكر هذه الأماكن يدل على معرفة الشاعر بتلك الأماكن ، وعلى حرصه وصبغ عاطفته عليها راجياً من الله ان يشملها برحمته بنزول الغيث والخير عليها ، كما يستخلص أيضاً من مشاركة الشاعر أبي الحياش مع غيره من شعراء شبه الجزيرة العربية أن بلاده خاصة وبلاد تهامة والسراة عامة كانت غير خالية من العلماء والأدباء والشعراء ، ولو لم يكن ذلك لما كان هذا الشاعر السروي قد قام وأخذ نصيب المشاركة مع غيره من الشعراء ، وبخاصة في حاضرة مكة المكرمة التي عرف عنها النشاط الفكري والثقافي منذ عهود قديمة .

ويقيت بلاد الحجاز ، وبخاصة مكة المكرمة ، قريبة إلى أهل السراة جسماً وروحاً ، فلم يقتصر السرويون على الذهاب إلى مكة المكرمة للحج والعمرة فقط وإنما كان بعضهم يبقى هناك للاستزادة من العلوم والمعارف التي تؤهله عند العودة إلى موطنه الأصلي للجلوس للتدريس أو الإفتاء والوعظ والإرشاد (٦١) ، ونجد بعض المصادر ، وكثير من الوثائق التاريخية

تشير إلى عدد من العلماء والأدباء والفقهاء الذين برزوا في بلاد السراة خلال القرون الأربعة الماضية ، وكانت مواطنهم منتشرة من الطائف حتى نجران ، وأغلبهم ذهبوا إلى مدن الحجاز الرئيسة أو إلى اليمن للتعلم على أيدي بعض الفقهاء والعلماء هناك ، ثم عادوا إلى بلادهم لممارسة مهنة التدريس وإرشاد الناس إلى أمور عقيدتهم (٦٢) ، وقد شاهدت أثناء جولاتي في بلاد السراة خلال العقدين الماضيين وجود عدد من البيوت العلمية التي يعود تاريخها إلى القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) ، وكان بعض أفراد تلك البيوت ممن تعلموا بالمسجد الحرام ، ثم عادوا إلى أوطانهم ومعهم بعض كتبهم التي قرأوها على شيوخهم ، وكذلك بعض الإجازات العلمية التي حصلوا عليها أثناء إقامتهم في مكة المكرمة (٦٣) .

وكون مكة المكرمة موطن فكر وثقافة من قديم الزمن ، فإننا نجد رجالها كان لهم قصب السبق في رسم الخطط العلمية والإدارية والفكرية أثناء بناء الدولة السعودية الحالية ، وذلك يتضح من خلال الوثائق التاريخية حيث أن أغلب رجال التعليم والإدارة والتخطيط والنواحي المالية في بلاد السراة من عام (١٣٣٨ ـ ١٣٧٠هـ) كانوا من أهل الحجاز وخاصة مكة المكرمة (٦٤) ، ولو أفردنا دراسة خاصة لهذه الناحية وحدها لوجدنا أسماء عدد كثير من الرجال الذين قدموا إلى سراة غامد وزهران ، وبيشة ، والنماص ، وأبها ، وخميس مشيط ، ونجران ، وجازان ، حيث تولوا كثير من

المناصب الإدارية في هذا الجزء من بلادنا الغالية (المملكة العربية السعودية) (٦٥) .

سابعاً الخاتمة :

وخلاصة القول إن الصلات الحضارية بين كل من بلاد مكة المكرمة وبلاد تهامة والسراة ترجع إلى عهود قديمة سابقة على الإسلام ، ومع ظهور الإسلام واعتناق أهل السراة له نشطت وازدهرت هذه الصلات ولم تقتصر على الصلات الدينية ، بل شملت العديد من الجوانب الحضارية الأخرى وفي مقدمتها الصلات التجارية والصلات الفكرية والعلمية والإدارية ، وكان ذلك التواصل الشامل بين المجتمعين وهذه الصلات أمراً طبيعياً لأن كل واحد منهما يكمل الآخر بحكم الاتصال الجغرافي ، وكذلك بحكم المنزلة الدينية لمكة المكرمة وتوفر المواد الاقتصادية ، وخاصة المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية في بلاد السراة ، وهي كلها أمور حتمت على المجتمعين أن يكونا على اتصال دائم ومستمر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين... والصلاة والسلام على رسوله الأمين.

(٢٠/١٠/١٤٢٣هـ الموافق ٢٤/١٢/٢٠٠٢م)

ثامناً: الحواشي والتعليقات

١- مكة المكرمة: هي المدينة المقدسة الأولى عند المسلمين بها الكعبة المشرفة، وبها ولد النبي محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ونزل عليه جزء كبير من الوحي. للمزيد من التفصيلات عن تاريخ هذه المدينة المقدسة، انظر: أحمد محمد الأسدي. أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، مخطوط مصور في ميكروفيلم رقم (٢٨) بجامعة أم القرى مركز البحث العلمي (مكة المكرمة)، أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية،١٩٧٧م)، عمر بن فهد بن محمد بن فهد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى . تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت (القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٧٥هـ) (جزءان)؛ عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بأخبار سلطة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت (مكة المكرمة: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) (ثلاثة أجزاء).

٢- هناك العديد من المصادر والمراجع تعرضت لبلاد السراة من حيث حدودها ومسمياتها، وللمزيد من التوضيحات أنظر، الحسن بن أحمد الهمداني. صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص٥٨ ، ٥٩ ، ٩٧ — ١٠٠، ١٩٧١م) ص٣٥٣ وما بعدها، غيثان بن علي بن جريس. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق ١ـ ق١٠ هـ / ق٧م — ق ١٦م) (جدة: وكالة الرواد، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) (الجزء الأول ص٢٢ وما بعدها.

٣- للمزيد من الشروحات عن حدود الحجاز وما ذكر عنها في كتب التراث أنظر مقالتي: عبدالله الوهيبي. "الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب " مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) جـ١ ، ص٥٣ — ٧٠ ؛ صالح أحمد العلي " تحديد الحجاز عند المتقدمين " مجلة العرب (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) جـ١ من ١ — ٩ ، وللمزيد أيضاً انظر ، غيثان بن علي بن جريس. " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني " مجلة الدارة ، عدد (٣) سنة (١٩) (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص٧٦ — ١١١.

٤- ولا زالت أغلب هذه السروات المذكورة تستوطن بالقبائل والعشائر التي سميت بها كل سراة. ويستنتج من ذلك أن الأرض كانت ولا زالت تنسب إلى من يسكنها، فمثلاً: سراة مذحج (قحطان) أو جنب (عسير) أو الحجر (بللحمر ، وبللسمر ، وبني شهر ، وبني عمرو) عُرفت بهذه الأسماء لأن هذه القبائل استوطنت سرواتها منذ أمد بعيد، فعرفت الأرض باسم القبيلة ونسبت إليها، وهكذا حدث مع بقية القبائل والسروات الأخرى.

٥- التنقل والترحال من عادات العرب القديمة ، بل انتقال الفخذ أو العشيرة من مكان إلى مكان كان من الحالات المألوفة عند البدوي منذ عهود قديمة ، إلى جانب وجود أسباب أخرى تجعل بعض العشائر ترحل من مواطنها الأصلية إلى مواطن أخرى كأن تهاجم قبيلة قوية أخرى ضعيفة فتجبرها على الرحيل، أو ترحل بعض العشائر، وبخاصة البدوية منها من مكان لأخر بحثاً عن الماء والعشب الذي يفيدها في رعي مواشيها، أو حدوث نوع من الخصومة والشقاق بين أفراد العشيرة الواحدة، مما يؤدي إلى خروج بعضهم من مواطن العشيرة الأساسية، والبحث عن مكان آخر يعيشون به، وما نلاحظ في بلاد تهامة والسراة من تشابه في بعض أسماء القرى والأفخاذ المتفرقة، أو من توزع بعض أفراد القبيلة أو الفخذ الواحد في أكثر من مكان، سواء كان بالأجزاء السروية المرتفعة، أو الهضاب والأودية الشرقية أو ببعض الأجزاء الساحلية التهامية، ليس إلاّ ناتجاً من حدوث بعض الأسباب الأنفة الذكر، والتي عاشها ومارسها سكان

تلك البلاد منذ أزمنة بعيدة. للمزيد انظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بـيروت: دار العلم للملايين وبغداد: مكتبة النهضة، ١٩٧٧م) جـ٤ ، ص١٥٨ وما بعـدها؛ كما يوجـد لـدى الباحـث عشرات الوثائق التي تعود إلي القرون الثلاثة الماضية، وهي تعكس الأحلاف القبلية في بلاد السـراة، بـل بعضها يؤكد على صلات النسب بين بعض القبائل والعشائر المنتشرة في المنطقة الممتدة من جـازان ونجـران جنوباً إلى الطائف ومكة المكرمة شمالاً. كما شاهد الباحث أيضاً تلك الصلات والتـداخلات بـين العشـائر في تلك البلاد أثناء قيامة بجولات عديـدة في أرجائهـا خـلال العـام الدراسـي (١٤١٦ – ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ – ١٩٩٧م).

٦- انظر إبراهيم رفعت باشا. مـرآة الحـرمين (د.ن ، د.ت) جـزءان، عـاتق بـن غيـث الـبلادي – بـين مكـة وحضرموت رحلات ومشاهدات (مكة المكرمة: دار مكة للطباعـة والنشـر والتوزيـع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص٩ وما بعدها. ومن يتجول في أنحاء بلاد السراة وكذلك في جبال ووهاد مكة المكرمة يجد الفـرق ملموسـاً والاختلاف في المناخ والتضاريس واضحاً.

٧- صالح أحمد العلي " طـرق المواصـلات القديمـة في الحجـاز "مجلـة العـرب (١٩٦٨م) جــ٩ ، ص٩٦٣ ومـا بعدها،

P.Crone, Maccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) PP.23ff, Eliyaha Ashtor, A social and economic History of the Near East in the Middle Ages (London, 1976) PP.75ff.

٨- القرآن الكريم ، سورة قريش، وللمزيد من التفصيلات عن الطرق التجارية الواصلة بين مكة المكرمة وبلاد السراة حتى أرض اليمن، انظر غيثان بن علي بن جريس "ملامح النشاط التجاري لبلاد تهامـة والسـراة في العصور الإسلامية الوسيطة "منشور ضمن أعمال ندوة اتحـاد المـؤرخين العـرب بالقـاهرة والـتي عقـدت في

(٢٥– ٢٧ / شعبان / ١٤٢١هـ الموافق ٢١ – ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٠م)، وقد نشرت ضمن أعمال الندوة في كتاب: طرق التجارة العالية عبر العـالم العربـي علـى مـر عصـور التـاريخ (حصـاد رقـم(٨) ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ص١٥٧ – ٢٢٢.

٩- عن بداية عهد الرسالة الإسلامية في مكة المكرمة، وما قامت به قريش والقبائل العربية الأخرى من عنـاد وتصدي للرسول ﷺ وما جاء به القرآن الكريم ، وما كان يدعو به الناس، انظر عشرات المصـادر الرئيسـة من التفاسير، وكتب السنن، كالصحاح وما شابهها وكذلك كتب السير والمغازي وهي كثيرة جداً.

١٠- قبيلة قريش كانت مرهوبة الجانـب لمكانتهـا السياسـة والدينيـة في مكـة المكرمـة، بـل في شـبه الجزيـرة العربية، وكذلك كانت ذات صلات تجارية واسعة داخل الجزيرة العربية وخارجها، ولهـذا فـإن جميـع القبائل العربية كانت تنظر إليها بعين الاحترام والتقدير، وعندما خرج الرسول ﷺ بين قومـه في قـريش وناداهم إلى الدخول في الإسلام حاربوه وتصدوا له ، بـل وحرضـوا القبائـل العربيـة الأخـرى عليـه، وقـد استجابت كثير من القبائل لقريش فلم يناصروا الرسول ﷺ وإنما بعضها حاربته كقبائل ثقيـف بالطـائف وغيرها ، وأخرى وقفت منه موقف الحياد ، كالقبائل السروية ، وبقوا علـى ذلـك حتـى انهـارت قبائـل قريش وانهزمت أمام انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

١١- وللمزيد عن صلات أهل السراة بالرسول ﷺ في بداية ظهوره في مكة المكرمة، ثم دخول بعض السـرويين، كالطفيل بن عمرو الدوسي، وضماد الأزدي، إلى الإسلام أثناء مرحلة الدعوة المكية، أنظر محمد بن حبيـب البغدادي. كتاب المنمق في أخبار قريش. تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت: عـالم الكتـب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص١٩٩ – ٢١١، جمال الدين ابن الجوزي. صفة الصفوة. تحقيق محمود فـاخوري ومحمـد رواس قلعجي (حلب: دار الوعي، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) جـ١ ، ص٦٠٠ – ٦٠٤، عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) جـ٣، ص٥٤ – ٥٥.

١٢ـ المصادر نفسها.

١٣ـ بلدة تُرَبَة: بالضم ثم الفتح، تقع إلى الجنوب من مدينة الطائف بحوالي مائة كيلو متر وبها واد فحل يسمى "وادي تربة" وتنحدر مياهه من أعالي بلاد السراة نحو الأجزاء الشرقية، ويسكن على ضفافه عديد من الأفخاذ والعشائر التي تمتهن الزراعة ومزاولة بعض الأعمال التجارية الأخرى. انظر ، شهاب الدين ياقوت الحمودي. معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) جـ٢ ، ص٢١ ؛ عاتق بن غيث البلادي ، بين مكة وحضرموت، ص١١.

١٤ـ انظر: محمد بن عمر الواقدي. كتاب المغازي. تحقيق مارسدان جونس (بيروت: عالم الكتب. د.ت) جـ٢، ص٧٢٢ ، علي بن الحسين المسعودي. التنبيه والإشراف. (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م) ص٢٤٣. انظر أيضاً. خليفة بن خياط. تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العُمري (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص٧٨.

١٥ـ يذكر أن الطفيل قدم مع قومه إلى المدينة، فوجد الرسول ﷺ قد ذهب إلى خيبر لفتحها، فلحق به هناك، وللمزيد من التفاصيل انظر: الواقدي، المغازي، جـ٢ ، ص٦٨٣ ؛ عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية حققه وشرحه، مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار القلم، د.ت) جـ٢ ، ص٢١ — ٢٥ ؛ شمس الدين محمد بن القيم. زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق شعيب بن الأرنؤوط وآخرين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) جـ٣ ، ص٦٢٤ — ٦٢٨.

١٦ـ من استقراء تاريخ السيرة النبوية نجد أن المشركين كانوا يتراجعون إلى الوراء منذ ظهور الرسول ﷺ في المدينة، ولكن سقوط حظهم لم يصبح واضحاً للعيان إلا بعد معركة بدر، ثم تتالت عليهم أحداث الفشل والخيبة حتى السنة السادسة للهجرة، وذلك عندما عقدوا ما يسمى بـ (صلح الحديبية) مع الرسول ﷺ

وصحابته رضي الله عنهم ، ومن بعد ذلك التاريخ لم يعمروا طويلاً حتى جاءت السنة الثامنة للهجرة فدخل المسلمون مكة المكرمة، وقضي على المشركين في عقر دارهم.

١٧- من الوفود التي وفدت على الرسول ص من بلاد تهامة والسرة وفد الأزد ، وفد بجيلة، وفد بارق ، وفد خثعم، وفد غامد، وفد دوس، وغيرها كثير. للمزيد من التفصيلات، انظر : محمد بن سعد. الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) جـ١ ، ص٣٢١ – ٣٥٩.

١٨- أي ذو الصورة والشكل الحسن، أو ذو الوقار. وتقول هئت للأمر أهي. هيئة ، وتهيأت تهيوا، والهيئة: الشارة، فيقال فلان حسن البيئة. انظر ابن منظور. لسان العرب، هيأ جـ١٥ ، ص١٧٠ (طبعة بيروت).

١٩- الواقدي، المغازي، جـ٣ ، ص٩٢٣.

٢٠- وللمزيد من التفاصيل عن محاربة الطفيل للوثنيين في بلاد دوس، انظر: الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٩٢٣، ابن الجوزي، صفة، جـ١ ، ص ٦٠٣؛ الجاسر ، في سراة غامد ، ص٣٢٤؛ المسعودي، التنبيه، ص٢٤٩؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢ ، ص١٥٧ ، ابن هشام ، السيرة ، جـ٢ ، ص٢١ – ٢٥. ويذكر أن الطفيل عاد من بلاد دوس مع قومه ومعه دبابة ومنجنيق، فقال لهم الرسول ص "يا معشر الأزد من يحمل رايتكم ؟ فقال الطفيل: من كان يحملها في الجاهلية، فقال: أصبتم" وقيل إن الذي كان يحمل الراية في الجاهلية أخو: النعمان بن الزرافة اللهبي ، وهذا ما ذكر الواقدي، أما ابن سعد فذكر أنه (النعمان بن بازية اللهبي) وذكر ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب ، أنه (النعمان بن الزراع عريف الأزد). انظر الواقدي، المغازي، جـ٣ ، ص٩٢٣، انظر أيضاً ملاحظة (٤) في نفس الصفحة المذكورة آنفاً ، ابن سعد ، الطبقات، جـ٢ ، ص١٥٧ – ١٥٨، محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت) مج٣ ، جـ٥ ، ص١٢٣.

٢١- انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١ ، ص٧٤١. وصنم ذو الخلصة كان لدوس، وخثعم وبجيل، ومن كان ببلاد السراة ، بل كان يعرف بالكعبة اليمانية، وكان يحج إليه أعداد كثيرة من الناس. وللمزيد من التوضيحات، انظر: ابن هشام، السيرة، جـ١ ، ص٨٨، ابن الجوزي، صفة، جـ١ ، ص٧٤١، البخاري، الصحيح، مج٣ ، جـ٥ ، ص١١١ - ١١٢ ، مج٤ ، جـ٨ ، ص١٠٠ ، محمد عبد الله الأزرقي. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق رشدي ملحس ، ط٤ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ١ ، ص٣٧٤ ، ٣٨٩. ويذكر أن صنم ذو الخلصة أعيد بناؤه بعد القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وربما من قبل ذلك ، وبقي على حاله حتى زمن عبد العزيز بن محمد بن سعود، حيث ذكر ابن بشر في حوادث(١٢٣٠هـ) أن رجال عبد العزيز بن محمد بن سعود حاربوا الترك في بلاد بيشة وخثعم ودوس وغامد حتى وصلوا صنم ذو الخلصة فهدموه وأحرقوه. انظر : عثمان بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت) جـ١ ، ص ١٨١ — ١٨٢.

٢٢- ويتضح من هذه العبارات ، أن الإسلام أصبح منتشراً عند أهل تهامة والسرة، حتى إن القبائل السرورية والتهامية قامت بهدم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ، وصاروا يوحدون الواحد القهار في مساجدهم وصلواتهم وجميع تصرفاتهم.

٢٣- انظر : البخاري : الصحيح ، مج ٣ ، ص ، ١١١-١١٢ ، الأزوقي ، أخبار مكة ، ج ١ ص ، ٣٨٠، ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٣٤٧-٣٤٨.

٢٤- المصادر نفسها .

٢٥- للمزيد من التفصيلات عن تلك الوفود ، انظر ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٣٢١- ٣٥٩، ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٤ ، ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٣ ، ص ٦٢٠- ٦٢١، محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت : دار سويدان ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م)

ج٣ ص ، ١٣٠ – ١٣١، ١٣٤– ١٣٦، محمد حميد الله. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ٢٤١، ٢٩٠– ٢٩١. غيثان بن علي بن جريس " تاريخ مخلاف جرش خلال القرون الإسلامية الأولى " مجلة العصور مج ٩ ج ١ (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ٦٣ ومابعدها ، والمؤلف نفسه . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، ج ١ ، ص ٢٣ — ٥٤.

٢٦- لمزيد من التفصيلات عن وضع مكة المكرمة الإدراي خلال القرون الإسلامية الأولى ، وكيف كان بعض ولاة مكة ذو نفوذ قوي فلا تقتصر إمارته على الحجاز فقط وإنما تمتد أحياناً إلى اليمن واليمامة ، انظر عبد الواحد محمد راغب دلال ، البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران (العصر الجاهلي حتى الدولة العثمانية) ج ١ (القاهرة : دار التعاون للطباعة والنشر ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م) ص ٢٢٧ وما بعدها .

Ghithan A.jrais . the Governorship in the Hijaz During the Early Abbasid Period (132-232. ah./749-846g) " The Ages / مجلة العصور vol. (7)Part (1) (1412/1992) pp. 13-21.

٢٧- المصادر نفسها . انظر ايضاً ابن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ وما بعدها ، أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران (مكة المكرمة : دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٩هـ – / ١٩٧٩م) ص ١٣٦ وما بعدها .

٢٨- أبو معين الدين ناصر خسرو . سفر نامة (رحلة ناصر خسرو) . ترجمة من الفارسية وخققه ، أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود ١٩٨٣م) ص ١٤١– ١٤٢.

٢٩- محمد بن أحمد بن جبير . رحلة ابن جبير . (بيروت : دار الكتب . دزت) ص ١٠٢ وما بعدها ، ص ١٠٢ وما بعدها .

٣٠ـ جمال الدين يوسف بن المجاور . صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى تاريخ المستبصر . تحقيق أو لوفغرين (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٥١- ١٩٥٤م) ج ١ ، ص ٢٦؟

٣١ـ المصادر نفسها التي وردت في حواشي (٢٨، ٢٩، ٣٠)

٣٢ـ ابن المجاور ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

٣٣ـ لمزيد من التفصيلات أنظر ، السباعي ، تاريخ مكة ، ص ١٣٧ وما بعدها ، أحمد عمر الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١- ٤٨٧هـ) (الرياض : عمادة شؤون المكتبات) جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٢٠ وما بعدها.

٣٤ـ للإطلاع على توضيحات أكثر عن تلك الدويلات الإسلامية التي ظهرت في شرق العالم الإسلامي وغربه ، انظر كتب التاريخ الحولية مثل : الطبري ، ابن الأثير ، فقد ورد بها تفصيلات وافية عن أسباب وأحداث ونتائج ظهور تلك الدويلات على مر التاريخ الإسلامي الوسيط .

٣٥ـ ابن المجاور ، ج١ ص ٢٧ .

٣٦ـ عن تاريخ مكة المكرمة السياسي والحضاري خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ،أنظر : الأزرقي ، أخبار مكة (جزءان) ، تقي الدين محمد الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق لجنة من كبار العلماء (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) (جزءان) السباعي ، تاريخ مكة ، ص ٦٥ و ما بعدها، الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ٢٠ وما بعدها .

٣٧ـ المصادر نفسها .

٣٨ـ المصادر نفسها ، بالإضافة إلى كتاب : إتحاف الورى بأخبار أم القرى لا بن فهد ، وكتاب : غاية المرام بأخبار سلطة البلد الحرام ، لعبد العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي القرشي ، ومؤلفات أخرى عديدة لمؤرخين مكيين ، أنظر : محمد الحبيب الهيلة . التاريخ والمؤرخون بمكة (من القرن (٣هـ)

(مكة المكرمة : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، د.ت) و (بيروت : دار العرب الإسلامي ، د.ت) ص٣٠ وما بعدها .

٣٩- الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٥٥ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس ، ملامح النشاط التجاري لبلاد تهامة والسراة في العصور الإسلامية الوسيطة) ص ١٦٠ وما بعدها ، للمؤلف نفسه . دراسات في تاريخ تهامة والسراة . ج ١ ص ٣٣٧ وما بعدها .

٤٠- لمزيد من التفصيلات أنظر : الهمداني ، صفة ، ص ٦٠ وما بعدها ، أبو بكر أحمد بن محمد الفقيه ، كتاب البلدان. تحقيق أم دي غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ ١٨٨٤م) ص ٣١ وما بعدها ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كتاب المسالك والممالك . تحقيق أم .دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل . ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩) ص ١٣٣ وما بعدها ، أبو الفرج قدامة . نبذ من كتاب الخراج ، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . تحقيق أم .دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م) ص ١٨٨ وما بعدها ، محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي . كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج١ ، ص ١٤٥. غيثان بن علي بن جريس . "بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة الجغرافيون المسلمون الأوائل ق ٣هـ " مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثاني، المجلد الأول/ مارس / ١٩٩٤م) ص ٧٣ – ١٠٠ ، للمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ تهامة والسراة ج١، ص١٦٥ – ١٩٦.

٤١- الصادر والمراجع نفسها .

٤٢- ابن جبيب ، كتاب المنمق ، ص ٢٨٠ – ٢٨١.

٤٣- المصدر نفسه .

٤٤- الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ص ٢٦٠ .

٤٥- ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ١٥٤.

٤٦ـ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٨- ٩٩.

٤٧ـ المصدر نفسه .

٤٨ـ المصدر نفسه .

٤٩ـ محمد بن عبد الله بن بطوطة . رحلة ابن بطوطة . تحقيق على المنتصر الكناني (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ - / ١٩٨٥م) ج ١ ص ١٨٣.

٥٠ـ المصدر نفسه .

٥١ـ ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ج١ ، ص ٢٧ .

٥٢ـ هكذا يروي لنا الآباء والأجداد ويذكرون معاناتهم أثناء مشيهم على الأقدام من بلاد تهامة والسراة حتى مكة المكرمة بهدف أداء الحج والعمرة ، وكذلك المتاجرة في بعض مواشيهم وحبوبهم التي كانوا يذهبون بها إلى هناك ، كما شاهدنا بعض رجالات السراة في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الهجري الماضي يوم كانوا يذهبون إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة أثناء مواسم الحج ، ثم يعودون وقد حملوا معهم بعض السلع المختلفة كالألبسة ، والأواني المنزلية وغيرها التي اشتروها من أسواق الحجاز (مشاهدات الباحث وانطباعاته) .

٥٣ـ مكة المكرمة من الحواضر العلمية الرئيسة في العالم الإسلامي ، وذلك بسبب احتوائها للكعبة المشرفة ، والحرم الشريف ، للمزيد من التفصيلات عن مكانة مكة المكرمة العلمية والفكرية ، انظر : الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، للمؤلف نفسه . العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية .د.ت) ج١ ١١٧، ١١٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٥٢٦، ج٢ ص، ٣٩٩، ج٣ ، ١٣٩- ١٤٢، ٣٢١، ٤٠٥، أحمد شلبي . تاريخ التربية الإسلامية (القاهرة : مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٦٠م) ص

١٧ وما بعدها ، عبـد الـرحمن صـالح عبـد الله . تـاريخ التعليـم في مكـة المكرمـة (جـدة : دال الشـروق ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٣١ وما بعدها .

٥٤ـ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٧– ٢٧٩.

٥٥ـ المصدر نفسه .

٥٦ـ المصدر نفسه، ص ٢٧٩. والمتتبع والدارس للألفاظ واللهجات في يومنا الحـالي في شبه الجزيـرة العربيـة، يجد أن بلاد السراة الممتدة من صنعاء في اليمن إلى الطائف في الحجاز لا زالت من أنقى اللهجات القريبة أو النابعة من اللغة العربية الصحيحة ، مع العلم أنها في الآونة الأخيرة بدأت تضعف وتتقهقر إلى الـوراء ، والأسباب لذلك كثيرة من أهمها : اختلاط أهـل الـبلاد بعناصـر عديـدة وافـدة مـن بلـدان إسـلامية وغـير إسلامية ، وكثير منهم لا يعرفون العربية فيبدأ سكان البلاد بتكسير لغاتهم ولهجاتهم حتى يفهم مـنهم أولئك الوافدون، وبالتالي صارت تتأثر لهجات أهل البلاد بتأثيرات سلبية وخطيرة على اللغة العربيـة ، أيضاً تدني مستوى تدريس اللغة العربية في المدارس وذلك ناتج عـن عـدم وجـود المدرسـين الأكفـاء الملمـين بعلوم اللغة . ومن المؤسف حقاً أنا قد نشاهد كثيراً من المعلمين المتخرجين في الجامعات ، وبعضهم يحمـل مؤهلات عالية ، ومنهم من تخصصه اللغة العربية ولا يفقهوا في أصول اللغة العربية شيئاً ، وإن تحـدثوا أو خطبوا لا حظت اللحن في حديثهم شائعاً وإن حضرت لـدرس معلـم في مدرسـة ، أو لمحاضـرة أسـتاذ في جامعة وجدته يتحدث بلغة بعيدة عن الفصحى ، وأحياناً تكون بلهجة البلد الذي جاء منه سواء كان مـن داخل المملكة العربية السعودية أو من خارجها .

٥٧ـ الهمداني ، صفة ، ص ٢٧٧ وما بعدها .

٥٨ـ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٧٨– ٣٨٤ ، أيضاً أنظر تفصيلات أكثـر في مقالـة : عبـد الله ناصـر الوهيبي "تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية " بحث مقدم في الندوة العالمية الأولى لدراسات تـاريخ الجزيرة العربية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ج١ ، ص ٣٦٣– ٣٧٥.

٥٩ـ المصادر والمراجع نفسها .

٦٠ـ انظر الهمداني ، صفة ص ٣٨١ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صـفة جزيرة العرب للهمداني " ص ٧٦– ١١١ ، للمؤلف نفسه " ملامح الحياة العلمية في بلاد تهامـة والسـراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة "دراسة قدمت في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقـاهرة ، الـتي عقدت خلال الفترة من (١٣– ١٥ / شعبان / ١٤٢٢هـ الموافـق ٣٠ أكتـوبر – أول نـوفمبر / ٢٠٠١م) وقـد نشرت ضمن أعمال الندوة في كتاب : المراكز الثقافيـة والعلميـة في العـالم العربـي عبر العصـور (حصـاد / رقـم/٩) (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ١٩٥– ٢٥٦، للمؤلـف نفسـه، انظـر: دراسـات في تـاريخ تهامـة والسراة..... ج١ ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

٦١ـ المصادر والمراجع نفسها، وللمزيد من الإطلاع انظر غيثان بن علي بـن جـريس. دراسـات في تـاريخ تهامـة والسراة، ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه " أسر الفقهـاء ببلاد بـني شـهر وبـني عمـرو خـلال القرون المتأخرة الماضية "مجلة العرب، ج٩ –١٠ سنة (٢٦)(الربيعان/ ١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص ٥٩٤–٦١١.

٦٢ـ المصادر والمراجع نفسها ، كما يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق الـتي توضـح هجـرة بعـض علمـاء بـلاد تهامة والسراة إلى مكة المكرمة أو حواضر إسلامية أخرى للاستزادة مـن العلـوم والمعـارف المختلفـة، وقـد يعود بعضهم إلى أوطانهم للإقامة فيها في حين أن البعض الآخر قد يستقر في المـدن والأمصـار الـتي ذهبـوا إليها.

٦٣ـ لدى الباحث بعض الوثائق التي تحفظ أسماء وأجازات بعض الفقهاء ورجال العلم الذين ينتمون إلى بلاد تهامة والسراة خلال القرون المتأخرة الماضية .

٦٤ـ للمزيد من التفصيلات أنظر غيثان بن علي بن جريس . تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤– ١٣٨٦هـ/ ١٩٣٤– ١٩٦٦م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ج١،ص ٥١ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه ، دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص ٦١– ٨٤.

٦٥ـ المراجع نفسها .

الدراسة العاشرة

جدة في مواجهة الخطر البرتغالي خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)(*).

(*) بحث قدم ضمن الندوة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة الممتدة من (٢٥-٢٧)/٦/١٤١٥هـ/ ٢٨-٣٠/١١/١٩٩٤م) ونشر ضمن بحوث الندوة في كتاب :"الصراع بين العرب والاستعمار في عصر التوسع الأوروبي الأول " منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة : المطبعة الإسلامية الحديثة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص ٢٢٧-٢٧١ .

جدة في مواجهة الخطر البرتغالي خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

تميزت جدة منذ صدر الإسلام بأنها الثغر الرئيسي لمكه المكرمه المطل على البحر، الأحمر كما أنها معبر للمسلمين الذين يفدون بحراً إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة، وهذه علامة على ازدهار النشاط التجاري لهذا الميناء طيلة العصور الإسلامية(١).

ونظراً لهذه الأهمية على مدار تاريخها الإسلامي خاصة منذ القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري (القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي) فقد عالجت الكتابات التاريخية والجغرافية هذا الموضوع بنوع من الإفاضة والتفصيل(٢).

وقد اختار الباحث أن يلقي الضوء على أهمية جدة في أواخر العهد المملوكي، لأن هذه الفترة يواكبها التهديد الأوربي للمسلمين ، وقد تمثل هذا التهديد في البرتغاليين الذين تصاعدت أطماعهم بدءاً من محاولات إكتشاف طريق رأس الأعاصر (الرجاء الصالح فيما بعد) وحتى محاولتهم إقامة مجتمعات لاتينية بخصائصها المختلفة من حيث الدين واللغة والحضارة (٣). وذلك عن طريق السيطره على تجارة الشرق الأقصى واحتكارها ومنع وصولها إلى بلاد المسلمين، ثم محاولة الوصول إلى ذهب السودان عن طريق البحر، وتحويل التجارة عن طريق القوافل

إلى الطريق البحري، وإلى مواني المحيط الأطلسي، ثم مواني المحيط الهندي والبحر الأحمر. كذلك السعي إلى إحياء الروح الصليبية والانتقام من المسلمين لما حل بإخوانهم الصليبين الذين جاءوا لاحتلال بلاد الشرق الأدنى في العصور الإسلامية الوسيطة(٤) ثم السعي إلى الاتصال بالمسيحيين في الشرق وخاصة الأحباش النصارى وإماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا (Prester John) (٥)، وتحويل الوثنية إلى المسيحية (٦) وكان هدفهم كذلك محاربة المسلمين في منطقة القرن الأفريقي (دول الطراز الإسلامي وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية)(٧) . ثم التوصل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية، وخاصة ثغر جدة الذي يقودهم إلى مقدسات المسلمين في الحجاز ليتمكنوا من تدميرها وإهانة المسلمين (٨) .

وتحت مظلة هذه الأطماع نجد البرتغاليين ينجحون في النزول على بلاد الهند في مطلع القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي)، وبالتالي بدأوا في تذليل الصعاب بهدف الوصول إلى البحر الأحمر، ثم الأماكن المقدسة في الحجاز عن طريق ثغر جدة . ولهذا سوف نركز حديثنا في هذا البحث على الحملات التي قادها نواب ملك البرتغال في الهند على ميناء جدة في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، مع الإشارة إلى الأساليب العدائية الصليبية التي كانوا يسلكونها في مواجهة المسلمين ومحاربتهم، كما

سنناقش رد فعل المسلمين من تلك الهجمات البرتغالية وخاصة من المماليك في عهد آخر سلاطينهم قانصوه الغوري (٩٠٦هـ/١٥٠١م – ٩٢٣هـ/١٥١٧م)، هذا بالإضافة إلى دور بعض مسلمي الهند واليمن والحجاز والعثمانيين في الاستانة ، وأخيراً سنعرض لبعض الآثار السلبية الناجمة على ثغر جدة من خلال الصراع الإسلامي البرتغالي عليه.

سعى البرتغاليون في إكتشاف طريق رأس الأعاصر (الرجاء الصالح)(٩) بهدف التوسع الاقتصادي والسيطره على ثروات الشرق، لكن العامل الديني كان لا يقل أهمية عن الدافع الاقتصادي، كما كان بارزاً في جميع الحملات، وقد ظهر ذلك جلياً في تشجيع بابا روما لملك البرتغال إمانويل (Emmanual)(٩٠١هـ/١٤٩٥م – ٩٢٨هـ–١٥٢١م) الذي أطلق عليه اسم : " سيد الملاحة والفتح والتجارة في أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند(١٠). بل أننا نجد ملك البرتغال نفسة أشار في بعض خطاباته أثناء أرسال الحملات الكشفية الأولى إلى الهند بأن الهدف الأساسي من إرسالها هو نشر المسيحية والحصول على الثروات (١١).

لقد جرد البرتغاليون في بادي أمرهم حملاتهم الكشفية على بلاد الهند، وبعد أن تمت السيطره البحرية لهم على أجزاء هامة في المحيط الهندي قاموا باعتداءات على مسلمي الهند فانتهكوا أعراضهم ومنعوهم من الذهاب إلى مكه المكرمة لأداء فريضة الحج ، ودمروا مساجدهم وحرقوا مصاحفهم (١٢)، وقد أشار صاحب تحفة المجاهدين إلى انهم أثاروا

الرعب في قلوب الناس ونشروا الخراب والدمار في أنحاء البلاد (١٣) وأضاف النهروالي (من مؤرخي القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي) إلى أنهم كانوا "يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين"(١٤).

واصل البرتغاليون تغلغلهم البحري وسيطرتهم على التجارة الشرقية ، كما سعوا إلى تنفيذ اطماعهم فأسندوا إلى القائد البرتغالي الفونسو دالبو كيرك (Alfanso D 'albuquerque) (١٥) مهمة السيطرة على مدخل البحر الأحمر ، واستطاع دالبو كيرك تجهيز حملة عسكرية سيطرت على جزيرة سوقطرة (Socotra) في عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) (١٦)، ومكنتهم هذه السيطرة أن يكونوا على مقربة من ميناء عدن الذي يسهل الطريق أمامهم إلى مدخل البحر الأحمر وبالتالي يجدون طريقهم إلى ثغر جدة .(١٧)

وبإلقاء نظره على الوضع في جنوبي شبه الجزيرة العربية مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر، نلاحظ قوى سياسية متعددة متصارعة لم تتخذ أي تدبير للنضال المشترك ضد البرتغاليين، بل إن مصالحهم العائلية الوراثية كانت كثيراً ما تتقدم على مصالح مكافحة السيطره البرتغالية.

فكانت هنالك سلطنة الطاهريين السنية الشافعية وعاصمتها زبيد، والتي بسطت سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن الكبيرة في

اليمن بما فيها تعز وصنعاء وعدن ومخا . أما في حضرموت إلى الشرق من دولة الطاهريين فقامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبياً هما : سلطنة اليمنيين وعاصمتها تريم، وسلطنة الكواسر وعاصمتها الشحر . كذلك كان هناك كثير من الحكام المحليين وأمراء القبائل المستقلين تمام الاستقلال، مثل حكام لحج وظفار، هذا فضلا عن الزيود والاسماعيليين في المناطق الجبلية الشمالية في اليمن (١٨) .

ولم يبق سوى المماليك كقوة إسلامية عليها الحفاظ على سلامة البحر الأحمر، والحفاظ عليه كبحيرة إسلامية من أي خطر صليبي، خصوصا وقد ارتفعت صيحات المسلمين من كل جانب لطلب النجدة من السلطان المملوكي قانصوة الغوري ، وعلى الأخص من مسلمي الهند أو بلاد اليمن (١٩) .

بات على السلطان الغوري أن يفعل شيئا لإنقاذ من استنجد به من المسلمين فأرسل تهديده وتحذيره إلى ملوك أوروبا يطلب منهم العمل على إيقاف الأعمال الوحشية والتوسعية التي يقوم بها البرتغاليون في البلاد الإسلامية وبحارها، بل حذرهم في بعض رسائله بأنه سيقوم بعمل مماثل نحو رعاياهم من النصارى القاطنين في الديار المصرية وغيرها من أملاك الدولة المملوكية ... بالإضافة إلى أولئك الذين يفدون من النصارى إلى الأراضي المقدسة في بيت المقدس، إلا أن تهديدات الغوري لم تجد أذناً صاغية من ملوك أوروبا ولم يأبهو لها(٢٠)، أيضاً اتصل السلطان الغوري

بالبنادقة فطلب منهم تزويده بالأخشاب والمؤن اللازمة لبناء أسطول يواجه به البرتغال، لكنهم امتنعوا عن مساعدته خوفا من اتهام البابوية لهم (٢١)، وامتناعهم هذا يؤكد أن الحرب التي تقوم بها البرتغال في الشرق إنما هي حرب صليبية جديدة ضد المسلمين تدعمها البابوية وملوك أوروبا ومدن إيطاليا البحرية .

والسؤال الذي يفرض نفسه حول وضع المماليك الذين لم يبدأوا الاستعداد لمواجهة البرتغاليين إلاّ في عام (٩١١هـ/١٥٠٥م)، مع العلم أن القوات البرتغالية وصلت إلى الهند وصارت تهدد المسلمين وتجارتهم هناك منذ مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وربما أن المماليك لم يدركوا حقيقة الخطر البرتغالي إلا بعد أن بدأ يتغلغل في بلاد الهند، أو أنهم اعتقدوا أنه لن يكون هناك تهديد لهم أو لتجارتهم ما دام الطريق البحري من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي في مأمن من التهديد البرتغالي، ومن المحتمل أن المماليك كانوا غارقين في ثورات داخلية وفتن أهلية، وهذا هو الاحتمال الأرجح لأنه من يتتبع الأوضاع السياسية في العقود الأخيرة من العصر المملوكي يجد عدم الاستقرار في سياسة الدولة لكثرة الفتن والثورات الأهلية، إلى جانب الفوضى والفساد الإداري الذي كان يعيشه سلاطين وأمراء المماليك(٢٢).

لقد كان الخوف يسيطر على المماليك من دخول البرتغاليون إلى البحر الأحمر ومهاجمتهم موانيه، وعلى الأخص ميناء جدة الذي يفتح

الطريق أمامهم إلى الأماكن المقدسة، لذلك عزم السلطان قانصوه الغوري على إرسال حملة بحرية إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردي(٢٣)، ويذكر ابن إياس في هذا الشأن أن السلطان الغوري قد أطلق على هذه الحملة اسم "التجريدة المعنية إلى بلاد الهند" وأطلق على قائدها "باشا تجريدة الهند"(٢٤)، ويفهم من عنوان الحملة ومن لقب قائدها أنها ستذهب إلى المياه الهندية. ولكنها سوف تلبث في جدة لفترة تزيد عن العام لإحكام تحصينها ضد البرتغاليين الذين يعملون جاهدين للوصول إليها وإلى مقدسات المسلمين في الحجاز .

وقد أقلع الأسطول المملوكي من ميناء السويس في (٦) جمادي الآخر من سنة(٩١١هـ)الموافق الرابع عشر من نوفمبر لسنة (١٥٠٥م)(٢٥)، وكان هذا الأسطول مؤلفاً من ثلاث عشرة سفينة، ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة عدد جنود الحملة وإنما أشارت أنهم كانوا من المماليك السلطانية، وعدد من أولاد الناس (٢٦) الذين يجيدون استخدام الأسلحة النارية، كما كان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد تلك الحملة لأنهم كانوا ذوي خبرة في القتال البحري واستخدام المدافع فضلا عن كونهم بحارة ماهرين (٢٧)

ويذكر ابن إياس أن حملة الأمير حسين الكردي التي ودعها السلطان الغوري من القاهرة اتجهت إلى السويس في طريقها إلى جدة قد اصطدمت ببعض أعراب بني إبراهيم حول ينبع فقتلت عدداً كبيرا منهم،

واحرق رجال الحملة بعض الدور التي تقع على ساحل البحر الأحمر في ميناء ينبع، وخربوا الدكاكين، وشتتوا عربان قبائل بني إبراهيم(٢٨). وهذا مما دفع الشيخ عبد القادر بن فرج من سكان جدة إلى الاعتقاد بأن السبب الرئيسي من وراء حملة الكردي إلى جدة وتحصينها هم أعراب بني إبراهيم الذين أقلقوا حياة الناس في هذا الثغر الحيوي بغاراتهم المتكررة عليه من عام (٩٠٧-٩١١هـ)(١٥٠١-١٥٠٥م)(٢٩)، وما إن وصل الأمير حسين الكردي إلى جدة حتى شرع في بناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول مينائها(٣٠)، وفيما يبدو أنه قد بالغ في بناء ذلك السور حيث أنه هدم كثيرا من بيوت الناس التي تقع بالقرب من السور واستخدم عامة الناس في البناء، زيادة على الأعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه إلى جدة، واستطاع أن يتم بناء السور في أقل من عام(٣١).

وقد بذل الأمير الكردي جهدا كبيرا من أجل إحكام بناء هذا السور حول ثغر جدة، حتى صار صامداً منيعا في وجه البرتغاليين أثناء محاولتهم العديدة في اختراقه والسيطره على جدة، لذا نرى من الأجدر أن نتناول بإيجاز وصفاً لهذا السور وكيفية وطريقة بناؤه حتى نقف على مدى قوته وضخامته ومنعته.

فيذكر عبد القادر بن فرج في مؤلفه: السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة(٣٢) وصفا للسور فيقول : وكان طول اساس السور في الأرض إثني عشر ذراعا، وطول المحيط بالبلد من جهة القبلة واليمن والشام ثلاثة

آلاف ذراع من غير الأبراج، وهي ستة أبراج دور كل برج فيها ستة عشر ذراعا بجدارة، وعرض جدار السور أربعة أذرع، وأما الأبراج فطول الشامي واليماني من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا، والبرجان القبليان الملاصقان لباب البلد المسمى أحدهما بباب الفتوح وهو الأيمن، والآخر بباب النصر وهو الأيسر وطولهما من على وجه الأرض أيضا كذلك . أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر اثني عشر ذراعا...(٣٣).

ومن باب استكمال التحصينات حول ميناء جدة بدأ الأمير حسين الكردي في حفر خندق يحيط بالمدينة من جميع الجهات، وبعد اتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي. ويذكر إبن فرج أن السلطان الغوري قد صرف على عمارة السور وملحقاته من أبراج وجسور وجامع ومصلى للعيد وحفر الخندق مبلغ مائة ألف دينار(٣٤).

وبعد إنتهاء الأمير الكردي من إستكمال التحصينات التي عملها حول جدة توجه بحملته نحو الجنوب فسيطر على عدد من الثغور الهامة في الساحل الشرقي للبحر الأحمر (٣٥)، ثم واصل السير إلى المياه الهندية لمواجهة الأسطول البرتغالي، وسرعان ما وجد المساعدة من مسلمي الهند الذين إنضموا تحت قيادته، وإشتبك الأسطولان (المصري والبرتغالي) في معركة بحرية تمكن الأمير حسين الكردي من تحقيق انتصار رائع فيها

على البرتغاليين في موقعة شول (Chaul) (٣٦) سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، ويذكر أن قائد الأسطول البرتغالي لورنزوا (Lorence) كان من بين القتلى في هذه المعركة الأمر الذي أثار غضب والده فرانسيسكو دي الميدا الذي قرر الانتقام لولده فأعد أسطولا مكونا من تسع عشر سفينة، وخرج بها للاشتباك مع الأسطول المصري في موقعه ديو (Diu) البحرية في عام (٩١٥هـ /١٥٠٩م) وكانت النتيجة أن هزم المسلمون ودمرت معظم السفن المملوكية (٣٧) . ويذكر زين الدين المليباري تفاصيل مهمة عن هذه المعركة، فيشير إلى ان الأسطول البرتغالي كان قد انتهز فرصة لجوء الأسطول المملوكي ومن كان معه من مسلمي الهند إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح لبعض سفنهم، ففاجأهم البرتغاليون من الخلف، وحدثت معركة بحرية عظيمة انتصر فيها البرتغاليون على المسلمين، وقتلوا كثيرا من بحارة الأمير حسين الكردي، وأرغموه على الانسحاب بما تبقى من سفنه والعودة إلى جدة لتقوية تحصيناتها(٣٨).

على أثر الهزيمة التي لحقت بالأسطول الإسلامي في الهند، تقدم البرتغاليون إلى مياه البحر الأحمر، وهددوا بلاد اليمن والحجاز ومصر وخاصة بعد أن صار دالبو كيرك نائبا لملك البرتغال في الهند خلفا لفرانسيسكو دي الميدا، حيث وصلت القوات البرتغالية إلى ميناء عدن في المحرم من سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م)(٣٩)، وفي أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة كمران (٤٠) فدمروها وقتلوا كثيرا من أهلها ثم

تركوها متجهين شمالا نحو ميناء جدة (٤١)، وكان دالبو كيرك يسعى للتقدم نحو ميناء مصوع التابع لمملكة الحبشة لكي يتمكن من الاستيلاء على جزر دهلك المواجهة لثغر جدة، ومنها يتقدم نحو مهاجمة جدة وإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع امبراطورية الحبشة لتدمير قوات المماليك في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة في الحجاز (٤٢).

وسعى دالبو كيرك إلى تحقيق مشروعه الكبير عن طريق جدة فسار نحوها صوب الشمال، لكن الرياح المعاكسة أعاقت تقدمه واضطرته للرجوع إلى جزيرة كمران فبقى بها أكثر من شهرين يمارس أنواع القرصنة والتخريب في البحر الأحمر ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند (٤٣).

ورغم هزيمة المماليك أمام الأسطول البرتغالي بالهند في معركة ديو إلا ان هذا لا يعني أن القوى الإسلامية متمثلة في دولة المماليك في مصر وغيرها سوف تقف مكتوفة الأيدي ولا تتصدى لهذا الغزو الصليبي الذي يسعى إلى السيطرة على ثروات المسلمين ومقدساتهم . خاصة وأن السلطان الغوري كان على علم بحجم الأسطول البرتغالي، فعزم على إنشاء قوة بحرية جديدة تستطيع أن تقف في وجه البرتغاليين، لكنه كان يعاني نقصاً في الأخشاب والعمال والمواد اللازمة لبناء أسطول بحري قوي فقرر الاتصال بأطراف مختلفة لإعانته في إعداد حملة ثانية ضد البرتغال، فيذكر ابن إياس (٤٤) أنه أعاد الكرة فاتصل بالبنادقة لمباحثتهم حول إمداده ببعض الأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن

الأسطول المصري الجديد، وقد تجاوبوا معه لما لحقهم من أضرار اقتصادية في سيطرة البرتغاليين على السلع الشرقية بعد أن كان البنادقة هم الوسطاء في نقلها من الشرق إلى الغرب، فأرسلوا له عدة سفن تحمل بعض الأخشاب والمعدات الحربية، إلا أنها واجهت فرسان القديس يوحنا الذين اعترضوا سبيلها في رودس (٤٥) فأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر، ولم يصل إلى مصر سفينة واحدة من هذه السفن(٤٦)، ونلاحظ إزاء موقف البنادقة أنهم غيروا موقفهم، فقد سبق للسلطان الغوري أن اتصل بهم طلبا للمساعدة وإمداده بالأخشاب لبناء أسطول إلا أنهم امتنعوا خوفا من اتهامات البابوية، كما أشرنا سابقاً، والآن نجدهم يتجاوبون مع المماليك مما يعكس الدافع الحقيقي لدور البنادقة في مثل هذه المواقف ، بمعنى أنهم عندما تظاهروا بالاستجابة للبابوية في الموقف الأول كانوا متظاهرين بالموقف الديني إلا أن مصالحهم الاقتصادية في المرة الثانية قد تغلبت على هذا الموقف الديني وهذا يؤكد حقيقة الدور والدافع الاقتصادي لهذه المشاركات في هذه المصادمات بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي في هذه الحقبة التي أخذت الطابع الصليبي في هذه المواجهة من جانب الغرب الأوربي .

كما اتصل السلطان قانصوه الغوري بالسلطان العثماني با يزيد الثاني (٨٨٦هـ/١٤٨١م–٩١٧هـ/١٥١٢م) الذي عرف بورعه وتدينه وطلب منه المساعدة، وأوضح له خطورة البرتغاليين الذين يسعون للسيطرة على

موانئ البحر الأحمر، وخاصة ثغر جدة الذي يمكنهم من الدخول إلى مقدسات المسلمين في الحجاز للنيل منها (٤٧)، وفي شوال من عام (٩١٦هـ/١٥١١م) استجاب السلطان العثماني لطلب السلطان الغوري ووصلت إلى مصر سفن عثمانية عديدة وهي تحمل ثلاثمائة مدفع، وثلاثين ألف سهم، وأربعين قنطارا من البارود، وألفي مقذاف من الخشب، وبنادق وغير ذلك من عتاد الحرب هدية إلى سلطان مصر بدون مقابل، وكان مضافا إلى هذه المساعدات نحو ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة في إعداد الأسطول الجديد في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة إلى الهند (٤٨) .

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن المماليك كانوا على صلة دائمة بأمراء المماليك الإسلامية في الهند، وكانوا يثيرون حماسهم الديني من أجل التعاون معهم ومساعدتهم في تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات الإسلامية التي كان البرتغاليون يهددون باستمرارهم في الوصول إليها وتدميرها، وقد أسفرت هذه المشاعر والمساعي عن قيام سلاطين المماليك الإسلامية في الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والأقمشة وغيرها شحنت هذه المساعدات بعد عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) على متن ثلاث مراكب من الهند إلى جدة مساهمة منهم في تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالي (٤٩) .

وأثناء انشغال المماليك في بناء قوة بحرية في السويس وصلت أنباء إلى الحجاز وإلى مصر تفيد بأن البرتغاليين غادروا بلاد الهند بقيادة دالبو كيرك في عام (٩٢١هـ/١٥١٥م) على رأس حملة مكونة من ست وعشرون سفينة وألف وخمسمائة برتغالي وسبعمائة من نصارى الهند متوجهين إلى البحر الأحمر، وكان هدفهم الوصول إلى جدة ومكة المكرمة لتخريبهما، ولم يكن أمام السلطان الغوري إلا أن أرسل على الفور قوة إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردي الذي عاد بعد معركة ديو للإشراف على بناء الأسطول المصري الجديد في السويس (٥٠)، وعندما وصل الأمير الكردي إلى ميناء جدة قام بتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة ثانية بل بالغ في تحصينها إلى الحد الذي أثار فيه سخط بعض معاصريه من التجار، ولم يسلم من انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين له (٥١) . ويذكر أنه اعتمد في نفقات التحصين وبناء الأسوار والقلاع على مصادرة أموال التجار، كما أجبر كثير من أهالي جدة على العمل في البناء والدفاع (٥٢). وطبيعي أن يكون الأمير الكردي قاسيا على الناس وذلك لخطورة الموقف، وما قد ينتج من أخطار على المسلمين لو وقعت جدة في أيدي الغزاة من البرتغاليين . أيضا تدهور الأحوال الاقتصادية في دولة المماليك وفي البحر الأحمر بسبب هجمات البرتغال كان ذا أثر كبير على تصرفات الأمير الكردي تجاه أهل جدة أو من كان يفد إليها من التجار .

خرجت الحملة البرتغالية بقيادة دالبو كيرك من الهند في طريقه إلى البحر الأحمر لتحقيق الهدف الذي خرج من أجله، وبينما هو في طريقه وصله خبر أن ملك هرمز أصبح صنيعة في يد شاه فارس، وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز، فغير خط سيره وقام بزيارة عسكرية إلى هرمز وأخضعها، ثم أصابه المرض واشتد به فعاد إلى الهند وتوفي هناك عام (٩٢١هـ/١٥١٥م) وسلمت جدة والأماكن المقدسة من هجمات دالبو كيرك(٥٣).

ورغم هذا تتابعت الإمدادات العسكرية إلى قوات الأمير حسين الكردي، فأرسل له السلطان الغوري قوة عسكرية أخرى لكي تسانده في إحكام التحصينات حول ثغر جدة، وأخيرا تم الانتهاء من إعداد الحملة البحرية الجديدة في السويس والتي اشتهرت حينئذ باسم " حملة الهند " وقد أصبحت جاهزة للإرسال من بداية عام (٩٢١هـ/١٥١٥م) وعددها عشرون سفينة حربية (٥٤)، أما عدد أفرادها فكانوا ستة آلاف وأغلبهم من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان، أما الباقي فكانوا من البيوت والفرق المملوكية المختلفة . ويستطرد ابن إياس في حديثه عن جهود السلطان الغوري فيذكر أنه توجه بنفسه إلى ميناء السويس لاستعراض جنود الحملة في احتفال كبير في (١٠رجب سنة٩٢١هـ ٢٠ أغسطس سنة ١٥١٥م) وعين سلمان الريس قائدا للأسطول على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردي عند وصولها إلى مقرها في جدة ويذكر أن السلطان

الغوري قد أنفق حوالي أربعمائة ألف دينار على بناء الأسطول، كما أنعم على سلمان الريس ببعض الهدايا والأعطيات، ولم ينس البنائين والنجارين والحدادين الذين عملوا في بناء الأسطول وإعداده فقد أنعم عليهم ببعض الهدايا المختلفة (٥٦) .

وعندما استكملت القوات المصرية استعدادها خرجت من السويس حتى وصلت ميناء جدة وبقيت فيه طوال شهر رمضان، ثم أبحرت نحو الجنوب بقيادة الأمير حسين الكردي ويساعده الأمير سلمان الريس (٥٧) ويدأ قادة الحملة يخططون إلى إقامة بعض التحصينات في موانئ البحر الأحمر وخاصة في الثغور اليمنية التي كانت في حاجة إلى جبهات دفاع على غرار التحصينات التي نفذها الأمير حسين الكردي في جدة، وذلك بهدف إغلاق البحر الأحمر أمام البرتغاليين، ولكن لم يتم لهذه الحملة النجاح لأنها اشتبكت مع أمراء اليمن الذين امتنعوا عن مساعدتها، بل رفضوا إقامة تحصينات في بلادهم (٥٨)، فتأجلت الحملة على الهند وظل أسطول المماليك راسيا عند شواطئ جزيرة كمران ثمانية أشهر منصرفاً لبناء التحصينات فيها، ثم اضطر الكردي بتأييد من إمام الزيديين في صعده وفقيه لحج وشريف جازان إلى الهجوم على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي لقي مصرعه وسقطت عاصمته زبيد، وانتقلت تهامة ومخا وتعز إلى أيدي المماليك ، ثم أحكم الكردي الحصار على عدن

برا وبحرا إلا أنها استعصت عليه واضطر المماليك إلى رفع الحصار عنها وعادوا ثانية إلى القواعد التي انطلقوا منها (٥٩) .

ونتيجة لعوامل عديدة كانت قد واجهت حملة المماليك وغيرت من سياستها وأهدافها وجعلتها تتوقف عند أطراف اليمن الجنوبية دون أن تواصل تقدمها نحو الهند، وبالتالي تغيرت سياستها العسكرية من سياسة هجومية إلى سياسة دفاعية ، وللتبصر في هذا الأمر نجد أن بعض المصادر التاريخية تحدثت عن هذه الحملة وذكرت بعض الاتجاهات التي أدت إلى تلك النتيجة وأهم هذه الاتجاهات ما يأتي :

أولا : تأكيد بعض المصادر التاريخية على أن السبب الرئيسي في عدم تحقيق الأمير حسين الكردي هدفه بالوصول إلى الهند هو خلاف وقع بينه وبين سلمان الريس، الأمر الذي أدى إلى وقوع انقسام بين أفراد الأسطول المملوكي، فتوجه سلمان الريس، إلى ميناء زيلع ومنها إلى جدة، بينما عاد الأمير الكردي إلى جدة بعد مروره بالموانئ اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر، ومما يستدل على خيانة سلمان الريس وانفراده بقيادة الأسطول المرابط في جدة، وتنفيذه أوامر السلطان سليم العثماني بالقبض على الأمير حسين الكردي وإغراقه في البحر الأحمر، وكان ذلك بعد استيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسه(٦٠).

ثانياً عدم تعاون أمراء اليمن كما أشرنا وخاصة السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي سبق أن طلب النجدة من سلطان المماليك في بداية الأمر، وخاصة بعد وصول البرتغال إلى جنوب البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة على ميناء عدن، ولهذا فلم يكن أمام القوات المصرية إلا مهاجمة أمراء اليمن، وبالأخص أمراء الدولة الطاهرية من أجل إخضاعهم ثم مواصلة السير لمواجهة البرتغال، ولكن عندما بدأ الصراع بين الطرفين تطور الأمر إلى معارك وحروب أخرجت الحملة عن هدفها الأساسي، وإذا قلنا أن الحملة ورجالها غرقوا في اليمن ومشاكله فهذا قول لا يجانبه الصواب .

وفي ظل الظروف التي مات فيها دالبو كيرك وفشل قوات المماليك في مواصلة سيرها نحو بلاد الهند، كان البرتغاليون يعدون حملة تحت قيادة لوبو سوريز (Lopo Soares) خليفة دالبو كيرك بهدف السير إلى البحر الأحمر، ومهاجمة ميناء جدة، وقد غادرت تلك الحملة من الهند في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وكانت تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الرجال المسلحين، وعند وصولها إلى عدن لم يهاجمها لوبو سوريز، بل تقدم إليها في سلام وطلب من واليها مرجان الظافري أن يمده بالمؤن اللازمة له وببعض المرشدين البحريين لإرشاد الحملة إلى ثغر جدة، فأجاب الأمير مرجان هذه المطالب، وقد فشلت الحملة البرتغالية أمام

ميناء جدة وذلك بفضل التحصينات التي كان قد عملها الأمير حسين الكردي من قبل فاضطر لوبو سوريز أن يتقهقر بحملته وقام الأمير سلمان الريس الذي تحمل مسؤلية صد هذا الهجوم بمطاردة السفن البرتغالية حتى غادرت مياه جدة والموانئ القريبة منها (٦١).

وهذه الحملة التي قادها لوبو سوريز إلى البحر الأحمر تثير عدة نقاط تحتاج إلى توضيح ، ونتساءل لماذا قدم أمير عدن المساعدة للنصارى ضد المسلمين، وخاصة أنهم يسعون إلى مهاجمة ثغر جدة والأماكن المقدسة في الحجاز، ولماذا تقاعست دولة المماليك عن مساعدة القوات الإسلامية في جدة خلافا لما كانت تفعل سابقاً، وأخيرا كيف استطاع سلمان الريس وأهل جدة التصدي لتلك الحملة البرتغالية الكبيرة ؟

وفي اعتقادنا أن لوبو سوريز مر بميناء عدن دون السيطرة عليها لأنه كان ينظر إليها باعتبارها هدفا ثانويا بالنسبة لميناء جدة، وفي رأيه إذا سيطر على ثغر جدة فلن يصعب عليه الرجوع إلى عدن واحتلالها لأنه وضع قبضته على واسطة العقدة "جدة" . كما أنه وجد التعاون من أمير عدن مرجان الظافري وهذه فرصة لأنه لم يقتصر في مساعدته على تقديم المؤن والمعدات وإنما أرسل معه مرشدين بحريين يدلونه الطريق إلى جدة وخاصة أن القائد البرتغالي ربما أدرك صعوبة الملاحة في البحر الأحمر وأنها من أسباب فشل بعض حملات البرتغاليين سابقا .

وهذا التصرف من قائد الحملة لويو سوريز جعل بعض الكتاب الغربيين يهاجمونه على إضاعته هذه الفرصة الثمينة في السيطرة على ميناء عدن بل إن ملك البرتغال غضب هو الآخر من لوبو سوريز فعزله من منصبه كنائب للملك في الهند (٦٢) .

أما تقديم امير عدن المساعدة للبرتغال ضد المماليك المسلمين فتفسير ذلك يعود لبعض الأسباب منها :

١) ذكرت المصادر ما قام به الأمير حسين الكردي وسلمان الريس من حروب ضد أمراء اليمن مما أدى إلى قتل سلطانهم عامر عبد الوهاب الطاهري، وما قام به مرجان تجاه مساعدة البرتغاليين بالمؤن والعتاد والمراقبين البحريين ربما يكون بهدف الانتقام من المماليك ، وخاصة أن قائد الحملة البرتغالية ذكر للعدنيين عندما وصل بلادهم بأنه لن يؤذيهم ولا يرغب في السيطرة على عدن وإنما يريد الذهاب إلى جدة للسيطرة عليها (٦٣) .

٢) إن مساعدة مرجان الظافري للبرتغاليين ضد المسلمين يعتبر في حد ذاته خيانة وهذا ليس غريبا على بعض أمراء وأعيان المسلمين في كل من العراق وفارس وشرق إفريقيا والأندلس وبلاد الشام وغيرها في العصور الوسطى، حيث تذكر لنا بعض الروايات تعاون بعض المسلمين مع المسيحيين لمحاربة إخوانهم في الإسلام (٦٤) . والدافع وراء ذلك المصلحة أو الانتقام كما حصل مع مرجان الظافري، وربما

تناسى أمير عدن أن حملة لوبو سوريز متجهة نحو جدة والأماكن المقدسة في الحجاز، ولا ندري هل أدرك ما سيترتب على دخول البرتغال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لو نجحوا في السيطرة على ميناء جدة ، وإن قلنا أن مرجان تجاوب مع البرتغاليين من باب الخوف على نفسه وعلى عدن من دخول البرتغال إليها فكل هذا لا يبرر موقفه وخاصة أن مساعدته لم تقتصر على المؤن والعتاد وإنما أرسل مرشدين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، وبالتأكيد فإن المرشدين سيعنون باهتمام أكثر من اي شئ آخر .

٣ وإذا ما استبعدنا عنصر الخيانة عند الأمير مرجان الظافري فربما أن سبب تعاونه مع البرتغاليين لأنهم وصلوا بلاده ويحتاج لبعض الوقت الذي يعزز فيه التحصينات حول عدن، ورأى أفضل السبل أن يسلك جانب اللين مع لوبو سوريز فيقدم له المساعدات لكي يسير في طريقه نحو ميناء جدة في الشمال، مدركا بأن قوات المماليك سوف تتصدى له وعند عودته عن طريق عدن يكون هو الآخر قد استعد لمواجهتهم، والسبب الذي يجعلنا نقول بهذا الرأي إننا نجد الأمير مرجان الظافري يغير رأيه ضد البرتغاليين بعد أن فشل لوبو سوريز الدخول إلى جدة فيتصدى له ولحملته ويحاربهم وتستمر سياسته العدائية لهم في الحملات التي شنوها بعد لوبو سوريز (٦٥) .

أما موقف المماليك السلبي تجاه الدفاع عن ميناء جدة والتصدي للبرتغاليين فكان ناتجا عن الضعف الذي تعانيه الدولة المملوكية في أواخر أيامها، وقد أحس العثمانيون بذلك الضعف فلم يتركوا المجال للبرتغاليين ليجهزوا على المماليك وإنما أخذوا قصب السبق فقضوا على السلطان قانصوه الغوري عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وبالتالي أسدلوا الستار على دولة المماليك وتولوا عبء الدفاع عن بلاد المسلمين والوقوف في وجه البرتغاليين (٦٦).

وفي هذه الظروف التي كانت دولة المماليك تحتضر في كل من بلاد مصر والشام وتحل الدولة العثمانية محلها، كان لوبو سوريز يسعى للسيطرة على ميناء جدة والدخول إلى الأماكن المقدسة لتدميرها، ولا تشير المصادر التاريخية إلى أي مساعدة أو استعدادات أرسلت من المماليك إلى ثغر جده لمواجهة الغزو البرتغالي ، وكيف يكون لهم ذلك ودولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد السلطان سليم العثماني (٦٧) . ثم أن العثمانيين أنفسهم قابلوا بعض المشاكل اثناء دخولهم بلاد الشام ومصر للقضاء على المماليك فلم يتمكنوا هم الآخرين من إرسال قوة تدافع عن جدة والمقدسات الإسلامية وخاصة أن دخولهم مصر والسيطرة عليها تزامن مع الحملة البرتغالية التي دخلت البحر الأحمر بقيادة لوبوسوريز في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)(٦٨).

أما كيف تقهقرت الحملة البرتغالية من أمام ميناء جدة ، وخاصة أنها أول حملة إستطاعت الوصول إلى جدة ، فالمصادر التاريخية لم تفصل الحديث عن الصدام الذي حصل بين البرتغاليين والمسلمين المرابطين في جده ، وإنما الذي اشارت إليه هو تصدى سلمان الريس بمن كان معه في الميناء لتلك الحملة الكبيرة واستطاعوا هزيمة البرتغاليين ومطاردتهم في مياه البحر الأحمر (٦٩) . ويبدو أن هناك ظروف عدة ساعدت في إنهزام البرتغاليين ورجوعهم عن جده ، وخاصة أن القوى الإسلامية في كل من مصر والشام كانت تمر بمرحلة عصيبة، فلم تتمكن من التصدي للبرتغاليين كما فعل المماليك في الأعوام السابقة لحملة لوبوسوريز . وهذه الظروف يمكن إجمالها فيما يأتي:-

1. مناعة السور والتحصينات التي كان قد ضربها الأمير حسين الكردي من حول جدة ، وقد اعترف البرتغاليون أنفسهم بتلك التحصينات عندما حاولوا اختراقهم في هذه الحملة الأخيرة (٧٠) .
2. ربما أن الشعب المرجانية التي امتاز بها البحر الأحمر قد ساعدت في إعاقة الحركة عند البرتغاليين ، خاصة وأنهم لازالوا جاهلين بممراته ومسالكه . وحرصهم في أخذ مرشدين بحارة من العدنيين ليعينوهم في رسم الطريق لهم في هذا البحر أكبر دليل على عدم درايتهم بدروبه ونظام الملاحة فيه .

[٣] لانستبعد أن أولئك الملاحين الذين أرسلهم امير عدن قد أحسوا بعظم الجريمة التي يقومون بها في مساعدة الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين ، وأدركوا ما يترتب على المسلمين من سلبيات لو تمكن النصارى في السيطرة على الحرمين الشريفين ، لهذا فلم يخلصوا في ارشادهم للبرتغاليين ، وربما زودوهم بمعلومات غير صحيحة مما سبب فشلهم ضد القوات الإسلامية المدافعة عن جدة .

[٤] عظم الأمر الذي دهى المسلمين بوصول البرتغاليين إلى جدة التي هي بوابة مكة المكرمة ، ولا نستبعد أن جميع من في جدة بل من في الحجاز جميعهم قد عملوا ما في جهدهم للدفاع عن جدة ضد هذا العدو الصليبي الجديد ، والسبب الذي يجعلنا نجزم بهذا القول ، هو أن جدة صارت رباطاً للمجاهدين ، بل ظهرت فتاوى من علماء المسلمين في الحرمين وغيرهما بأن ميناء جدة أهم رباط في الإسلام ، فينبغي لمن دخله أو أقام فيه أن ينوى الرباط والجهاد والدفاع عن بيت الله الحرام ، ويحمل ما يستطيع حمله من السلام لدفع أهل الكفر والعناد. وهناك من العلماء من افتى بأن ثعر جدة أفضل الثغور لقربه إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة الذي من دخله كان آمنا، وأن فضل من رابط فيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان في سائر الأزمان والدهور ، وذكروا عن رسول الله ﷺ قوله: " يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة (٧١) .

ومثال هذا الخطر العظيم كان لتفاعل علماء المسلمين ليدلوا بفتاويهم ويحثوا الناس على الدفاع عن أنفسهم ومقدساتهم ، وعندما يصل الأمر إلى ما وصل إليه في حملة لوبوسوريز البرتغالي على جدة والحرمين ، لابد أن يكون عند المسلمين ، وخاصة المواجهين للخطر المباشر مثل سكان الحرمين رد فعل يبذلون فيها الغالي والرخيص من أجل الدفاع عن الكعبة المشرفة وقبر الرسول الكريم ﷺ وهذا بالفعل ما حدث من أهل الحجاز ضد البرتغاليين عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م).

وبعد أن قضت الدولة العثمانية على دولة المماليك في مصر عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) إنتقلت حماية الحرمين إلى العثمانيين وورثوا الدفاع عن البحر الأحمر من هجمات البرتغاليين ، وبقيت جدة في حسبان سلاطين بني عثمان لاهميتها بالنسبة لسير التجارة في البحر الأحمر ، ولقربها من الحرم الشريف في مكة المكرمة، ولهذا بقواعلى صلة وطيدة بأمراء مكة من الأشراف ، وسعوا إلى أحكام التحصينات على جدة والتصدي للقوات البرتغالية التي لم تكتف بحملة لوبوسوريز .

ولم يتوقف البرتغاليون عن مهاجمة البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة ، وإنما أعدوا حملة بحرية كبيرة بقيادة نائب الملك البرتغالي لوبرسكويرا الذي خلف لوبوسوريز ، فخرجت من الهند ووصلت على مدخل البخر الأحمر في أوائل سنة (٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، وكان هدف لوبرسكويرا ، مثل من سبقه ، وهو التركيز على مهاجمة جدة بصفة

خاصة ، فلم يتوقف في عدن وإنما سارع بالتقدم إلى ميناء جدة قبل أن يفوته موسم الرياح ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى جدة لمعاكسة الرياح لسفن حملته ، ولأنه علم أن بها حشوداً عسكرية كبيرة تعمل على التصدي له (٧٢) . وعندئذ انحرف لوبوسكوبرا إلى ميناء مصوع بهدف الاتصال بالأحباش لعقد تحالف مشترك ضد القوى الإسلامية (٧٣) ، ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند.

وفي السنوات الأخيرة من العقد الثالث في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حاول البرتغاليون مد نفوذهم على البحر الأحمر وخاصة إلى الموانى الرئيسة فيه مثل مينائي جدة وعدن ، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهما لتصدي القوى المحلية لهم في كل من اليمن والحجاز ، إلى جانب أن الدولة العثمانية قد ورثت مسؤوليات المماليك في الدفاع عن البحر الأحمر وحماية المقدسات الإسلامية فكانت تعزز سواحل البحر الأحمر المطلة على الحجاز ببعض القوات العسكرية (٧٤) . ولم ينبرى العثمانيون بشكل جاد في العمل على طرد البرتغاليين من البحر الأحمر وإغلاقه أمام قواتهم إلا في منتصف القرن العاشر الهجري ، والسبب في تأخرهم أكثر من عشرين سنة من دخولهم مصر بعد قضائهم على المماليك عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، كان التصدي لما قابلهم من فتن وثورات في بلاد فارس والعراق وغيرهم من بلدان الشرق الأدنى (٧٥) .

وإذا علمنا طبيعة تلك الحملات البرتغالية على ميناء جدة في أواخر العصر المملوكي ، ثم كيف تصدى لها المماليك حتى قضى عليهم العثمانيون عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) إلاّ أننا لازلنا نجهل دور الجبهة الداخلية في جده ومكة المكرمة تجاه ذلك الغزو الصليبي ، ثم الآثار السلبية التي نجمت عن ذلك الغزو.

من المعلوم أن أهل الحجاز كانوا في خوف مما داهم بلادهم ، وهذا الخطر المتمثل في البرتغاليين لم يكن كأي خطر آخر لأنهم يسعون للسيطرة على جدة لكي يتمكنوا من الدخول إلى مكة لتدميرها ، وبهذا فهو صراع عقائدي بين النصارى والمسلمين قبل أن يكون صراعا على مال أو أراضي أو ما شابههما . ومن هذا الإحساس صار علماء الحجاز يصدرون الفتاوى لكل الناس ويبينون عظم الأجر والمثوبة لمن يحمل سلاحه وعتاده ويذهب إلى جدة للمرابطة فيها ضد البرتغاليين (٧٦) . وقد تجاوب أناس كثيرون وعلى رأسهم أمير مكة في عهد السلطان قانصوه الغورى الشريف بركات (٧٧) الذي ذهب مع رجال كثير من مكة إلى جدة أثناء عمل الأمير حسين الكردي في بناء سور جدة فعملوا جميعاً في تشييد السور وملحقاته، كما ساعد الأمير الشريف بركات في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور ، وبقي مع الأمير حسين الكردي يشرف على عملية البناء ، وأشارت إحدى الروايات أنه كان يقف على العمارة راكباً فرسه، ليحضر بحضوره جميع من بالبلد ويعينون في حمل المؤن الكبير

منهم والصغير والغني والفقير والمأمور والأميره (٧٨) . وكان أهل الحجاز، وخاصة أمراء مكة متيقظين لتحركات البرتغاليين في المياه الهندية ومحاولة دخولهم إلى البحر الأحمر فتجدهم على إتصال بحاميات المسلمين ، التي تركها حسين الكردي في جدة بعد رجوعه إلى السويس للإشراف على الأسطول المصري الجديد الذي يعده الغوري بعد هزيمة جيشه في معركة ديو ، فيساعدونهم ويمدونهم ببعض السلاح والعتاد إلى جانب رفع الروح المعنوية في أنفسهم كونهم يدافعون عن مقدسات المسلمين . كما أن أمراء الحجاز أيضاً على صلة مستمرة بالسلطان قانصوه الغوري يطلعونه بما يدور من البرتغاليين في الشرق ويطلبون منه سرعة النجدة ضد هذا الغزو الصليبي . والشريف بركات من أمراء الحجاز كان على صلة بتعزيز التحصينات في جدة واطلاع السلطان الغوري بكل جديد. ففي عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) ساد أهل الحجاز خوف شديد عندما سمعوا بخروج حملة برتغالية من الهند في طريقها إلى جدة، الأمر الذي دفع الشريف بركات للتوجه مع بعض رجاله من مكة إلى جدة لكي يتصدى لهذه الحملة المنتظرة ، كما أسرع في مخاطبة السلطان الغوري وبين له خطورة الموقف وطلب منه المدد والنجدة ، فارسل إليه السلطان قوة عسكرية بقيادة حسين الكردي لتدافع عن ثغر جدة حتى يتم تجهيز الأسطول الجديد الذي كان يعده السلطان الغوري في السويس (٧٩) .

كما أشرنا سابقاً عن حملة البرتغال التي كان يقودها لوبوسوريز ضد جدة ومكة في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وكيف منيت بالهزيمة من الحامية المحلية التي كانت مقيمة في رباط جده . والنصر الذي أحرزه المسلمون ضد تلك الحملة الصليبية لم يحدث من فراغ ، مع العلم أنه لم يأتيهم أي مدد أو نجدة من المماليك أو غيرهم ، وإنما تماسك وتعاون الجبهة الداخلية في الحجاز هي التي ساعدت على نصر المسلمين المرابطين في جدة وتمكنوا من رد هجمات البرتغال .

كانت جدة في آخر العهد المملوكي تتبع إدارياً بشكل مباشر السلطان في القاهرة ، فهو الذي يعين مشرفاً يتولى إدارة جدة ، ويطلق على هذا الموظف لقب " نائب جدة " أو " ناظر جدة "(٨٠) . وكانت مهمته إدارة الأمور السياسية والتجارية بين التجار في الميناء ، ثم جمع الضرائب على التجارة القادمة إلى جده وخاصة من بلاد الهند . وهذا النظام السياسي الجديد لم تعرفه جده إلا في آواخر العهد المملوكي ، في حين أن إدارتها وجباية الضرائب من قبل كانت من مسئوليات أمراء مكة من الاشراف(٨١).

والأسباب التي جعلت آخر سلاطين المماليك يتولون الإدارة المباشرة لميناء جده تتمثل فيما يلي :-

١- تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في إدارة دولة المماليك، واحتياجهم إلى الأموال التي تغطي نفقاتهم ، مع إدراكهم إلى أهمية

ميناء جده الذي ترتاده السفن التجارية من كل مكان ، وإلى كثرة الضرائب التي تجمع من التجار الذين يرتادون هذا الميناء . ولهذا رأى السلاطين أهمية استيئثارهم بهذه الضرائب بدلاً من أهل جده أو أمراء مكة مبررين عملهم ذلك بدفاعهم عن ميناء جده وعن المقدسات الإسلامية في الحجاز (٨٢).

٢ كذلك لم يحسن أمراء مكة المكرمة جمع الضرائب من تجار جدة ، وإنما بالغ بعضهم في جمعها حتى إرتفعت الشكاوي من بعض التجار الذين كانوا يرتادون الميناء، وبالتالي صار بعضهم يغير سير تجارته إلى بعض المواني الأخرى على سواحل البحر الأحمر كزيلع ، أو عدن، أو ينبغ وغيرها (٨٣) . وهذا الوضع في جدة ساعد في دفع المماليك على التحكم في تجارها وتجاراتها ، ظناً منهم أن الأحوال الأمنية والإدارية، وخاصة ما يمس الناحية التجارية ، سيكون في حالة أفضل من ذى قبل ، ولكن سرعان ما سارت الأمور إلى الجانب المعاكس.

ونظراً لما نتج حول جدة من أحداث سياسية واقتصادية في عهد السلطان قانصوه الغوري، كان لابد من الإشارة إلى بعض الجوانب السلبية التي يمكن أن نستعرضها فيما يلي :-

١ تدهور الأحوال الاقتصادية ، وخاصة التجارية منها ، في ميناء جدة وفي الطريق المؤدي إلى مواني مصر الرئيسة ، بل امتد التدهور على قلب الدواوين المالية والإدارية في الدولة المملوكية . ويظهر الحال

واضحاً في حديث ابن اياس عن حوادث سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) عندما قال :ـ " .... وكان في تلك الأيام ديوان الفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الإنشجاب والتعطيل ، فإن بندر الاسكندرية خراب لم تدخل إليها القطائع (السفن الكبيرة) في السنة الحالية وبندر جدة خراب نحوا من ست سنين .. " (٨٤) وحديث ابن اياس يصور لنا الضرر الذي لحق بميناء جدة في السنوات التي كان البرتغاليون يشنون هجمات على تجارة المسلمين في البحر الأحمر، وبخاصة يوم كان دالبوكيرك البرتغالي متزعماً مطاردة المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم.

٢ قسوة بعض الأمراء الذين كانوا يعينون من قبل السلطان الغوري على ميناء جدة ، فذكر أن البعض منهم كان لا يتهاون في أخذ الناس بالقوة ، وخاصة التجار منهم ، فكانوا يجمعون منهم الضرائب الباهظة ، ومن لا يتجاوب مع رجال المماليك فقد يجد العقوبة القاسية ، التي قد تؤدي بحياة البعض منهم . والأمير حسين الكردي، الذي أشرف على بناء سور جدة وتحصيناتها ، كان أعظم مثال في قسوة أمراء المماليك على التجار في جدة، وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه كان يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال،(٨٥)، وعمله هذا كان من الأسباب التي دفعت التجار الهنود كي ينصرفوا عن النزول في ثغر جدة ويؤول أمر الميناء إلى التدهور والخراب.

وقد ذكرت الروايات التاريخية ما قام به الأمير الكردي من بطش يوم كان في جدة يشرف على تحصيناتها ، فكان يجبر الناس على دفع أموالهم والمشاركة بأرواحهم في تعزيز التحصينات حول جدة ، ومن كان يتكاسل أو يتهاون فيما أوكل إليه كان يجد العقوبات الصارمة من للأمير الكردي ، وكثيراً ما كان يستخدم القتل أو الشنق لمن يصدر منه اي إمتناع أو مراوغة . (٨٦) وهذه السياسة التي سلكها الكردي قد انتقده فيها بعض المؤرخين حتى وصف بالقسوة والوحشية (٨٧) . ونلتمس العذر للأمير الكردي عندما لجأ إلى اسلوب القوة والبطش ، وذلك لما يواجهه من ظروف فكانت دولة المماليك تعاني في آخر عهدها من أزمات مالية كبيرة، إلى جانب أن البرتغاليين صاروا يهددون جنوبي البحر الأحمر ، ولابد له أن يوجد المال والأدوات اللازمة لضرب التحصينات القوية حول جدة ، خاصة وأن البرتغاليين قد أعلنوا عدائهم صراحة للمسلمين عندما عزموا على مهاجمة مقدساتهم عن طريق ميناء جدة . وإذا كان قد صدر من الأمير الكردي بعض التصرفات القاسية فربما كانت خارجة عن إرادته لحاجته إلى المال وإلى سرعة إنجاز التحصينات حول الميناء حتى لا يهاجمه البرتغاليون قبل أن يستكملها . والتاريخ يشهد لهذا العمل الذي انجزه الأمير الكردي في بناء سور جده ، وذلك أنه كان عملاً جباراً رد عاديات البرتغال عن الميناء أكثر من مرة .

وإذا كانت سفن البرتغال قد نجحت في مياه البحر العربي والمناطق القريبة من باب المندب، إلا أن القلاع البحرية في ميناء جده لم يقدر للبرتغاليين النيل منها على الإطلاق سواء في نهاية العصر المملوكي أو مع بدايات العصر العثماني ، مما يعني أن تكاليف إنشائها مهما فاقت حدود وإمكانات الدولة والأهالي فإنها كانت في النهاية واقيا منيعاً اسهم في سلامة البحر الأحمر ، وبالأخص ثغر جدة ، من السفن البرتغالية التي كانت ترفع راية الصليب على أشرعتها .

وإذا نظرنا إلى عامة رجال الدولة المملوكية ، أو بعض العثمانيين في جده أثناء سقوط دولة المماليك فقد كانوا أشد قسوة على أهل جده وتجارها لما قاموا به من سلب ونهب في أسواقها ، بل ما صدر منهم من فساد وخراب حتى إنقطعت الميرة عن جدة ومكة المكرمة ، وإرتفعت الأسعار وإنتشرت الأمراض ووقع القحط الشديد(٨٨).

٣ أغارة بعض القبائل العربية العربية على ميناء جدة وخاصة عشائر بني إبراهيم الذين كانوا يسعون إلى قطع الطريق على الحجاج ، بل وصل بهم الأمر في بعض الأحيان إلى مهاجمة التجار في ثغر جده وسلب ما لديهم من أموال وسلع مختلفة، وذكر أن السلطان الغوري أرسل لهم قوات عسكرية أكثر من مرة لكي تروعهم وتفرقهم ، وكان من أعظم القوات تلك الحملة التي قادها الأمير حسين الكردي في طريقه إلى جده فقد إصطدم بهم وهزمهم وأخذ على زعمائهم

المواثيق بعدم مهاجمتهم التجار في جدة ، ولم يكتف بذلك وإنما ضرب التحصينات على جدة من جهة البر حتى يسلم خطرهم مثلما كان يسعى في العمل للسلامة من البرتغاليين من جهة البحر .

وخلاصة القول أن العداء بين الشرق والغرب لم يكن وليد ظهور دولة المماليك ، وإنما هو صراع قديم جداً يمثل صراع بين عقيدتين هما الإسلام وما تعارض معه من أديان ومعتقدات خاطئة . وما لمسنا في هذا البحث من خروج البرتغاليين من بلاد أوربا نحو الهند ثم عملهم باستمرار للدخول إلى البحر الأحمر لكي يسيطروا على موانيه، وخاصة ميناء جدة الذي يوصلهم إلى مقدسات المسلمين في الحجاز ، ليس إلا أسلوب من أساليب الصليبيين التي يهدفون من ورائها إلى السيطرة على ثروات المسلمين ، ثم التبشير بمعتقداتهم في أراضي المسلمين ، وأخيراً السيطرة على مقدسات المسلمين لإذلالهم . وهذه محاولات ليست جديدة على المسلمين أو البرتغاليين أنفسهم ، فرأينا أجدادهم الصليبيين الأوائل يأتون إلى بلاد الشرق الأدنى في العصور الإسلامية الوسطى وهم يحملون نفس المبادئ التي جاء بها البرتغاليون لكنهم عادوا مدحورين دون أن يتحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه.

وكون البرتغاليون قد حاولوا مراراً الوصول إلى جدة ومقدسات المسلمين في الحجاز ، إلا انهم لم يستطيعوا لعدة أسباب هي :

[١] السعي من دولة المماليك، أيام السلطان قانصوه الغوري، إلى رسم سياسة حربية دفاعية لميناء جدة وذلك بما يتناسب مع أهمية الحرمين الشريفين في قلوب المسلمين في جميع إنحاء العالم الإسلامي، فعملوا على تحصينه بكل وسيلة وبنوا سور جدة العظيم وحفروا حوله خندقاً كبيراً وزودوه بالأسلحة والمرابطين للدفاع عنه في أي لحظة طارئة، وبالتالي جعلوا من جدة مركزاً لخط الدفاع عن الحرمين ضد الهجمات البرتغالية، كما جعلوا منها مركزاً دفاعياً متقدماً للدفاع عن الأراضي العربية.

[٢] ظهور أهمية جدة في الدفاع عن الحرمين حتى أصبحت رباطاً هاماً في الإسلام، بل أفتى علماء المسلمين بأنها أهم رباط، وخاصة أن من يرابط فيها سيجاهد ضد البرتغاليين الصليبيين الذين يسعون إلى اقتحام أسوارها والسير إلى مكة المكرمة لتدميرها. وهذا الهدف المشين الذي يسعى البرتغال إلى تحقيقه ولد غيرة عند المسلمين فصار القادر على حمل السلاح والعتاد من أهل الحجاز يتجه إلى جدة للمرابطة فيها والتصدي لهجمات البرتغاليين، وكان شريف مكة على رأس من ذهب ورابط هناك، ناهيك عن المسلمين من المماليك أو العثمانيين، أو الهنود فلم يألوا جهداً في مد يد العون لمن رابط وجاهد في جدة ضد البرتغاليين.

كذلك من أقام في رباط جدة ضد البرتغاليين لا يقومون إلا بما أمر الله به المسلم في الذب عن حرمات المسلمين والتصدي لأعداء الله ، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٨٩)

وقال تعالى :-

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾(٩٠)

والمقصود في هاتين الآيتين هو حث المسلم على الصبر ومجاهدة النفس ثم الجهاد والتصدي لأعداء الله من الكفرة والمشركين .

٣- إن إضطراب الأحوال السياسية في الدولة المملوكية وضعف سلاطينها في آخر عهدها كان له الاثر على تطاول البرتغاليين ومحاولتهم الوصول إلى ميناء جدة في الوقت الذي كان فيه الضعف الاقتصادي عام في مصر والحجاز وغيرهما ، ثم تطاول بعض القبائل العربية المجاورة لمكة وجدة ، مثل قبائل بني إبراهيم ، في إثارة الفوضى والقيام بعملية السلب والنهب . كل هذه الأمور جديرة إلى أن يسلك حاكم جدة من قبل المماليك أسلوب القسوة والشدة بل يضاعف الضرائب التي كانت تجبى على تجار جدة إلى جانب أخذ الناس

بالقوة والعمل في سرعة بناء التحصينات التي ضربها الأمير حسين الكردي على جدة.

٤) قطع العثمانيون الطريق على البرتغاليين إذ جاء سلاطين بني عثمان لكي يستكملوا المشوار الذي كان قد بدأه المماليك في تحصين ميناء جدة والدفاع عن الحرمين والتصدي للقوات البرتغالية التي تسعى جاهدة إلى بسط سيطرتها على البحر الأحمر ، لكنها فشلت بظهور العثمانيين أمامهم .

٥) على هذا النحو أضحى النضال الإسلامي البرتغالي داخل البحر الأحمر صدى للنضال المملوكي العثماني البرتغالي أو النضال المملوكي ثم العثماني في حوض البحر الأحمر ثم في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد ذلك، أو قل أن نضال المسلمين في ثغر جدة ضد البرتغاليين صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب ، وهو من جانب آخر إمتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية وتاريخ الاستعمار الأوربي منذ حركة الكشوف البرتغالية في هذه البقاع ، مليء بالمآسي ، كما أنه مليء بالبطولات الفذه ، وهي التي خلدها التاريخ خلال مراحل الكفاح الديني والوطني ، وهذا ما حاولت أن أبرزه في هذه العجالة المتواضعة حتى أفتح المجال للاخوة الباحثين عن

صفحات مازالت تحتاج لكثير من البحث والدراسة المتأنية والكتابة العلمية الموضوعية الهادفه.

والله ولي التوفيق

" الحواشي والتعليقات "

١ـ وللمزيد من التفصيلات عن أهمية ميناء جدة منذ صدر الإسلام ، أنظر . محمد بن عبد الله الأزرقي . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ج٢ ص ٧٦ ، ٨٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (بيروت : دار الكتب العلمية . د . ت) جـ١ ، ص ٨٦ – ٨٨ ، عبد القادر بن أحمد بن فرج . رسالة في تاريخ مدينة جدة ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة . تحقيق محمد عيسى الصالحية (بيروت : دار الحداثة للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م) ص ٤٠وما بعدها ، عبد القدوس الأنصاري . موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة : دار مصر للطباعة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ٧٥ وما بعدها ، علي بن حسين السليمان . "ميناء جدة في القرن التاسع " مجلة العرب . (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج ١٢، ص ٩٣٥-٩٤٩،

G.R. Hawting . " The origin of Jeddah and the Problem of al-Shuayba " Arabica Vol. XXXI (1984) PP.318 – 326 .

٢ـ وللإطلاع على معلومات أكثر عن أهمية ميناء جدة في البحر الأحمر خلال القرون الإسلامية الوسيطة ، وكيف كانت تجد الاهتمام والرعاية من خلفاء وسلاطين وأمراء المسلمين في كل من الحجاز . والشام ، ومصر ، والعراق ، انظر . الأزرقي ، اخبار مكة ج ٢ ص٧٦ ، ٣٢٣٨٠ ، ٣٢٧ ، محمد بن محمد عبد الله الأدريسي . كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج١ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ ، جمال الدين يوسف بن المجاور . بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى : – تاريخ المستبصر . تحقيق أوسكر لوفغرين (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٥١م) ج ١ ، ص٤٠ – ٤٨ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٨٧ وما بعدها قطب الدين المكي النهروالي . كتب الإعلام باعلام بيت الله الحرام

(بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٤م) ص٧٩ ، أحمد عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧هـ) (الرياض : عماد شؤون المكتبات بجامعة الرياض . (١٩٨١م) ص١٧٧ - ١٨١ حسنين محمد ربيع . " وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لمواني الحجاز واليمن في العصور الوسطى " لندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية.(الرياض ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) مج١ ، جـ ٢ ، ص١٣٥ الانصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة ص ٧٧ وما بعدها .

Pesce. Jiddah : Portrait of an Arabian City (London, 1974) P.17 ; S.D. Goitein. A Mediterranean Society (Berkeley,1967) PP.214-215 ; R. Hartmann (rev-P.A.Marr) " Djudda" Encyclopaedia of Islam, New ed Vol. II, P.572 .

٣- ولمعرفة الطرق والأساليب التي قام بها البرتغاليون للالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى شواطئ الهند، ثم مهاجمة المسلمين في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر ، أنظر . يحيى بن الحسين بن القاسم. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ج- ٢ ، ص٦٢٩ وما بعدها ، عفيف الدين أبو محمد عبد الله بامخرمة . البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه : - نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات بامخرمة كما سجلها في مخطوط " قلادة النحر " دراسة وتحقيق محمد عبد العال أحمد (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م) ص٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول عبد ربه . " البرتغاليون والبحر الأحمر " سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث ، جامعة عين شمس . البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٢٠٥ - ٢٢٢ ، ويوجد ضمن هذا السمنار دراسات جيدة تفيد القارئ في معرفة ما سلك البرتغاليون من جهود عدائة تجاه المسلمين . وفي الجزء الثاني من

أبحاث : - ندوة رأس الخيمة التاريخية ، والمنعقدة في (٥ - ٧ محرم ١٤٠٨هـ / ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧ م) العديد من الأبحاث القيمة التي تصور هجمات البرتغاليون على الخليج العربي والسواحل الأفريقية .

٤- وللإطلاع على تفصيلات أكثر عن الحروب الصليبية في الشرق الأدنى ، أنظر . سعيد عبد الفتاح عاشور . اوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦م) ج-١ ، ٤٣٦ - ٤٦٤ ، للمؤلف نفسه ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٥م) جزءان .

٥- كلمة برستر (Prester) بمعنى القديس (Priest) ، والقديس يوحنا شخصية خرافية، كان أهل أوربا يعتقدون بوجودها ، وأنه يحكم إمبراطورية واسعة في آسيا ، غير أن أهل أوربا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وجدوا أن المقصود بهذه الشخصية هي ملك الحبشة المسيحي . وللمزيد من التفصيلات أنظر . شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان أو فتوح الحبشة. نشره مع مقدمة بالفرنسية رينية باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ، ٤٠ وما بعدها ، إبراهيم علي طرخان . البرتغاليون في غرب أفريقيا (القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٧ م ص ٤١ ، S.Bovil

The Golden Trade of the Moors (London, 1962) PP.92 ff .

٦- المعروف أن دولة أكسوم (الحبشة) إعتنقت المسيحية منذ القرن الأول الميلادي ، وعملت جاهدة على نشر المسيحية بين الوثنيين في أفريقيا منذ ذلك التاريخ وإزدادت في القرن الثاني بدعم من بيزنطه . فظلت الحبشة . منذ ذلك الوقت على تعصبها الشديد لمسيحيتها ، ويقول المقريزي : وأهل الحبشة يتشددون في ديانتهم تشدداً زائداً، ويعادون من خالفهم من سائر الملل اشد عداوة ويعادون الطائفة الملكانية من

النصارى ، ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام للحبشة من جميع الجهات تقريباً ، كما كانت من أهداف المسلمين نشر الإسلام في تلك الرقعة بين الوثنيين الباعث الأكبر على الحروب التي نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التي جاورتها ، وجاء البرتغاليون بعد ذلك وظهرت أهدافهم الصليبية عندما وقفوا مع الحبشة في هذا الصراع . انظر ، المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (مصورة عن نسخة بالأسكوريال ، ص٣ ، عبد المجيد عابدين " بين العرب والحبشة ، (القاهرة : د . ن ، ١٩٥٩م) ص، ١٤ .

٧- وقد وصف القلقشندي هذه البلاد الإفريقية بقوله : " .... البلاد المقابلة لبر اليمن على بحر القلزم . وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها بالطراز الإسلامي لأنها على جانب البحر كالطرازلة " . وقد تكونت إمارات الطراز الإسلامية هذه نتيجة زيادة عدد المسلمين في هذه المنطقة ذات الأهمية البالغة في تجارة البحر الأحمر . وقد تبلور الوجود الإسلامي بهذه المنطقة من الناحية السياسية في سبع إمارات ظهرت مع بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، وهذه الإمارات هي : أوفات ، ودواردو، وارابيني ، وهديا ، وشرخا ، وبالي ، وداره . وقد تأرجحت ما بين التبعية السياسية لملك الحبشة والاستقلال عنه ، بل ومحاربته أحياناً . وكانت إمارة أوفات هي أقواها جميعاً . وقد شهدت القرون: الثامن ، والتاسع ، والعاشر الهجرية (الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر الميلادي) سلسلة من المعارك بين الحبشة ودول الطراز الإسلامي بسبب التنافس للسيطرة على المراكز التجارية في داخل الحبشة، وميناء زيلع على الساحل الصومالي ، واستعان مسلمو الحبشة بدولة المماليك ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق لم يتح لمصر أن تقدم أي مساعدة فعالة لهم ، كما استعان الأحباش النصار بالأوربيين ، لمزيد من التفصلات أنظر: أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، د . ت) ج ٥ ، ص٣٢٤– ٣٣٠ . تقي الدين أحمد

المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . (القاهرة : د . ن ، ١٨٩٥م) ص٤٥ وما بعدها، الشاطر بصيلي . تاريخ وحضارة السودان الشرقي والأوسط (القاهرة : د .ن ، ١٩٧٢م) ص ١٢٥ وما بعدها .

٨ـ كانت البابوية قد حرصت منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على تقوية صلتها بدولة الحبشة المسيحية فقام وليم آدم ، الراهب الدومينيكاني الذي أختاره البابا نيقولا الرابع عام هـ (١٣٠٥م) للتبشير في الشرق ، برحلة طويلة زار أثناءها الحبشة، ثم عاد إلى اوربا في عام هـ ١٣١٦م ، بعدما نجح في تحقيق أهدافه ومنها تدعيم علاقات التعاون بينهما ، مثلما نجحت في إستثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين، وبالتالي جذب هؤلاء الملوك إلى داخل دائرة الحرب الصليبية . وقد قويت الاتصالات الحبشية البرتغالية ضد العالم الإسلامي، فمثلاً مع المماليك في مصر بعد كشف طريق راس الرجاء الصالح ، وبعد هزيمة الأسطول المصري في ديو عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م . فقد أرسلت هيلانه ملكة الحبشة رجلاً أرمينياً يدعى ماثيو على راس سفارة عام ٩١٦هـ ١٥١٠م إلى إمانويل (عمانويل) ملك البرتغال لمفاوضته من أجل التحالف ضد المسلمين . وقد لقبته في رسالتها بلقب " قاهر المسلمين " وأظهرت في رسالتها الرغبة الملحة من أجل التعاون لكي تصل جنودها الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة المكرمة ، وتحطيم الكعبة ، وإغلاق البحر الأحمر من الجهة الشمالية ، ومن باب المندب جنوباً . وللمزيد من التفصيلات عن العلاقة بين الأحباش والقوى الأوربية ، انظر . سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج- ٢ ، ص١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه " بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى " مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، عدد (١٤) (١٩٦٨م) ،

F.F. Alvarez. (a Portuguese) Narrative of the Portuguses Embassy to Abyssinia During. The year 1520-1527. Translated

by LordStanley (London,1881) PP.311-313, 393ff;A.S. Atiya. The Crusade in the later Middle Ages (London,1938) PP.161-162.

٩- بار ثملميودياز الذي وصل عام (٨٩٢هـ-١٤٨٦م) إلى خليج الجو (Algoa) على الشاطئ الجنوبي الشرقي لأفريقيا بعد أن دار حول القارة ، هو الذي أطلق على راس القارة من الجنوب اسم الرأس العاصف (Cabo Termentoso) ، وجاءت تسميتة هذه نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التي تهب على هذه المنطقة تحدث أصواتاً عنيفة . ولكن ملك البرتغال حنا الثاني غير الاسم إلى " رأس الرجاء الصالح " وذلك تفاؤلا بقرب الوصول إلى الهند. وللمزيد أنظر : -

J.Fage, An Atlas of African History (Cambridge, 1958) PP.26-27; H.H. Johnston, A History of the Colonizaton of Africa by Allien Races (Cambridge, 1913) PP80-81,99.

١٠- وقد استمر هذا اللقب يطلق على ملك البرتغال فترة من الزمن بعد ذلك ، وهو يعكس الدوافع الحقيقية للنشاط البرتغالي ، الذي حظي بمباركة وتشجيع هذا البابا ، الذي حاول أن يقوم بدور مشابه للدور الذي قام به البابا أوربان الثاني أبان الإعداد للحملة الصليبية الأولى . أنظر سعيد عاشور ، أوربا في العصور الوسطى ، ج١ص٢٦١ ،

T.F.Tout. The Empire and the papacy (London,1924) PP.137-139.

١١- أنظر ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م . (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤م) ص، ٤٦ وما بعدها .

R.B. Serjeant. The Portuguese of the South Arabian Coast

(Oxford,1933) PP.2-3; Edgar Pestage. The Portuguese Pioneers (London,1933) PP.267-268.

١٢ـ أنظر ، زين الدين المليباري . تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين (لشبونة : د . ن ، ١٨٩٨م) ص ٤٤ – ٤٥ .

١٣ـ المصدر نفسه ، ص٤٥ – ٤٦ . انظر أيضاً محمود سمره " الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق افريقيا " مجلة العرب ، العدد (٥٩) (الكويت ، ١٩٦٣م) ص ١٣٢ .

١٤ـ قطب الدين النهروالي . البرق اليماني في الفتح العثماني (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ١٨ – ١٩ .

١٥ـ الفونسو دالبو كيرك استهل حياته العسكرية البحرية في الجيوش البرتغالية على سواحل المغرب ، ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق . وكلفه ملك البرتغال إمانويل الثاني بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق فعلق البوكيرك اهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة، فقام ببناء حصون في هرمزومسقط والبحرين . وقد انيط إليه قيادة الاسطول البرتغالي في بحار الهند ، ثم قاد أول حملة في الخليج العربي على هرمز في عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م ، واشتهر بنزعاته المتطرفة فكان عنيفاً قاسياً ، وفي عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م تولى منصب نائب الملك في الهند خلفا لفرانسيسكو دي الميدا (Francisco de Almeda)، وفي عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) توفى في مقره في جوا الواقعة على ساحل ملبار والمطلة على بحر العرب . أنظر جمال زكريا قاسم . الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الحديث (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٨٥م) ص ٥٢ – ٧٢. Serjeant, The Portuguese , P.43,T. Wilson Arnold. The Persian Gulf:-an

Historical Sketch from the earliest times to the beginning of the twentieth Century (London, 1945) PP.120ff.

١٦- أنظر السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني، ص٥٤ وما بعدها، Serjeant, The Portuguese P.136 وجزيرة سوقطرة تقع بالقرب من الجنوب للجزيرة العربية وإلى الشرق من عدن ، وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية، ولكن لها أهمية استراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر .

١٧- بامخرمة ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه . تحقيق محمد عبد العال ، ص٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول " البرتغاليون والبحر الأحمر " ، ص٢٠٧ وما بعدها . بشير حمود كاظم " التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر " أبحاث ندوة راس الخيمة التاريخية ٥ – ٧ محرم ١٤٠٨هـ /٢٩–٣١ أغسطس ١٩٨٧م . العلاقة بين الخليج العربي وشرق أفريقيا . ج- ٢ (راس الخيمة : مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م) ص ١٠٣ – ١٢٣ .

١٨- وللمزيد من التفصيل انظر: النهروالي، البرق اليماني ، ص١٦ وما بعدها ، نيقولاى إيفانوف . الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ – ١٥٧٤ . ترجمة يوسف عطا الله (بيروت : الفارابي ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، ١٩٨٨م) ص ، ١٢٠ – ١٢١ بشير حمود كاظم " التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر " ص١١٦ – ١١٨ .

١٩- مما لاشك فيه أن الموقف كان صعبا على دولة المماليك في مصر ، لما تعانيه من ضعف وتمزق في آخر عهدها، لكنها لن تعتذر عن مواجهة البرتغاليين لأنها حتى ذلك الحين لازالت تدعي حمايتها للحرمين الشريفين في الحجاز ، كما أن مسلمي الهند وغيرهم وجهوا إليها الاستغاثة وطلب النجدة والحماية من البرتغاليين . كذلك المماليك أكثر من سيقع عليهم الضرر من جراء هذا الزحف البرتغالي بسبب التهديد

التجاري لهم ، وبسبب سيطرتهم على الموانى الرئيسة في البحر الأحمر ، لذلك يجب أن يكون رد فعلهم أسرع من أي قوة إسلامية أخرى .

٢٠ـ أنظر المليبارى ، تحفة المجاهدين ، ص٤٠ ، النهروالي ، البرق اليماني ص١٩ ، أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى (القاهرة: عيسى الحلبي ، ١٩٦٠ – ١٩٦٣م) ج – ٤ ، ص١٨٢ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٦١

Duarto Barbosa . Adescription of the Coast of East Africa and Malabar in the Beginning of the Sixteen Century , tr.by.Henry Stanley (London, 1866) PP.50-51

٢١ـ وللمزيد من التفصيلات عن دور البنادقة في الصراع الاسلامي الأوربي في عهد دولة المماليك ، انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص٢٠٤ وما بعدها، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص٧٧ وما بعدها .

٢٢ـ وللمزيد من التفصيلات عن تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في العقود الأخيرة من عصر الدولة المملوكية أنظر ، إبراهيم علي طرخان . مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠م) ، نعيم زكي فهمي . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م) ص ، ١٣٠ وما بعدها ، حسن علي ابراهيم . تاريخ المماليك البحرية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) .

٢٣ـ الأمير حسين الكردي الذي تولى الإمارة للسلطان الغوري في جدة ، وعهد إليه طرد البرتغاليين من البحر الأحمر والمحيط الهندي حين كثرت تعدياتهم على المسلمين. وللمزيد من التفصيلات عنه ، انظر . النهروالي ، البرق اليماني ، ص١٩ ، وللمؤلف نفسه . الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص٣٤٥ ، وعبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٣ .

٢٤- أنظر: ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص٢٠٣ ، وللمزيد من التفصيلات عن هذه الحملة أنظر بامخرمة ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، دراسة وتحقيق محمد عبد العال، ص٩٧ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني ، ج٢ ص٦٣٤ وما بعدها ، النهروالي البرق اليماني ، ص١٩ وما بعدها .

٢٥- ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٨٤ – ٨٥ .

٢٦- والمقصود بأولاد الناس فرقة خاصة من ابناء الأمراء المماليك المتفوقين، حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع مرتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي بشرط أن يندرج في الرديف السلطاني، ويكون صالح للخدمة في الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم ، أنظر القلقشندي ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص١٥ ، محمد مصطفى زيادة . المؤرخون في مصر في القرآن الخامس عشر الميلادي (القاهرة : د.ن،١٩٥٤م) ص٢٤ ، ٤٧ .

٢٧- ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص٨٤ – ٨٥ ، ٩٦ ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني . ص٦١ .

٢٨- انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها ، ويذكر أن بني إبراهيم من أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة المكرمة ، وكانت السلطات المملوكية في مصر توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة . وفيما بين سنة (٩٠٧هـ) وسنة (٩١١هـ) قام هؤلاء الأعراب بكثير من السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام ، بل تكررت هجماتهم على التجار في كل من ثغر جدة ومكة المكرمة ، وقد استفحل أمرهم في سنة (٩١١هـ) لدرجة أن السلطان الغوري أمر بإيقاف التوجه إلى الحج في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار حتى يقوم بتأمين طريق القوافل من شر هؤلاء المفسدين، وللمزيد من التفصيلات ، أنظر ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٩٥ وما بعدها ، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق

مكة المعظمة (الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ج٢ ، ص٧٨١ – ٧٩٣ .

٢٩- أنظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص٥٠ – ٥٤ ، وللمزيد من التفصيلات عن بني إبراهيم وما قاموا به من خراب في بلاد الحجاز ، أنظر الجزيري ، الدرر الفرائد ، ج٢ ص٧٨١ وما بعدها .

٣٠- انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٨٤ وما بعدها ، النهروالي ، كتاب الاعلام ، ص٢٤٤ – ٢٤٥ .

٣١- وذكر أن الأمير حسين الكردي كان عقابه شديداً على من يتهاون ويتقاعس في عمله اثناء بناء السور ، سواء كان من العمال الذين جلبهم معه من مصر ، أو من سكان جدة القادرين على العمل والمساهمة في البناء . انظر النهروالي ، كتاب الاعلام ، ص٢٤٥ – ٢٤٦.

٣٢- انظر ص ٥٥ .

٣٣- وقد أشار عبد القادر بن فرج بأن الاذرعة المذكورة هو ذراع العمل، ويساوي ذراع ونصف بذراع النجار، أنظر ، ص٥٥، والمقصود بالذراع النجاري حسب ما عرفه الملك المظفر الرسولي في مخطوطه، المخترع في فنون من الصنع هو ، ثلاثة أشبار باليد ويساوي (٢٤) أصبعاً ، والأصبع عقد أنملة السبابة من الظاهر، وكل (٨) أصابع من هذا القياس شبر ، أنظر المظفر الرسولي . المخترع في فنون من الصنع، مخطوط الآصفية (٢٢١) متفرقات ، ورقة ٦٩ . وفي كتاب الايضاح والتبابن في معرفة المكيال والميزان لابي العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصاري، ص،٧٧، أن الذراع هو مسافة ما بين طرفي المرفق إلى نهاية طرف الأصبع الوسطى من اليد ، وفيه أن ذراع الفقهاء هو ست قبضات معتدلات من كل قبضة اربعة أصابع ، وكل أصبع بعرض ست حبات من الشعير ، وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل . ومن أسمائه ، ذراع

اليد، والغزل ، والعامة، والعتيق، والعادلة، والمرسلة، والقائمة، والكرباس، وذراع اليد . أنظر على بن محمد الماوردي . الأحكام السلطانية في الولايات الدينية (بيروت : دار الكتب العلمية، د . ت) ص١٩٤– ١٩٥ ، وتقي الدين أحمد المقريزي . كتاب الخطط (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د . ت) ج– ١ ، ص٥٩ .

٣٤- أنظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص٥٧٠ ويعتبر كتاب إبن فرج ، المصدر الوحيد الذي ذكر لنا وصف السور الذي بناه الكردي حول مدينة جدة ، وإقامة المؤلف في جدة ربما ساعده أن يدون لنا هذه المعلومات عن السور ، بالإضافة إلى أنه من معاصري القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

٣٥- ويذكر أن الأمير حسين الكردي توجه من جدة إلى سواكن فاستولى على مينائها ، وأقام بعض الاستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ، ثم واصل سيره إلى الموانيء في الجنوب مثل جازان ، وكمران ، والمخا، وأخيراً عدن . أنظر ، ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٩٦ ، بامخرمة، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص١٠٢ – ١٠٣ ، عبد الرحمن بن علي بن الديبع . قرة العيون في اخبار اليمن الميمون . تحقيق محمد بن علي الخوالي (القاهرة : د . ن ، ١٩٧٧م) ص ٢١١ ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص٦١ – ٦٢ .

٣٦- شول : ميناء يقع على الشاطئ الغربي للهند وتتبع مملكة الدكن الاسلامية . أنظر السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص ٦٢٠ .

٣٧- وللمزيد من التفصيلات ، أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٩٦ ما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر، تحقيق محمد عبد العال ، ص١٠٣ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٦٣ وما بعدها ، أحمد دراج . المماليك والفرنجة (القاهرة : د . ن ، ١٩٦١م) ص١٣٧ – ١٣٨٠

H.Morse Stephens. Portugal (London , 1891) PP. 196ff .

٣٨ـ انظر ، المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص٤٠ وما بعدها .

٣٩ـ وكانت قوات دالبوكيرك مكونة من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جندي برتغالي وحوالي ثلاثمائة من نصار الهند ، وقد وصل على ميناء عدن وهاجمه، لكنه لم يستطع إختراقه لوعورة تضاريس عدن وعظم تحصينها واستبسال رجالها في رد الهجوم البرتغالي ، فرجع عنها دون فائدة . وللمزيد من التفصيل، أنظر يحيى بن الحسين بن القاسم . غاية الأماني ، ج٢ ، ص٦٤٠ وما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص١١١ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني، ص٧٠-٧٣ . Stephens, Portugal, PP.190-200 . Wilson, the Persian Gulf, PP.117-119.

٤٠ـ كمران: جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني تجاه وادي سردد. أنظر، بامخرمة ، البحر الأحمر ، ص١٢٢ ، أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي . طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص (د.ن ، ١٣٢١ هـ ص ١٢١ – ١٢٢ .

٤١ـ انظر: بامجرمة ، المصدر السابق ، ص١٢٠ وما بعدها وللمؤلف نفسه . تاريخ ثغر عدن (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٣٦م) ج١ . ص١٥ – ١٦

٤٢ـ أنظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه . " بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى " مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . عدد (١٤) (١٩٦٨م) ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص١٠٨ وما بعدها .

٤٣ـ أنظر بامخرمة ، البحر الأحمر تحقيق محمد عبد العال ، ص١٢٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم " الفتح العثماني ص٧١ – ٧٤ ، Serjeant, The Portuguese, PP.169-170

٤٤- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص١٩١ – ١٩٢

٤٥- فرسانالقديس يوحنا كانوا يسيطرون على جزر في شرقي البحر المتوسط متخذين جزيرة رودس مقراً رئيساً لهم . ويسعون إلى مهاجمة الموانيء الاسلامية المصرية ، ويقومون بكثير من أعمال القرصنة البحرية في مواجهة السفن الإسلامية ، ويعتقدون أن هذه الأعمال العدوانية ضد المسلمين من قبيل الجهاد الديني . وقد بقوا في جزيرة رودس حتى طردهم السلطان العثماني ، سليمان القانوني ، إلى جزيرة مالطة في غرب البحر المتوسط ، وبقوا بها إلى أن قضي عليهم نابليون بونابرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨م .

٤٦- أنظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص ١٩١ – ١٩٢

٤٧- لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الإنعزال عن الحجاز ، فإن حجاجها كانوا يأتون كل عام في موسم الحج ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا إلى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على إبلاغ أمراء مكة المكرمة بانتصارتهم في اوربا ، وعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ارسل إلى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء. كما أرسل له بعض الهدايا من غنائم الفتح . وكان العثمانيون يطمحون إلى مد نفوذهم على الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى أن ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، وذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم . وللمزيد من التفصيلات أنظر ساطع الحصري . البلاد العربية والدولة العثمانية (القاهرة : معهد الدراسات العربية ١٩٥٧م) ص، ٢٦ وما بعدها .

٤٨- انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٩٦ ، ٢٠١ ، ويشير ابن اياس في حديثه عن حملة السويس إلى اهتمام السلطان الغوري بسلمان الريس وجماعته عندما ذهب إلى السويس بنفسه للإحتفال بانزال سفن الأسطول البحري ، فقال :- " ..... وكان هناك الريس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان إظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان حتى قيل دخل العسكر إلى السويس وهو لابس آلة

الحرب وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو الفين .. " انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص١٩٦ - ٣٦٥ ، بامخرمة البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص١٣١ – ١٣٢٠ .

٤٩- انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣٠٧ – ٣٠٨ ، بشير حمود كاظم " التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر " ص ، ١١٣ .

٥٠- أنظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ ما بعدها .

٥١- أنظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٣٠٧ ما بعدها ، النهروالي ، البرق اليماني ، ص، ١٩ ، وللمؤلف نفسه ، كتاب الأعلام ، ص١٦٥ – ١٦٧ ، ٢٤٥ ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص١٣٠ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٩ – ٨٠ .

٥٢- المصادر نفسها .

٥٣- وللمزيد من التفصيلات أنظر : - Wilson, The Persian Gulf, PP.121ff .

٥٤- ابن اياس. بدائع الزهور، ج٤، ص٣٩٥، يحيى بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني، ج٢. ص٦٤١–٦٤٣.

٥٥- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٤٦٦ – ٤٦٧ .

٥٦- المصدر نفسه ، ج٤ ، ص، ٤٦٢ وما بعدها .

٥٧- انظر السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص٧٩ وما بعدها .

٥٨- أنظر النهروالي ، البرق اليماني ، ص ، ٢٠ ، السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني ، ص٨٠ وما بعدها.

٥٩- أنظر نيقولاي إيفانوف . الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص، ١٢٠ وما بعدها .

٦٠- النهروالي ، البرق اليماني ، ص٢٦ – ٢٧٠ .

٦١- بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص١٩٨ – ٢٠٠ السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١٠١ – ١٠٣، . Serjeant. The Portuguese, PP.170 J 172 .

٦٢- أنظر : - Wilson, The Persian Gulf, PP. 123-124, M.Longworth Dames. " The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century " Journal of the Royal Asiatic Society . Part:1 (January, London, 1921) PP.12-13.

٦٣- بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص، ١٩٨ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ابن القاسم . غاية الأماني ، ج ٢ ، ص٦٥٨ – ٦٥٩ . السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٨٥ وما بعدها .

٦٤- ولعل حوادث خيانة بعض المسلمين لصالح المسيحيين كثيرة على مدار التاريخ الاسلامي ، وبالتالي لا يمكن حصرها في هذا المقام ، ولكن نشير إلى أقرب مثال من هذا النوع لهذا البحث . وأقصد بذلك أن الرسول الذي أرسله ملك الحبشة (أسحق) إلى ملوك غرب أوربا عام (١٤٢٨م)، من أجل دعوتهم للمشاركة في حرب صليبية كبرى ضد المماليك في مصر ، كان تاجراً فارسياً مسلماً اسمه علي نور الدين التبريزي ، أنظر جمال الدين يوسف ابو المحاسن . النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم بنر ، عام ١٩٣١م ، ج٦ ، ٦٣٧ – ٦٤٠ .

٦٥- يحيى بن القاسم . غاية الأماني ، ج٢ ، ص٦٥٩ وما بعدها بامخرمة . البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص٢٠٣ وما بعدها .

٦٦- وللمزيد من التفصيلات أنظر ، النهروالي ، البرق اليماني ، ص٤٢ ومابعدها ، بامخرمة . البحر الأحمر، دراسة محمد عبد العال ، ص٢٠٤ وما بعدها ، علي حسون . تاريخ الدولة العثمانية (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص، ٤٥ – ٥٢٠

٦٧- المصادر نفسها .

٦٨- بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ، ١٨٠ وما بعدها ، النهروالي ، البرق اليماني ، ص٣٥ وما بعدها .

٦٩- بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨

٧٠- السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ص١٠١ – ١٠٣ ، **Serjeant, The Portuguese, PP.170ff .**

٧١- أنظر الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص٨٧ – ٨٨ ، عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ص ٤٠ – ٤٢ ، حسن إبراهيم حسن . إنتشار الاسلام في القارة الإفريقية . (القاهرة : د . ن . ١٩٦٣م) ص١٩ – ٢١ .

٧٢- انظر : النهروالي، البرق اليماني ، ص٧٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١٠٥-١٠٦ ، **Serjeant, The Portuguese, PP.171-172**

٧٣- وللمزيد من التفصيلات عن العلاقات مع الأحباش ، سعيد عاشور . الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص١١٥٣، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١٠٨ وما بعدها .

Alvarez a Portuguese PP.311-313,393ff

٧٤- أنظر بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص٢١٠ وما بعدها ، النهروالي ، البرق اليماني ، ص٧٨ وما بعدها .

٧٥- وللمزيد من التفصيلات أنظر : علي حسون ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢ – ٦٦ .

٧٦- أنظر عبد القادر بن فرج . السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٤٠ وما بعدها .

٧٧- هو بركات بن محمد بركات بن حسن بن عجلان ، تولى إمارة مكة المكرمة بعد وفاة أبيه ، وكانت له وقائع مع إخوانه هزاع وحميضة والجازاني ، وتوفي بمصر عام (٩٣١هـ / ١٥٢٥م) . أنظر ، عبد القادر بن

شيخ العيدروس . النور السافر عن أخبار القرن العاشر (بغداد : د . ن ، ١٣٥٣هـ ص ١٥٢ ، أحمد دحلان . خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام (القاهرة : د . ن ، ١٣٠٥هـ) ص٤٦ – ٥٢ .

٧٨- أنظر عبد القادر بن فرج، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ص ٥٨

٧٩- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

٨٠- أن أهمية جدة الاقتصادية وما يفد إليها من تجارات العالم وما يؤخذ عليها من ضرائب جعلت سلاطين المماليك المتأخرين يستأثرون بتلك الضرائب عن طريق السيطرة إدارياً وبشكل مباشر على ثغر جدة بعد أن كانت من قبل تابعة لأمير مكة المكرمة . وهذا التصرف من المماليك يؤكد لنا تدهور أحوالهم الاقتصادية حتى أصبحنا نراهم يلجأون إلى جمع المال وبأي طريقة كانت . وللمزيد من التفصيلات عن أحوال جدة الإدارية والاقتصادية في آواخر عهد المماليك أنظر . تقي الدين أحمد المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣م) ج٤، ص٧٠٧ وما بعدها ، ريتشارد مورتيل . الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٥) ص ، ١٧٣ وما بعدها .

٨١- المصادر نفسها .

٨٢- المصادر نفسها .

٨٣- ريتشارد مورتيل ، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ص١٨٣ وما بعدها .

٨٤- ابن اياس ، بدائع الزهور، ج٤ ، ص، ٣٥٩ .

٨٥- أنظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص٩٠ ، النهروالي ، البرق اليماني ، ص١٩ وما بعدها . أحمد دراج، المماليك والفرنجة ، ص٥٧ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٧٩ – ٨٠

٨٦- النهروالي، كتاب الأعلام ص، ٢٤٥، عبد القادر بن فرج، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة،ص٥٥-٥٨٠

٨٧ـ النهروالي، البرق اليماني ، ص١٩ ، وللمؤلف نفسه، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥٠

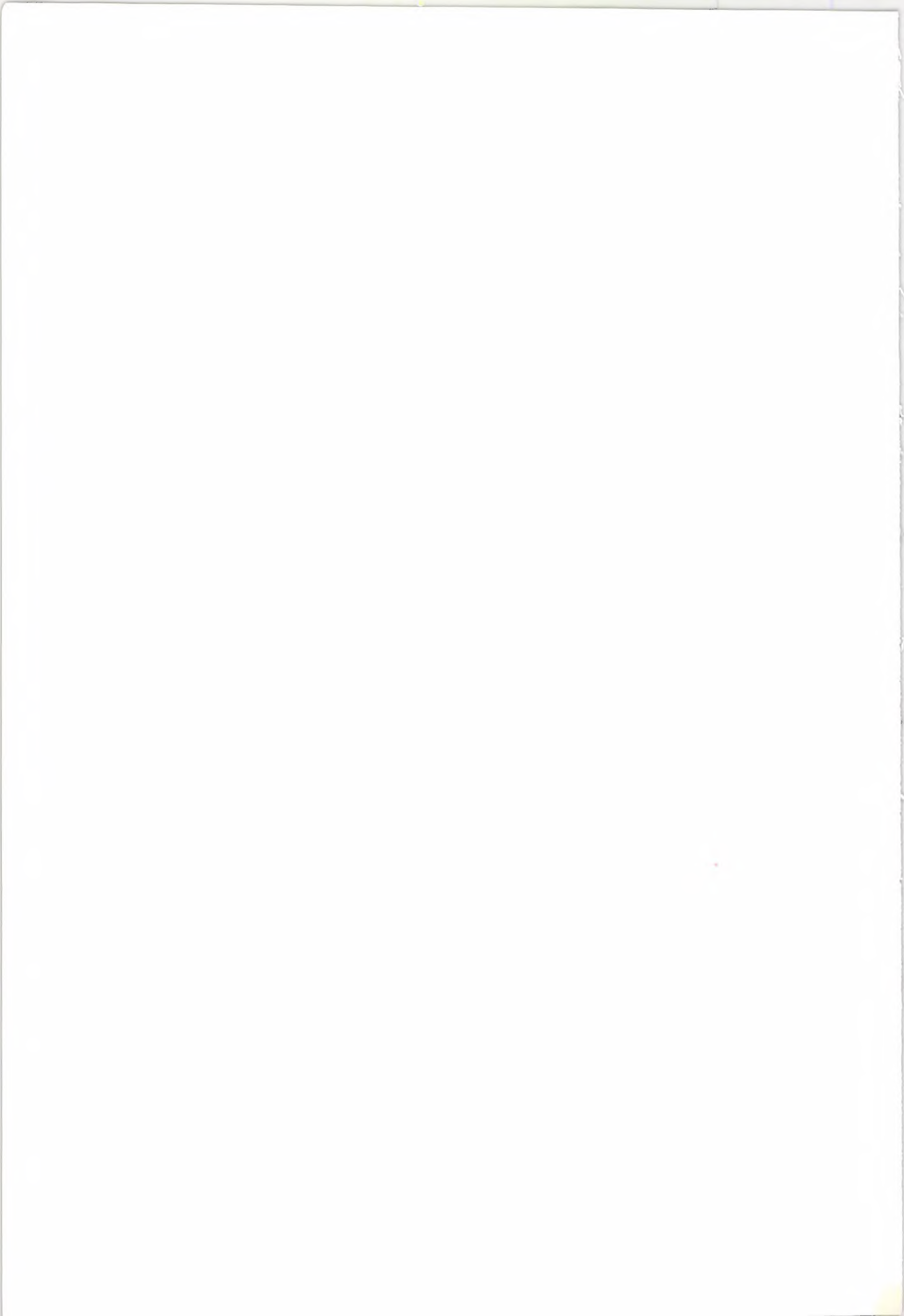
٨٨ـ يحيى بن القاسم . غاية الأماني ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ – ٦٢٧ ، ٦٦٧

٨٩ـ سورة آل عمران ، آية (٢٠٠) .

٩٠ـ سورة الأنفال ، آية (٦٠) .

الطـــائف
دار الحارثي للطباعة والنشر
تليفاكس : ٧٣٣٤٣٧٤
ص ٠ ب : ١٢٨١







دار الحارثي للطباعة والنشر - الطائف - تليفاكس: ٧٣٣٤٣٧٤ ردمك: ٩٩٦٠-٦١٧-٣٨-X